مطبوعات كتابي

يصدرها
حلمي مراد



ضحكة في الظلام !

للكاتب الروسي المعاصر

فلاديمير نابوكوف

ڤلاديمير نابوكوف :

ضحكة فى الظلام !



LAUGHTER IN THE DARK

BY

VLADIMIR NABOKOV

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب السابع والخمسون

ضحكة فى الظلام !

ترجمة : زكى شنودة

الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ثلاثة وتسعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها سبعة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما ، ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

هـذا الكتاب ..

لعل اسم « **فلاديمير نابوكوف** » ليس غريبا على القارىء العربى ، فان الضجة التى اثارتها « **لوليتا** » اغرت كتابنا بالحديث عنه ، وان لم يقدم أحد اعماله الأدبية ــ فى ترجمة كاملة ــ حتى يتعرف القارىء عليه معرفة اوثق ..

ومن جديد ، عاد الكتاب ــ فى الاسابيع الاخيرة ــ يتكلمون عن « نابوكوف » وعن قصته هـذه ، التى تقدمها لك « **مطبوعات كتابى** » اليوم .. لا لأنها آخر انتاجه ــ فالواقع انها تسبق « لوليتا » فى تاريخ صدورها ــ **وانما لأنها تمثل اتجاها جديدا فى كتابة القصة** .. فالكاتب لايحاول ان يحيط موضوعه بالغموض ، ولا يتوسل لاكتساب اعجاب القارىء باستثارة عصابه وارهاقها بتوقع المفاجآت فى كل فقرة .. **وانما هو يصارح القارىء ــ من البداية ــ بموضوعه** : رجل كان ثريا ، ومحترما ، وسعيدا .. هجر زوجته من اجل عشيقة لم تحبه ، ثم انتهت حياته بكارثه .. « هذه هى القصة كلها .. ولعلنا كنا خليقين بأن نكتفى منها بهذا القدر ، لولا ان فى سردها متعة وفائدة »

وهذا هو الواقع .. ففى خلال السرد ، يغوص «نابوكوف» فى اعمق اغوار شخصياته ، ليكشف فى كل منها عن شخصيتين : احداهما مرئية ، مسموعة الصوت ، ظاهرة الحركة .. والاخرى متواربة خلف الاولى ، تتحدث فلايسمع صوتها ، وان كانت هى التى تتحكم فى الأحداث وتوجهها .. ولايكتفى الكاتب بتحليل النفسيات ؛ **بل انه يحلل الاحداث كذلك ، ويسوق الآراء خلال المواقف فى غير اصطناع ولا ابراز يبدد من استرسال الجو الطبيعى ..**

المؤلف فى سطور

على اننا ندعك تكتشف هذا بنفسك ، لنحدثك عن « نابوكوف » فى عجالة موجزة :

انحدر « فلاديمير نابوكوف » من اسرة روسية من اصل ارستقراطى .. لذلك لم تكد الثورة البلشفية تقوم ، حتى نزح — فى سنة ١٩١٩ — الى اوربا ، فأتم تعليمه فى جامعة « كمبريدج » الانجليزية ، حيث برز فى اللغات الحديثة ..
ثم عاش فى المانيا ردحا من الزمن ، حتى اذا استفحلت قبضة النازية على حرية الرأى — **وسوف تصادفك لمحات خاطفة تعكس آثار ذلك على نفسيته وتفكيره** — انتقل الى فرنسا .. ثم انتقل الى امريكا — فى مايو سنة ١٩٤٠ — واتخذها موطنا له ، وعين مدرسا للأدب الروسى ولفن الكتابة فى كلية ويلسيلى ، وفى جامعة «ستانفورد» ..
ومن الطريف ان لنابوكوف ابنا شابا — يدعى « ديمترى » — تولى بنفسه ترجمة الكتب الاولى لأبيه الى الانجليزية ، فقدر لها — بذلك — ان تخرج من قوقعتها ، وان تجتذب انتباه قراء الرواية فى العالم ، اذ سرعان ما ترجمت بعد ذلك الى عدد من اللغات الاخرى ..

على ان « نابوكوف » يكتب الآن قصصه بالانجليزية مباشرة ..

ومن أروع انتاجه : « ضحكة فى الظلام » ، و « دعوة الى قطع رقبة » ، و « الحياة الحقيقية لسباستيان نايت » ، و « لوليتا » ..

الفصل الاول

كان يعيش فى (برلين) - بألمانيا - فى وقت ما ، رجل يدعى « ألبينوس » . وكان ثريا ، ومحترما ، وسعيدا . الا انه ذات يوم ، هجر زوجته من اجل عشيقة فى ربيع العمر ، أحبها .. لكنها لم تحبه .. ثم انتهت حياته بكارثة !

هذه هى القصة كلها . ولعلنا كنا خليقين بأن نكتفى منها بهذا القدر ، لولا أن فى سردها متعة وفائدة .. لأنه اذا كان موجز حياة اى رجل كافيا لان ينقش فى عبارة على رخامة قبره الذى يكسوه الطحلب ، فأن سرد التفاصيل مطلوب دائما ، ومرغوب فيه ..

وكان البينوس - باعتباره ناقدا فنيا ، وخبيرا بالتصوير - يجد كثيراً من المتعة فى اقتناء لوحات كبار الفنانين القدامى ، ذات المناظر الطبيعية والوجوه البشرية ، حتى تحولت حياته الى معرض رائع للصور البديعة . وقد كان - ذات مساء - يروض قريحته الغزيرة العلم بتدبيج مقالة صغيرة عن فن السنما ، حين واتته فكرة رائعة تتعلق بالرسوم المتحركة الملونة - التى كانت قد بدات تظهر فى ذلك الحين - فحدث نفسه : « كم يكون رائعا لو أمكن استعمال هذا الأسلوب فى عرض أحدى اللوحات الشهيرة - ويستحسن ان تكون من المدرسة الهولندية - بحيث تظهر بطريقة متقنة على شاشة السينما فى الوان زاهية ، ثم تبعث فيها الحياة ، فتتحرك فجأة ، وقد اتسقت الصور المتحركة أتساقا تاما مع الصور الأصلية ، فى حالتها الساكنة .. كأن تظهر حانة أجتمع بها بعض الشبان ، يجلسون الى موائد خشبية ، وهم يشربون فى نهم وتلذذ ، وقد تسللت

أشعة الشمس من فناء هنالك ، تمرح فى ساحته جياد مطهمة . ثم ، فجأة ، تبعث الحياة فى كل شيء .. فيبدو ذلك الشاب ذو الرداء الاحمر يضع قدحه . وتلك الفتاة حاملة الصنية تتهادى وتتأود على هواها ، وثمة دجاجة تنقر الأرض عند عتبة الباب .. ويمكن أن يستمر ذلك ، وأشخاص الصورة الأصلية يروحون ويجيئون خلال المنظر الطبيعى ، وقد بدت السماء وردية اللون ، وامتد غدير يكسوه الثلج ، وأشخاص بقباقيب الأنزلاق العجيبة التى كانت تستعمل يومذاك ، يتزحلقون عبر المنحنيات ذات الطراز القديم التى تبدو فى الصورة .. أو ترى العين طريقا تغشاه مياه الامطار ، يتساقط فوقه الرذاذ ، وشخصان يمتطيان الجياد .. وفى آخر الأمر يعود كل شيء تدريجا الى حاله ، فيبتعد الأشخاص ، ويخفت الضوء شيئا فشيئا حتى ترجع الصورة الأصلية الى حالتها الساكنة الأولى .

وبالطريقة عينها يمكن محاولة الأمر نفسه بالنسبة للصور الايطالية ، وكذلك بالنسبة للموضوعات الدينية ، مع مراعاة الدقة فى رسم الأشخاص .. ويتطلب ذلك من الرسامين دراية عظيمة باللوحة المختارة ، والعصر الذى تمثله .. »

وقد حدث بعد قليل أن تحدث ألبينوس عن فكرته هذه مع منتج افلام ، لكن هذا الاخير لم ترقه الفكرة على الاطلاق ، وقال أنها تتطلب دقة فى العمل ينبغى معها ادخال تحسينات جديدة على طريقة الصور المتحركة ذاتها ، وأنها لذلك تتكلف فى جملتها نفقات باهظة الى حد كبير . فضلا عن أن مثل هذا الفيلم ، برغم المشقة التى يحتاج اليها فى رسمه ، لن يستمر عرضه بطبيعة الحال أكثر من بضع دقائق ، ومع ذلك فانه سيصادف لدى أغلب الناس تبرما شديدا ، وسينتهى أمره الى الفشل الذريع !

.. ثم ناقش « ألبينوس » الفكرة مع رجل آخر من رجال السينما ، لكن هذا بدوره سخر من الأمر كله .. فقال ألبينوس : « اننا نستطيع ان نبدأ بشيء بسيط جدا ، كنافذة ملونة مثلا ، تبعث فيها الحياة فجأة ، وتتكشف — بالتدريج — عن أحد القديسين » . فأجابه الآخر بقوله : « أنها فكرة غير صائبة .. ولن نستطيع أن نجازف بعرض صور خيالية » .

غير أن ألبينوس ظل متشبثا بفكرته . واخيرا قيل له عن رسام نابه يدعى « آكسيل ريكس » ، كان قد صور بالفعل قصة فارسية خيالية ، نالت أعجاب الخبراء فى باريس .. ومن ثم حاول ألبينوس ان يقابله ، ولكنه علم انه عاد لتوه الى الولايات المتحدة ، حيث كان يرسم رسوما هزلية لصحيفة مصورة .. واخيرا تمكن ألبينوس بعد حين من الأتصال به ؛ فأبدى ريكس اهتماما بالموضوع .

وفى يوم من أيام مارس ، تلقى ألبينوس خطابا طويلا منه . غير أن الخطاب وصل فى وقت وقعت فيه أزمة مفاجئةفى حياة ألبينوس الخاصة — الخاصة جدا — ومن ثم فأن الفكرة الرائعة التى كان من شأنها لولا ذلك أن تعيش ، وربما وجدت حائطا تعلقت به وأزهرت ، قد ذبلت خلال الاسبوع الاخير .

وقد قال ريكس فى رسالته أن من العبث محاولة أغراء رجال هوليوود بتنفيذ تلك الفكرة ، واقترح على ألبينوس — فى برود — أنه ، بصفته رجلا ثريا ، ينبغى أن يمول فكرته بنفسه ، وفى هذه الحالة : فانه على استعداد لأن يقبل منه أجرا قدره كذا (وذكر رقما مفزعا) ، على أن يتقاضى نصف المبلغ مقدما ، فى نظير أن يرسم أية صورة يريد ألبينوس أن يبعث فيها الحركة والحياة .

وكان بول — شقيق زوجة ألبينوس — حاضرا وقتئذ .

وهو رجل بدين ، طيب الخلق ، تبدو فى جيب سترته مشابك قلمى رصاص وقلمى حبر ، فقال : « لوكنت مكانك ، نقمت بهذه المخاطرة .. ان الأفلام العادية تكلف اكثر من ذلك .. أعنى تلك الممتلئة بالحروب والأبنية التى تنهار وتتهشم » . فأجابه البينوس : « ولكن من ينتج تلك الافلام يسترد كل ما ينفقه عليها .. **كلا ، لاينبغى ان ارتكب هذا الخطأ ! »**

فقال بول ، وهو ينفخ سيجارته ، وكانوا على وشك ان يفرغوا من العشاء : « يبدو أننى ينبغى ان أذكرك بأنك عرضت التضحية بمبلغ كبير ، لا يقل عن الاجر الذى يطلبه ريكس .. ولكن ماذا جرى ؟ انك لا تبدو متحمسا كما كنت منذ لحظة .. فهل ترى ستتخلى عن فكرتك ؟ »

فأجابه قائلا : « لا أدرى .. ان الناحية العملية للموضوع هى التى تضايقنى .. ولولاها لبقيت متشبثا بفكرتى » .

فسألت اليزابيث ـ الزوجة ـ قائلة : « أية فكرة ؟ » .

وكانت تلك عادة متأصلة من عاداتها : أن تسأل عن أشياء قد نوقشت بالفعل بإسهاب فى وجودها ! .. كانت تلك ظاهرة عصبية محضة من جانبها ، وليست برودا أو غفلة .. فكثيرا ما كانت تفطن ـ وهى تلقى السؤال ، وقبل أن تتم عبارته ـ الى أنها تعرف الجواب عليه . وقد كان زوجها يعرف هذه العادة لديها ، فلا تضايقه على الأطلاق ، بل ـ بالعكس ـ كانت تطربه وتسليه ، فكان يواصل كلامه فى هدوء ، وهو عالم كل العلم ـ بل موقن ـ انه سيجيب فى الحال على ذات سؤالها ! .. ولكنه فى ذلك اليوم بالذات من شهر مارس ، كان فى حالة تعسة من البلبلة والانفعال ، حتى لقد أفلت منه زمام أعصابه فجأة ، وقال لها فى خشونة : « هل سقطت لتوك من القمر ؟ »

فنظرت زوجته الى أظافرها ، وقالت فى هدوء : « أوه .

نعم . تذكرت الآن ! » . ثم استدارت الى ايرما - ابنتهاالتى كانت فى الثامنة من عمرها ، وكانت تلتهم فى عجلة طبقا من القشدة بالشكولاته - وصاحت بها : « ليس سريعا هكذا يا حبيبتى .. من فضلك ، ليس سريعا هكذا ! »

وقال بول : « أعتقد أن كل ابتكار جديد .. »

ولكن ألبينوس - وقد اشتدت عليه وطأة عواطفه - ثار فى أعماق نفسه متسائلا : « **ما لى والمدعو ريكس ، وهذه المحادثات الحمقاء ، وهذه القشدة بالشكولاته ؟ .. اننى على وشك ان يصيبنى الجنون .. ولا أحد يعلم ذلك..** وليس فى امكانى ان اتوقف .. كلا . لا امل فى المحاولة .. وغدا سأذهب الى السينما مرة أخرى ، واجلس كالمعتوه فى ذلك الظلام .. ياله من أمر لا يمكن تصديقه ! »

وهو بالتأكيد أمر لا يصدق : فانه طوال التسع سنوات الماضية من حياته الزوجية ، كان يكبح جماح نفسه .. فلم يحدث هذا أبدا .. أبدا .. وراح يحدث نفسه : « اننى - فى الواقع - ينبغى ان اخبر اليزابيث بالامر .. او اخرج معها بعض الوقت .. او اذهب الى طبيب نفسانى .. والا .. كلا . لا يمكن للمرء أن يأخذ مسدسا ، ويصوبه الى فتاة لا يعرفها ، لمجرد انها راقت فى عينيه ! »

الفصل الثانى

لم يكن ألبينوس قط محظوظا فى شئون القلب . فبالرغم من انه كان حسن الصورة ، رفيع الاسلوب ، **فانه لم يجن أية فائدة من اعجاب النساء به !..** فقد كان بالتأكيد ثمة شىء ما يدعو الى الاعجاب فى ابتسامته المشرقة ، وعينيه الصافيتى الزرقة ، اللتين تبرزان قليلا حين يشحذ قريحته.

واذ كان بطىء الفهم ، فقد كان ذلك يحدث أكثر مما ينبغى !.. وكان محدثا لبقا ، يعترى كلامه تردد خفيف جدا ، فى لعثمة لذيذة ، تضفى على أتفه العبارات فتنة خلابة . وأخيرا ، فانه ورث عن والده ثروة طائلة . ومع ذلك فان القصة عرضة لان تغدو تافهة ، لو انه كان بطلها الاوحد !

ففى أيام تلمذته كانت له صلة عقيمة من النوع الثقيل بامرأة عجوز شمطاء ، ارسلت اليه بعد ذلك ، وهو فى الجبهة - أثناء الحرب - جوارب وملابس صوفيـــة ، وخطابات ملتهبة بالعواطف ، مكتوبة فى سرعة كبيرة بخط ردىء غير مقروء ، على ورق من الجلد الرقيق . ثم كانت له بعد ذلك تلك العلاقة بزوجة الاستاذ التى قابلها على ضفاف الراين . وقد كانت جميلة حين يراها المرء من زاوية معينة وفى ضـوء معين ، ولكنها كانت فاترة جدا وخجولا جدا ، ومن ثم فقد هجرها سريعا . ثم آخر الامر - قبل زواجه مبـاشرة - كانت ثمة امرأة فى برلين ، هزيلة العود ، ساذجة الملامح ، عليها الكآبة .. وكانت توافيه مساء كل سبت ، وقد اعتادت ان تحكى كل ماضيها بالتفصيل ، وتكرر ذات العبـارات المجوجة مرة بعد أخرى ، وتتنهد تنهدا مضجرا وهى فى حضنه ، وما تفتأ تردد العبارة الفرنسية الوحيـدة التى تعرفها ، قائلة : « هذه هى الحياة ! » . **وهكذا كانت حياته سلسلة من العـلاقات الكئيبة والفشـل فى الحب ..** كأنما كان كيوبيد الذى يعمل فى خدمته ولا شـك أعسر ، أعمش ، ضعيف الحيلة !.. والى جانب هذه المغـامرات التافهة ، كانت ثمة مئات من الفتيات اللاتى يحلم بهـن ، ولكن لم يحدث ان تعرف بهن قط ، **وانما كن يمررن به ، تاركات فيه - لمدة يوم او يومين - ذلك الشـعور المضنى بالحرمان ، الذى يجعل من الجمال نجما بعيد المنـال فى**

سماء ذهبية اللون .. او موجات من النــور تتراقص على القوس الداخلي لجسر فوق أحد الانهار .. او اى شيءآخر يستحيل أن تدركه او تقبض عليه .

ولقد تزوج .. الا ان اليزابيث ـ وان كان قد احبهـا بطريقة ما ـ لم تستطع ان تعطيه تلك الرجفـة التي كان يضنيه اشتياقه اليها . وقد كانت ـ وهى ابنـــة مدير مسرح مشهور ـ غادة مياسة القد ، رقيقة العود ، ذهبيـة الشعر ، ذات عينين لا لون لهما ، وأنف صغير انتثرت عليه بثور دقيقة . وكانت بشرتها شديدة الحساسية ، حتى ان أخف لمسة تترك فيه بقعة قرنفلية ، لاتزول الا ببطءشديد.

وقد تزوجهـــا ، لا لشيء الا لان ذلك قـــد حدث .

وكان ذلك اثر رحلة قصيرة فى الجبال ، معها ومع اخيها البدين ، وابنة خـالة لها قوية الجسـم بشـكل ملحوظ ، تزوجت والحمد الله من رجـل فى بونتريزينـا .. وكان فى اليزابيث شيء ما يضفى عليها قدرا كبيرا من الظرف وخفة الظل ، وضحكة مرحة صافية . وقد تزوجا فى (ميونيخ) ، حتى يتجنبا هجوم أصدقائهما الكثيرين فى برلين . وكانت اشجار الكستناء فى اكتمال بهائها وتفتح زهورها .

وكانت اليزابيث تتحلى بالرقة والدعة والظرف ، وكان حبها من النوع الطاهر النقى ، ولكنها كانت من حين لآخر تضطرم بالحرارة ، فكان يخيل لألبينوس فى مثل هـــذه الاحيان انهلاحاجة به الى رفيقة اخرى تشبع رغبتهالكامنة.

وحين اصبحت حاملا ، ارتسم فى عينيها تعبير عنالسعادة والرضا ، وبدت وكأنما هى دائمة التأمل فى ذلك العـــالم الجديد الذى بداخلها .. وبعـــد ان كانت تقفز قفزا فى مشيتها ، أصبحت تتهادى متئدة . وكانت تجـرف ملء كفها من الثلج ، تختطفه اختطافا فى غفلة من العيون ثم تروح

تلتهمه فى شراهة . وقد بذل ألبينوس كل ما فى وسعه لرعايتها والعناية بها ، فكان يأخذها خارج البيت فى جولات طويلة يتمشيان خلالها فى بطء وتمهل ، ويتأكد كل مساء من أنها ذهبت مبكرة الى فراشها ، **بيد أنه فى الليل كان يحلم بأنه يحتضن فتاة صغيرة تستلقى عارية على شاطىء بعيد ، تضطرم رماله بالدفء ، ثم يتولاه فى ذلك الحلم خوف مفاجىء من أن تضبطه زوجته !..** وفى الصباح كانت اليزابيث ترنو الى جسمها المنتفخ فى مرآة ، وتبتسم ابتسامة راضية غامضة!

وفى ذات يوم ، اخذوها الى مستشفى الولادة ، وعاش ألبينوس ثلاثة اسابيع وحيداً ، لا يعرف ماذا يفعله بنفسه، فراح يحتسى قدرا كبيرا من « البراندى » . وقد كانت تعذبه فكرتان سوداوان ، وان كان لكل منهما نوع مختلف من السواد : **احداهما ان زوجته قد تموت ، والاخرى انه لو اوتى قدرا قليلا آخر من الجراه ، لالتقط فتاة من فتيات الطريق وأتى بها الى مخدعه الشاغر !**

وراح البينوس يمشى جيئة وذهابا فى ممر المستشفى ذى الجدران المدهونة باللون الابيض ، وكان فى أعلى السلم أناء به شجرة «لاتانيا » . وانه ليكره كل ذلك : يكره ذلك البياض اليائس الذى يرين على المكان ، وممرضات المستشفى ذوات الخدود الوردية ، بحفيف أثوابهن ، والقبعات البيضاء ذات الاجنحة التى على رؤوسهن ، وهن يحاولن ابعاده . وأخيرا ظهر مساعد الجراح ، وقال فى فتور : « حسنا . لقد انتهى كل شىء» . وعندئذ تراقص أمام عينى البينوس رذاذ دقيق اسود ، كأنه مرور فيلم قديم جدا من افلام سنة ١٩١٠ ، يبدو فيه موكب جنازة تهتز وأرجل المشيعين تتحرك بسرعة كبيرة . **وما لبث ان اندفع الى حجرة الولادة .. وهنالك كانت اليزابيث سعيدة ، وقد ولدت بنتا .**

وكانت الطفلة فى اول الامر حمراء الجلد مغضنته ، كأنها كرة من المطاط أفرغت من هوائها . بيد انها سرعان ما غدت ملساء ناعمة الوجه ، ثم بعد عام واحد بدأت تتكلم .. حتى اذا ما بلغت الثامنة ، صارت أقل جلبة ، اذ ورثت طبيعة امها الهادئة ، وكان مرحها كمرح امها كذلك متئدا غير صاخب ، من ذلك النوع من المرح الذى يستشعره المرء لا لشىء الا لانه متمتع بنعمة الوجود ، مع اثارة خفيفة من الدهشة الضاحكة من ذلك الوجود ذاته !

وطوال هذه السنوات ظل البينوس مخلصا لزوجته ، مع ذلك الازدواج فى مشاعره ، الذى كان يضنيه ويرهقه كل ارهاق: فقد كان يحب زوجته حبا صادقا رقيقا ، هو أقوى حب يمكن ان يكنه لكائن بشري ، وكان صريحا معها كل الصراحة، فى جميع الامور ، وكان يفضى اليها بكل شىء ، الا بتلك الشهوة الحمقاء الخفية .. ذلك الحلم الذى كان يضنى لياليه .. الشبق الذى كان يحرقه بنيرانه وينخر متغلغلا فى كيانه .. وكانت اليزابيث تقرأ كل الخطابات التى يكتبها أو يتلقاها ، وتحب ان تعرف كل تفصيلات عمله .. وكانت لهما رحلات بهيجة جدا فى الخارج ، وأمسيات كثيرة ناعمة جميلة فى المنزل ، حين كان يجلس معها فى الشرفة المطلة على الشوارع ذات اللون الازرق الجميل ، والاسلاك والمداخن تبدو كأنها مرسومة بالحبر الهندى على لوحة الليل . وكان اذ ذاك يهمس لنفسه بأنه سعيد حقا وسط صحرائه الجدباء !

***

وفى ذات مساء ــ قبل الحديث عن آكسيل ريكس بأسبوع ــ كان فى طريقه الى احدى المقاهى ، حيث كان على موعد يتعلق بعمله ، حين لاحظ ان ساعته متقدمة ، وان

امامه ساعة كاملة ، بمثابة منحة مجانية ، له ان يستعملها كيف يشاء .. وقد كان عبثا بالطبع ان يعود الى البيت فى الطرف الآخر من المدينة ، كما انه كان راغبا عن الجلوس والانتظار .. وكان منظر الرجال الآخرين مع صديقاتهم يؤلمه دائما ، فراح يتسكع دون غاية ، حتى بلغ دارا صغيرة للسينما ، كانت أضواؤها القرمزية تتلألأ على الجليد ، فراح يتطلع الى الاعلان — وعليه صورة رجل ينظر الى نافذة يطل منها طفل فى قميص النوم — وتردد برهة ، ثم اشترى تذكرة.

فما دلف الى الظلمة الناعمة ، حتى اتجه نحوه الشعاع البيضاوى لمصباح كهربائى ، فقاد خطواته فى الظلام فى خفة وهو يميل جانبا فى لطف ، حتى اذا وقع الضوء على التذكرة فى يده ، لمح وجه الفتاة التى تقوده .. وفيما هو يسير خلفها ، بدت له — وقد لفها الظلام — رشيقة الحركة ، رقيقة القوام ، تنسل فى سكينة وهدوء . وبينما هو يتلمس طريقه الى مقعده ، تطلع اليها فرأى مرة أخرى ذلك الوميض المتألق الذى ينبعث من عينيها . وقد صادف ان وقع الضوء على خدها الناعم ، فبدا له فى الظلام وكأنما رسمته يد فنان عظيم على لوحة فاخرة ، من نسيج فاحم السواد !..

ولم يكن فى ذلك كله ما هو غير عادى بالنسبة اليه ، فقد طالما وقع له مثل ذلك من قبل ، وكان يعلم انه ليس من العقل فى شىء ان يعول على امور كهذه . بيد ان الفتاة ما ان ابتعدت واختفت فى الظلام ، حتى شعر فجأة بالابتئاس والضيق . وكان قد دخل والفيلم يقارب نهايته — وقد بدت على الشاشة فتاة تتراجع بين أثاث مقلوب ، امام رجل ملثم يصوب نحوها مسدسا فى يده — وليس ثمة أى متعة فى ان يشاهد المرء احداثا لا يمكنه ان يفهمها ، اذ فاتته بدايتها .

فلما أضيئت الانوار فى فترة الراحة ، لمح الفتاة مرة

اخرى ، وكانت عند باب الخروج بجانب ستارة ذات لون ارجوانى فاقع ، كانت لتوها قد أزاحتها ، وجموع الخارجين تموج من حولها ، وهى تضع احدى يديها فى جيب ازارها القصير المطرز ، وقميصها الاسود محبوك على ذراعيها وصدرها . **وقد تطلع ألبينوس الى وجهها فى تهيب ، وكان وجها بديعاً ممتقعا ، عليه سمات الاسى والاكتئاب . فقدر انها فى نحو الثامنة عشرة من عمرها .**

وحين أصبح المكان خاليا تقريبا ، وبدأت دفعات جديدة من الوافدين تتلمس طريقها بين الصفوف ، كانت فتاته تروح وتجىء مرارا بالقرب منه ، ولكنه ادار وجهه ، اذ كان يعذبه النظر اليها ، وهو يذكر كم من مرة مرت به غادة جميلة – او اعتقد انها جميلة – ثم ذهبت واختفت !

وظل نصف ساعة اخرى يجلس فى الظلام ، وعيناه تحدقان فى الشاشة ، وأخيرا نهض واتجه نحو باب الخروج ، فأزاحت الستار من اجله – وقد ارتفع من ارتطام حلقاتها الخشبية صليل خافت – وعندئذ حدث نفسه فى تعاسة قائلا : « ولكننى سأتزود بنظرة أخرى » . **وقد بدا له ان شفتيها اختلجتا قليلا ، وهى ترد الستار الى مكانها .**

وفى الخارج كان الشارع غارقا فى وحل احمر كالدم ، وقد بدأ الثلج يذوب ، وامتلأ الليل بالرطوبة ، وراحت الاضواء تومض ثم تتوارى . وقال ألبينوس فى نفسه : « آرجوس .. إنه اسم جميل لسينما » .

وبعد ثلاثة ايام ، لم يعد يمكنه ان يتناسى ذكراها اكثر من ذلك . وقد انتابه تأثر يبعث على الرثاء وهو يدخل المكان مرة أخرى . وهنالك حدث ذات الذى حدث فى المرة الاولى : المصباح الكهربائى تجرى أشعته فى الظلام ، **والعينان الواسعتان يتلألأ وميضهما ، والمشية الرشيقة فى الظلمة**

الكابية ، والحركة الرقيقة لذراعها فى كمها الاسود ، وهى تزيح الستار جانبا . وقال ألبينوس فى نفسه : « ان اى رجل طبيعى فى وسعه أن يعرف ماذا يفعل ، لو كان فى مكانى » . وكانت على الشاشة عربة منطلقة فى طريق ممهد ذى منعطفات حادة ، بين جبل شاهق وهوة سحيقة .

وحاول ألبينوس وهو خارج أن ينظر فى عينيها هذه المرة ، ولكنه اخفق . وكان المطر فى الخارج ينهمر مدرارا ، وقد اصطبغت الارض بذلك اللون القرمزى .

ولو حدث انه لم يذهب مرة اخرى الى هناك ، لكان من المحتمل حينئذ ان يتمكن من نسيان مغامرته تلك ، اما الآن فقد فات الاوان .. **ولقد ذهب الى هناك مرة ثالثة ، وهو مصمم كل التصميم على أن يبتسم لها .. ويا له من شىء تافه ، لو أنه حققه ، ولكن الذى حدث أن قلبه راح يدق دقا شديدا حتى فاتته الفرصة !**

وفى اليوم التالى ، جاء بول — شقيق زوجته — للغداء ، وتكلما معا عن مسألة ريكس ، والتهمت « ايرما » قشدتها بالشكولاته ، وسألت اليزابيث ، على عادتها ، فقال لها : « هل سقطت لتوك من القمر ؟ » ، ثم راح يخفى ضجره بضحكة مفتعلة .

وبعد الغداء ، جلس بجانب زوجته على الاريكة الرحبة ، وبدأ يقطف منها قبلات صغيرة ، وهى تتطلع الى الاثواب والصور فى مجلة نسائية ، وراح يفكر فى نفسه فى اعياء قائلا : **« لعنة الله على كل شىء .. اننى لسعيد .. فماذا يعوزنى أكثر من ذلك ؟ تلك المخلوقة التى تنسل فى الظلام ؟ ! ..** وددت لو سحقت رقبتها الجميلة .. ولكنها قد ماتت بالنسبة لى .. فاننى لن اذهب الى هناك مرة اخرى ! »

الفصل الثالث

كان اسمها «مارجوت بيترز» . وكان أبوها بوابا ، أصيب فى الحرب أصابة بالغة . وكان رأسه الاشيب ما يفتأ يهتز بغير انقطاع ، وكأنه يؤكد ـ بصورة مستمرة ـ ما هو فيه من هم وغم . وكانت أقل أثارة تدفع به الى نوبة من التهيج العنيف .. أما أمها ، فكانت بعد فى طور الشباب ، ولكنها محطمة كذلك . . وكانت فظة قاسية القلب ، ويدها الضاربة الى الحمرة ما تفتأ مستعدة للضرب على الدوام . وكان رأسها فى أكثر الأحيان معصوبا بمنديل يقى شعرها من التراب أثناء العمل ، الا انها كانت ـ بعد انتهاء عملية التنظيف الكبرى يوم السبت ـ ترتدى ثيابها وتخرج لزيارة صاحباتها . ولم يكن السكان يحبونها لسلاطة لسانها وطريقتها الوقحة وهى تأمرهم بمسح احذيتهم فى الممسحة . وكانت درجات السلم هى صنمها المعبود .. لا باعتبارها رمز الصعود الى المجد ، وانما لانها شىء يجب أن يظل نظيفا . ومن ثم فقد كان أشد ما يثير حنقها أن ترى على الدرجات البيضاء الناصعة ، اثرا أسود لحذاء تتتابع خطواته الى نهاية السلم . . على أنها كانت امرأة فقيرة ، ومن ثم فلا داعى للسخرية !

وكان « أوتو » ـ شقيق « مارجوت » ـ شابا يكبرها بثلاث سنوات ، ويعمل فى مصنع دراجات . وكان يزدرى مهنة والده ، ويشتغل بالسياسة ، فكان يضرب المنضدة بقبضته قائلا : «ان أول ما ينبغى للانسان هو معدة ممتلئة» .. وهذا هو مبدأه الذى اعتاد أن يسير عليه .. ولا شك انه مبدأ رنان .

وقد ذهبت مارجوت فى طفولتها الى المدرسة ، وهناك كانت تتلقى من الضرب أقل مما كانت تتلقاه فى البيت .. والحركة المألوفة لدى القطة الصغيرة ، هى أن تقفز قفزة صغيرة بطيئة ، ثم تتوالى قفزاتها فجأة .. **أما الحركة المألوفة لدى « مارجوت » فكانت أن ترفع مرفقها فى حركة حادة لتحمى وجهها من الضرب !** .. الا أنها رغم كل شىء نمت وتفتحت وأصبحت فتاة مشرقة ممتلئة بالحيوية والحياة . فما أن بلغت الثامنة حتى اشتركت – بكل مافيها من المرح المتدفق – فى مباريات كرة القدم المحتدمة الصاخبة التى كان يقيمها تلاميذ المدارس فى وسط الشارع ، بكرة من المطاط فى حجم البرتقالة . ثم تعلمت – فى العاشرة – ان تركب دراجة أخيها ، فكانت تنطلق – وذراعاها عاريتان ، وضفائرها الطويلة السوداء تتطاير فى الهواء – تارة فوق الرصيف ، وتارة فى عرض الطريق ، ثم لا تلبث أن ترتكز بقدم واحدة على حجر كبير ، وتظل ساكنة حالمة .

بيد أنها – فى الثانية عشرة – أصبحت أقل ميلا الى اللعب والصخب . وكانت تلك هى الايام التى لم تكن تعشق فيها أكثر من الوقوف لدى الباب ، والثرثرة بصوت خافت مع ابنة بائع الفحم ، متحدثتين عن النسوة اللائى يزرن بعض السكان ، أو عن قبعات السيدات المارات فى الطريق .. وذات مرة ، عثرت تحت السلم على حقيبة يد رثة ، بها قرص صغير من صابون اللوز ، وقد التصقت به خصلة شعر رقيق مجعد ، وبضعة صور فاضحة جدا . **وفى مرة أخرى ، اقترب منها الولد ذو الشعر الاحمر – الذى اعتاد على الدوام أن يدفعها بيديه أثناء اللعب – وقبلها فى مؤخر عنقها .** ثم حدث – ذات مساء – أن أصابتها نوبة هستيرية ، صبوا بسببها الماء البارد على رأسها ، ثم ضربوها ضربا مبرحا .

وبعد ذلك بعام ، ازداد جمالها ازديادا واضحا . وصارت تلبس ثوبا قصيرا أحمر اللون ، وتحب السينما حبا جنونيا . وقد أعتادت - فيما بعد - أن تتذكر هذه الفترة من حياتها بحسرة شديدة : الأمسيات الهادئة المتلألئة الدافئة .. وأصوات الحوانيت وهى تغلق وقد تقدم الليل .. وأبوها جالس فى استرخاء خارج الباب وهو يدخن غليونه ويهز رأسه .. وأمها وقد عقدت ذراعيها .. وأيكة البنفسج نائمة على السور .. و « فراو فون بروك » عائدة الى بيتها بمشترياتها فى حقيبة خضراء من الخيط المجدول .. و « مارتا » الخادمة تتأهب لعبور الطريق مع كلبها السلوقى وكلبى الصيد بشعرهما الشائك .. والليل يرخى سدوله .. وأخوها يأتى مع زميلين صاخبين ، يتدافعان نحوها ، ويحاصرانها ، حائمين حول ذراعيها العاريتين ، وكانت عينا أحدهما كعينى الممثل السينمائى « فيديت » .. والشوارع والطوابق العليا للمنازل ، سابحة كلها فى الضوء الاصفر ، وقد ران عليها سكون لا يعكره الا رجلان أصلعان يلعبان الورق فى الشرفة - عبر الطريق - وكل ضحكة أو ضربة بنان منهما يمكن للأذن أن تسمعها .

***

وإذ أصبحت فى السادسة عشرة ، صادقت الفتاة الجالسة خلف صندوق النقود فى حانوت صغير عند ركن الشارع . وكانت الأخت الصغيرة لهذه الفتاة تعمل نموذجا لأحد الفنانين ، وتحصل من هذا العمل على أجر سخى . ومن ثم راحت « مارجوت » تحلم بأن تغدو نموذجا ، ثم نجمة سينمائية .. وكان ذلك يبدو لها أمرا سهلا : فها هى ذى السماء متأهبة لاستقبال نجمتها . وفى تلك الفترة

تعلمت الرقص وأخذت تذهب من وقت لآخر مع فتاة الحانوت الى ملهى « الفردوس » ، حيث كان الشيوخ من الرجال يعرضون عليها - بين عواء الجازباند - عروضا فاضحة !

وفى ذات يوم ، كانت واقفة عند ركن الشارع ، حين اقترب منها فجأة شاب يركب دراجة بخارية - وكانت قد رأته مرة أو مرتين من قبل - وعرض عليها أن تركب معه . وكان ذا شعر كستنائى مصفف الى الخلف ، وقميصه يتماوج أمامه وهو منتفخ بما فيه من هواء . فابتسمت له ، وجلست خلفه ، وضمت أطراف ثوبها .. وان هى الا لحظة حتى كان منطلقا بسرعة مخيفة ، ورباط رقبته يتطاير فى وجهها . وقد أخذها الى خارج المدينة ، وهنالك عرج بها على بقعة خلوية .. وكانت الشمس مشرقة ، والطيور ترفرف ، والسكون الشامل يرين على شجر الصنوبر والخلنج . وجلس بجانبها على حافة أخدود هنالك ، وقال لها أنه فى السنة الماضية رحل الى أسبانيا على دراجته .. ثم طوقها بذراعه وراح يضمها اليه ويتحسس ذراعيها وينهال عليها بقبلات عنيفة أجهدتها ثم أصابتها آخر الأمر بالدوار .. وراحت تتلوى حتى تملصت منه ، وقالت له باكية : « لك أن تقبلنى .. ولكن ليس بهذه الطريقة ! » . فهز الشاب كتفيه ، وقفز الى دراجته ، ثم انطلق تاركا اياها جالسة على حجر من احجار الطريق . فعادت الى البيت على قدميها ! وهنالك أمسك بها شقيقها « أوتو » - وكان قد رآها حين ذهبت - وقبض على عنقها بأصابعه ، ثم ركلها وكلة بارعة جعلتها تسقط على آلة الخياطة ، فأصابتها منها رضوض .

وفى الشتاء التالى ، قدمتها أخت فتاة الحانوت الى « فراو ليفاندوفيسكى » ، وهى امرأة عجوز ، تعيش فى حى راق ،

وتتحدث بأسلوب رقيق ، وان كان حديثها تافها .. وعلى خدها بقعة كبيرة أرجوانية بحجم اليد ، اعتادت أن تبرر وجودها بأن أمها ذعرت من النار وهى حبلى بها . وقد أقامت « مارجوت » بغرفة الخادمة فى مسكنها .. **وحمد أبواها الله على أنهما تخلصا منها ، فضلا عن أنهما كانا يعتقدان أن أى عمل يعتبر مقدسا ما دام يدر مالا ! ..** وكان أخوها ــ الذى اعتاد أن يحب الكلام بعبارات تهديدية عن شراء الرأسماليين لبنات الفقراء ــ غير موجود ، لحسن الحظ ، اذ كان يعمل فى (برسلاو) .

وقد وقفت « مارجوت » ــ فى مبدأ الامر ــ كنموذج فى مدرسة من مدارس البنات ، ثم فى مرسم حقيقى بعد ذلك . حيث كان يتطلع اليها فنانون لا من النساء فحسب ، وانما من الرجال كذلك .. وكان أغلبهم شبان . وكانت تجلس على بساط صغير ، وشعرها الاسود الناعم مصفف أبدع تصفيف ، وهى عارية تماما ، وقد ثنت قدميها تحتها ، واتكأت على ذراعها ذات الاوردة اللازوردية ، وبدا ظهرها ناعما ، وانتشر زغب خفيف بين كتفيها البدعتين ، وقد رفعت أحداهما الى خدها الوردى ، ومالت قليلا الى الامام فى شبه فتور وتأمل . وكانت ترقب بطرف عينها التلاميذ وهم يرفعون أبصارهم ثم يخفضونها .. وتسمع الحفيف الخفيف الصادر عن أقلام الفحم ، وهى تظلل هذا القوس أو ذاك ..

واختارت من بينهم واحدا ــ كان أكثرهم وسامة ــ فراحت ترميه بنظرة غامضة ملؤها الفتنة ، كلما رفع وجهه وتطلع اليها وشفتاه منفرجتان وجبينه مقطب . ولكنها لم تفلح أبدا فى أن تجذب انتباهه اليها ، وكان هذا يؤلمها أيما ألم ! .. **فقد كانت ــ من قبل ــ تتوهم ذلك غاية السعادة ، كلما تصورت نفسها جالسة هكذا ، غارقة وحدها فى هالة**

من النور ، وكل العيون تتطلع اليها .. بيد أن كل الذى حدث ـ فى الواقع ـ هو انها أصبحت تعانى الملل الشديد . ولكى تلفت الأنظار اليها ، اخذت تبالغ فى تزيين وجهها ، وتغرق بالطلاء الاحمر شفتيها الحارتين بطبيعتهما ، وتغالى فى تسويد أجفانها ، بالرغم من أنها كانت سوداء فى الاصل بما فيه الكفاية .. بل انها مست حلمتى نهديها ـ ذات مرة ـ بأحمر الشفاه ، فتلقت بسبب ذلك تعنيفا شديدا من المرأة « ليفاندوفيسكى » !

***

ومرت الايام هكذا ، وليس لدى « مارجوت » الا فكرة غامضة عن هدفها الحقيقى ، وقد ظلت تراود خيالها ـ على الدوام ـ صورتها وكأنها غادة جميلة ترتدى الفراء الفاخر ، يعاونها خادم فندق فخم على النزول من عربة فارهة ، تحت مظلة عظيمة . وكانت تسأل نفسها فى عجب : كيف يتسنى لها أن تقفز مباشرة من البساط الحائل اللون ـ فى المرسم ـ الى ذلك العالم المشرق المتلألىء ، حين أنبأتها فراو « ليفاندوفيسكى » ـ لاول مرة ـ عن شاب متيم فى هواها من الارياف ، قائلة لها فى رقة وهى تشرب قهوتها : **« ليس بوسعك الحياة هكذا وحيدة .. فأنت صبية فاتنة ، وينبغى أن يكون لك صاحب .. وهذا الشاب الخجول يبحث عن تربة نقية فى هذه المدينة الشريرة »** .

وكانت مارجوت تضع فى حجرها كلب « فراو ليفاندوفيسكى » **الاصفر** المكتنز ، وهى **تشد أذنيه** الناعمتين الحريريتين ـ اللتين كانتا تشبهان من الداخل زهر القرنفل الاسود ـ لتضم طرفيهما فوق رأسه الظريف ..

وأجابت دون أن ترفع عينيها قائلة : « أوه . لا داعى لذلك

بعد ، فأنا ما زلت فى السادسة عشرة .. أليس كذلك ؟ .. ثم ما الفائدة ؟ هل يؤدى ذلك الى شىء ؟ .. اننى أعرف أولئك الاشخاص » .

فقالت فراو ليفاندوفيسكى فى هدوء : « أنت مجنونة .. أننى لا أكلمك عن أحد أولئك المحتالين ، وانما عن رجل كريم رآك مرة فى الطريق ، ومنذ ذلك اليوم وهو يحلم بك ! »

فقالت مارجوت وهى تقبل الثؤلول الذى على خد الكلب : « أظنه كهلا محطما .. » .

فأجابتها فراو ليفاندوفيسكى قائلة : « مجنونة .. انه فى الثلاثين ، حليق الذقن ، أنيق الهندام ، ذو ربطة عنق حريرية ، ومبسم ذهبى للسجائر » .

وعندئذ قالت مارجوت للكلب : « هيا .. هيا بنا نتمشى ! » .. فانسل من حجرها الى الارض ، وانطلق يجرى فى الردهة .

وكان السيد الذى أشارت اليه « فراو ليفاندوفيسكى » أبعد الناس عن أن يكون شابا خجولا من الأرياف .. وقد اتصل بها عن طريق تاجرين عرفهما فى الباخرة وكان يلعب معهما البوكر ، طوال الطريق من (بريمن) الى (برلين) . ولم يجر أى كلام فى مبدأ الامر عن الثمن .. كل الذى حدث هو أن « القوادة » أرته صورة فتاة باسمة ، وبريق الشمس فى عينيها ، وكلب نائم بين ذراعيها . فلم يفعل « ميللر » ـ وهذا هو الاسم الذى ذكره ـ الا أن هز رأسه موافقا .

***

وفى اليوم المحدد اشترت المرأة بعض الفطائر ، وأعدت قدرا كبيرا من القهوة ، ونصحت « مارجوت » ـ فى كثير من الدهاء ـ بأن ترتدى ثوبها الاحمر القديم .

وفى نحو الساعة السادسة رن الجرس . وعندئذ قالت مارجوت فى نفسها : « اننى لن أعرض نفسى لاى مخاطرة . فلو اننى كرهته ، فسأقول لها ذلك فوراً . واذا لم أكرهه ، فسأتيح لنفسى الفرصة الكافية للتفكير ! »

الا أنه لم يكن لها ــ لسوء الحظ ــ أن تبت بهذه البساطة فيما عساها أن تفعل مع ميللر : فقد كان ــ أول كل شىء ــ ذا وجه يصدم الناظر اليه ، بشعره الطويل الاغبر غير اللامع ، المرتد الى الخلف فى اهمال ، والذى لم يكن مستعاراً ، وان بدا كذلك .. وبوجنتيه اللتين كانتا تبدوان غائرتين لفرط بروز عظامهما .. وبشرته الشديدة البياض وكأنها مطلية بطبقة كثيفة من المسحوق (البودرة) .. وعينيه الحادتين البراقتين .. وذينك المنخرين المضحكين ، المثلثى الاركان ، اللذين كانا يذكران المرء بالوشق الضارى ، وهما لا يكفان عن الحركة أبداً .. والنصف الاسفل من وجهه ، بذينك الاخدودين الغائرين عند طرفى الفم ..

وكانت ثيابه تبدو أجنبية : ذلك القميص ذو الزرقة الناصعة ، وربطة العنق الزاهية الزرقة ، والسترة الداكنة الزرقة ، وسراويله الواسعة .. وكان يبدو فارع الطول ، نحيف القوام ، وهو يحرك كتفيه المربعين فى خفة ، ويتخذ طريقه بين أثاث « ليفاندوفيسكى » ذى الاغطية المخملية .

وكانت « مارجوت » تتصوره ــ من قبل ــ غير ذلك تماما ، وقد جلست وذراعاها معقودتان ، وهى تستشعر الحسرة وخيبة الامل ، بينما كان ميللر يلتهمها بعينيه .

وسألها بصوت خشن عن اسمها ، فلما أجابته ، قال وهو يطلق ضحكة قصيرة : « وأنا آكسيل الصفير » . ثم تحول عنها فى فظاظة ، وواصل كلامه مع « فراو ليفاندوفيسكى » ، عن مشاهد برلين . وكان متأدبا ــ فى شىء من السخرية ــ

مع مضيفته ! .. وصمت فجأة ليشعل سيجارته ، فلصقت قطعة صغيرة من ورق السيجارة بشفته المكتنزة الشديدة الحمرة .. ولكن أين المبسم الذهبى ؟ !

وأخيرا قال : « انها لفكرة يا سيدتى العزيزة .. هاك بطاقة لمقعد أمامى بمسرح فاجنر ، ولا بد أنك تحبينه .. فارتدى قبعتك ، واستأجرى عربة أدفع عنك أجرها كذلك ! »

فشكرته فراو ليفاندوفيسكى ، قائلة - فى شىء من العزة - أنها تفضل البقاء بالمنزل . وتضايق ميللر بشكل واضح ، وقام من مقعده قائلا لها : « هل لى أن أقول لك كلمة ؟ » . بيد أن السيدة تجاهلت قوله ، وقالت فى برود : « خذ مزيدا من القهوة ! » . فازدرد ميللر كلامه ، وجلس مرة أخرى ، ثم ابتسم وبدأ - فى أسلوب ظريف هذه المرة - يقص عليهما قصة فكهة عن صديق له من المغنيين فى الاوبرا .. فما لبثت مارجوت أن عضت شفتيها ، ثم انحنت فجأة الى الامام ، واستغرقت فى نوبة من الضحك الذى يشبه ضحك الاطفال ، وضحكت « فراو ليفاندوفيسكى » كذلك ، وصدرها الضخم يهتز اهتزازا رتيبا .

وفكر ميللر فى نفسه قائلا : « حسنا .. اذا كانت العاهرة العجوز تريدنى أن أمثل دور العاشق المتيم ، فسأفعل ذلك بغير شك ، وباتقان ونجاح يفوقان ما تتصور ! »

ومن ثم جاء مرة أخرى فى اليوم التالى ، ثم مرة ثانية ، ثم ثالثة . ولكن فراو ليفاندوفيسكى - التى لم تكن قد تقاضت سوى مبلغ صغير كمقدم للأتعاب ، وكانت تريد اقتضاء المبلغ كله - لم تدع الاثنين وحدهما لحظة واحدة . الا أنه كان يحدث أحيانا ، حين كانت « مارجوت » تأخذ الكلب لتتمشى به فى أواخر الليل ، ان كان « ميللر » يبرز لها فجأة من جوف الظلام ، ويسير بجانبها ، فتضطرب أشد

الاضطراب وتسرع الخطى بغير وعى ، تاركة الكلب يتبعها وقد مال بجسمه قليلا عن اتجاهه وهو يجرى متأرجحا . غير أن فراو ليفاندوفيسكى علمت بهذه المقابلات السرية ، فأصبحت بعد ذلك تصطحب الكلب بنفسها !

***

ومر أكثر من أسبوع على هذه الوتيرة ، ثم قرر ميللر العمل . فقد كان من السخف أن يدفع الثمن الغالى الذى تطلبه المرأة ، فى حين أنه كان على وشك أن يحصل على ما يشتهى دون مساعدتها . وفى ذات ليلة ، روى لها ولمارجوت ثلاث حكايات فكهة أخرى ، كانت أظرف ما سمعتا .. وشرب ثلاث أقداح من القهوة .. ثم قام الى فراو ليفاندوفيسكى ، فجمعها فى ذراعيه ، ودفع بها الى الحمام ، وأدار المفتاح فى الباب من الخارج ! ..

وبوغتت المرأة المسكينة لاول وهلة مباغتة شديدة ، فظلت خمس ثوان لا تنطق حرفا ، ولكنها بعد ذلك لم تكف عن الصراخ .

وتحول الرجل الى « مارجوت » ، وكانت واقفة فى وسط الغرفة وقد عقدت يديها على رأسها ، وقال لها : « احزمى أمتعتك وتعالى ! » .. وأخذها الى مسكن صغير ــ كان قد استأجره لها فى اليوم السابق ــ فما عبرت عتبته حتى أذعنت واستكانت فى نشوة من السعادة والرضا بحظها الذى كانت تنتظره منذ بعيد !

وأحبت ميللر حبا جما .. فقد كانت ثمة متعة ــ ايما متعة ــ فى ضمة ذراعيه القويتين ، ولمسة شفتيه الغليظتين . ولم يكن يتكلم معها كثيرا ، ولكنه كان فى معظم الوقت يجلسها على ركبتيه ، ويضحك فى تؤدة ، وهو يفكر فى شىء

لا علم لها به . ولم يكن فى وسعها أن تعرف ماذا كان يفعل فى برلين ، أو من هو فى الحقيقة .. كما لم يمكنها أن تعرف عنوان فندقه . وحين حاولت ـ ذات مرة ـ أن تفتش جيوبه ، انهال بضربة على مفاصل أصابعها ، مما جعلها تصمم على أن تعاود الكرة بطريقة أفضل .. ولكنه كان حريصا جدا .

وكانت تخاف كلما خرج الا يعود أبدا مرة أخرى . بيد انها ـ فيما عدا ذلك ـ كانت سعيدة جدا ، كانت تأمل أن يظلا على الدوام معا . وكان من وقت لآخر يهديها شيئا ما ـ كجوارب حريرية ، أو علبة « بودرة » ـ الا أنه لم يكن يمنحها شيئا غالى الثمن ، وان اعتاد أن يأخذها الى المطاعم الأنيقة ودور السينما . ثم أصبح بعد ذلك يأخذها الى المقهى .. وفى ذات مرة جاءت ممثلة مشهورة من ممثلات السينما ، وجلست على بعد موائد قليلة منها . والتفت هو الى الرجل الذى كان معها ، وبادله التحية . فشهقت « مارجوت » لفرط الازدهاء والسرور .

وكان هو من جانبه متعلقا بها ، حتى أنه كثيرا ما كان يهم بالرحيل ، ثم يلقى بقبعته فجأة فى أحد الاركان ، ويقرر أن يبقى .. وقد اكتشفت مصادفة ـ ذات مرة ـ أنه يعتزم الرحيل الى نيويورك . ومر على ذلك شهر كامل ، ثم نهض ـ فى ذات صباح ـ مبكرا عما كان يفعل عادة ، وقال أنه راحل .. وسألته لاى مدة ، فنظر اليها ، ثم راح يذرع الغرفة جيئة وذهابا فى ((بيجامته)) الارجوانية ، وهو يفرك يديه كأنه يغسلهما ، وقال فجأة : ((الى الابد فيما أعتقد !))

وشرع يرتدى ثيابه دون أن ينظر اليها ، وقد حسبته يمزح ، فخلعت ملابسها وألقتها بعيدا ـ اذ كانت الغرفة حارة جدا ـ وأدارت وجهها الى الحائط . وعندئذ ضرب

الارض بقدمه قائلا : «ليس عندى مع الاسف صورة لك!» . ثم سمعته يغلق الحقيبة الصغيرة التى كان يضع فيها بعض الاشياء التى يأتى بها اليها .

وبعد بضع دقائق قال لها : « لا تتحركى ، ولا تتلفتى حولك ! » . فلم تتحرك .. ولكن ماذا كان يفعل ؟.. لقد صاح فيها مرة أخرى حين حركت كتفها العارى ، قائلا : « لا تتحركى ! » . ولمدة دقيقتين ، ران السكون ، لا يعكره الا صرير خفيف ، كان يبدو مألوفا . وأخيرا قال لها : « يمكنك الآن أن تستديرى ! » . ولكن مارجوت ظلت بلا حراك ، فسار نحوها وقبل أذنها وخرج مسرعا .. وظل صوت القبلة يرن لحظة فى أذنها . وظلت فى الفراش طول النهار ، ولكنه لم يعد !

وفى الصباح التالى تلقت برقية من بريمن ، جاء بها : « أجر الغرف مدفوع حتى يوليو .. وداعا أيتها الشيطانة الحلوة ! »

فصاحت مارجوت قائلة : « يا الهى ! .. ماذا أفعل بدونه ؟ ».ثم قفزت الى النافذة ، وفتحتها على مصراعيها ، وهمت بالقاء نفسها الى الشارع . ولكن سيارة اقبلت فى هذه اللحظة ، لنبعث منها اضواء حمراء وذهبية ، وهى تجلجل بصوت مرتفع ، ووقفت أمام المنزل المقابل ، الذى تكأكأ الناس عنده . وكانت تنبعث من أحدى النوافذ العليا غيوم من الدخان ، وتتطاير فى الهواء قصاصات سوداء من الورق المحترق . فألهاها الحريق عما كانت قد اعتزمته !

***

ولم يكن قد تبقى لها الا القليل من النقود ، بيد انها فى كربها ذهبت الى ملهى من ملاهى الرقص ، كما تفعل الفتيات

المهجورات فى الافلام. وهنالك اقترب منها رجلان يابانيان . واذ كانت قد احتست أكثر مما ينبغى من الشراب ، وافقت على أن تقضى الليل معهما ! .. وفى الصباح التالى طلبت مائتى مارك .. الا أن الرجلين أعطياها مائة وخمسين قطعة من العملة الصغيرة وصرفاها . ومن ثم قررت أن تكون أكثر حذرا فى المستقبل !

وفى ذات ليلة كانت فى احدى الحانات ، فجاء كهل بدين ، ذو أنف يشبه الكمثرى المعطوبة ، ووضع يده المجعدة على ركبتها الناعمة ، وقال لها فى اشتياق : « يسعدنى أن أراك مرة أخرى يا دورا .. أما زلت تذكرين أى لهو تمتعنا به فى الصيف الماضى ؟ » . فضحكت وأجابته قائلة أنه مخطىء . فسألها الكهل ــ وهو يتأوه ــ عما تحب أن تشرب ، ثم مضى بها الى البيت . الا انه كان قاسيا معها ــ فى ظلمة العربة ــ حتى لقد قفزت منها تاركة اياه . ولكنه تبعها ، وراح يتوسل اليها ــ والدموع فى عينيه ــ أن تلقاه مرة أخرى ، فأعطته رقم تليفونها ..

وحين دفع ايجار غرفتها حتى شهر نوفمبر ، وأعطاها مالا كافيا لتشترى ثوبا من الفرو ، سمحت له بأن يقضى الليل معها . واذا به مريح جدا ، فسرعان ما استغرق فى النوم .. ولكنه لم يف بالموعد الذى ضربه لها بعد ذلك ، فلما اتصلت ــ آخر الامر ــ بمكتبه تليفونيا ، قيل لها انه مات !

وباعت رداءها الفرو ، فكفاها ثمنه حتى الربيع . الا انها ــ قبل أن تبيعه بيومين ــ شعرت برغبة شديدة فى أن تبدو امام والديها وهى فى بهائها ، فاستأجرت عربة الى المنزل ، وكان يوم سبت .. وكانت أمها تمسح مقبض الباب الامامى ، فما رأت ابنتها ، حتى جمدت فى مكانها ، وقالت لها فى حدة :



وعلى قدر ما ازدادت حدة سمع البينوس ، ازدادت جرأة ريگس ومارجوت ، وقد اطمأنا الى ستار الامن الذى تمثل فى عماه ..

(ص ٤٥)

« لن أقبلك أبدا ! » . فابتسمت مارجوت فى هدوء ، وعادت الى العربة . ومن خلال النافذة الخلفية رأت أخاها يقبل مسرعا من المنزل ويصرخ بشىء ما خلفها ، وهو يلوح بقبضته .

واستأجرت غرفة أرخص من السابقة ، واعتادت أن تجلس على حافة سريرها فى الظلمة المتراكمة ـ وهى نصف عارية الجسم ، حافية القدمين ـ وتروح تدخن بلا انقطاع . وكانت صاحبة المنزل ـ وهى امرأة حنون ـ تأتى من حين لآخر لتتحدث معها بعض الوقت .. وكان الشتاء يبدو أكثر بردا من المعتاد ، فراحت مارجوت تبحث عن شىء لديها ترهنه ليفى بحاجتها ، وهى تقول فى نفسها : « وماذا افعل بعد ذلك ؟ »

وفى ذات صباح صافى الزرقة ، كانت روحها المعنوية مرتفعة ، فتزينت حتى اصبحت فاتنة ، وقصدت الى شركة أفلام ذات شهرة تبشر بالخير .

ونجحت فى تحديد موعد لمقابلة المدير فى مكتبه .. واذا هو رجل عجوز ذو عصابة سوداء على عينه اليمنى ، وبريق نافذ ينبعث من عينه اليسرى . وراحت مارجوت تؤكد له أنها مثلت قبل ذلك ، ونجحت نجاحا باهرا . فسألها فى حنان ، وهو يحدق فى وجهها الذى بدا عليه الانفعال قائلا : « فى أى فيلم ؟ »

وفى هدوء ذكرت له فيلما ، فسكت الرجل ، ثم أغمض عينه اليسرى .. وكان من الممكن أن يكون هذا غمزا ، لو أن عينه الاخرى كانت مفتوحة . وقال لها : **« من حظك أنك أتيت الى .. فلو كان آخر فى مكانى ، لاغراه شبابك بأن يغدق عليك الوعود الخلابة .. ثم تذهبين فى الطريق الذى يذهب فيه الجميع !..** اننى لم أعد ـ كما قد تلاحظين ـ فى ميعة الصبا ، والذى لم اره من الحياة ، هو الذى لا يستحق أن

أراه ، ولى ابنة أكبر منك سنا ، فيما أظن .. لذلك أود أن أقول لك شيئا ياطفلتى العزيزة : انك لم تكونى أبدا ممثلة، وفى كل الاحتمالات لن تكونى أبداً .. فعودى الى بيتك ، وفكرى فى الامر ، وتحدثى فيه الى والديك ، ان كان ذلك ممكنا .. وهو امر أشك فيه ! »

وعندئذ ضربت مارجوت طرف المقعد بقفازها وانتصبت، واقفة ، وتسللت الى الخارج ، وقد تقلص وجهها من الغضب .

***

وكان ثمة مكتب لشركة أخرى فى المبنى ذاته ، الا أنهم لم يسمحوا لها حتى بالدخول.. فانطلقت عائدة ، وقد امتلأت سخطا . وسلقت لها صاحبة المنزل بيضتين ، وراحت تربت على كتفها وهى تأكل بنهم وغضب . ثم أتت المرأة الطيبة بزجاجة من النبيذ وكأسين صغيرتين ، ملأتهما بيد مرتعشة ، ثم أقفلت الزجاجة فى عناية ، وأعادتها الى مكانها . وقالت وهى تجلس ثانية الى المنضدة العرجاء : « انك حسنة الحظ ، وكل شىء سيغدو على ما يرام يا حبيبتى .. فغدا سأقابل ابن عمى ونتحدث معا عنك » .

وقد نجح الحديث مع ابن العم الذى كان يملك دارا للسينما .. وفرحت مارجوت فى أول الامر بوظيفتها الجديدة ، وان كانت بالطبع ، بداية متواضعة لاشتغالها بالسينما .. **وبعد ثلاثة أيام ، أصبحت تشعر كأنما هى لم تمارس عملا فى حياتها سوى أن ترشد الناس الى مقاعدهم !**

وحدث أن تغير البرنامج فى يوم الجمعة ، فسرت بذلك ، ووقفت متكئة على الحائط فى الظلام ، تشاهد « جريتا جاربو » . ولكنها ما لبثت أن سئمت المشاهدة .

ومر أسبوع آخر ، ثم حدث أن نظر اليها رجل ــ وهو

يخرج متباطئا ـ وقد ارتسم على وجهه الخجل والارتباك .. وبعد ليلتين أو ثلاث ليال ، عاد مرة أخرى . وكان أنيق الهندام ، يرنو اليها بعينيه الزرقاوين فى ظمأ وجوع .

وقالت مارجوت فى نفسها : « انه لشخص ظريف ، وان كان قد تجاوز سن الشباب ! » .. **فلما عاد للمرة الرابعة أو الخامسة ـ ولم يكن ذلك من أجل الفيلم قطعا ، لانه كان قد رآه عدة مرات ـ شعرت برجفة خفيفة من السعادة !**

ولكنه كان خجولا ، غاية الخجل .. وفى ذات ليلة ، لمحته ـ وهى عائدة الى البيت ـ على الجانب الآخر من الطريق ، فسارت ببطء دون أن تتلفت حواليها ، وان ظلت تراقبه من ركنى عينيها ، متوقعة أن يتبعها . ولكنه لم يفعل ، بل اختفى ..

وعندما جاء مرة أخرى الى دار سينما (ارجوس) ، كان شاحبا ومبتئسا بشكل غريب .. حتى اذا انتهت مارجوت من عملها ، تسللت الى الشارع ، ثم توقفت وفتحت مظلتها . وكان هو هنالك .. يقف مرة أخرى على الطوار المقابل ، فعبرت الطريق فى هدوء متجهة نحوه . ولكنه حين رآها تقترب منه ، تحرك على الفور مبتعدا !

وفى هذه اللحظة ، شعر بأنه أحمق ضعيف . **فقد كان يعلم أنها خلفه ، ومن ثم كان يخاف أن يوسع الخطى فيفقدها ، وكان ـ فى الوقت ذاته ـ يخاف أن يتباطأ فتلحق به !** .. حتى اذا بلغ تقاطع الطرق التالى ، اضطر الى أن ينتظر ، والعربات تنطلق أمامه واحدة بعد أخرى . وعندئذ لحقت به .. وفى ذات اللحظة ، مرقت أمامها عربة كبيرة ، فقفزت الى الخلف ، واصطدمت به ، فأمسكها من مرفقها النحيل . وراحا يعبران الطريق معا .

وقال « البينوس » فى نفسه : « الآن بدأ الامر ! » ..

وراح يجتهد – فى ارتباك – أن يوفق بين خطوته وخطوتها ، فما سبق له قط أن سار مع امرأة صغيرة السن بهذا الشكل . وما لبثت أن قالت له باسمة : « لقد بللك المطر » . فأخذ المظلة من يدها ونشرها فوق رأسيهما . وعندئذ التصقت به أكثر من ذى قبل ، فخاف فى تلك اللحظة أن ينفجر قلبه . **ولكنه ما لبث أن شعر فجأة بتراخ لذيذ ، وكأنما وضع يده على وتر سعادته .. تلك السعادة الناعمة التى تضرب على الوتر المشدود فى قمة الرأس !** .. وما فتئت كلماته أن انسابت فى سهولة ، وقد أسعدته هذه السهولة الجديده عليه .

وانقطع المطر ، ولكنهما ظلا يسيران تحت المظلة ، حتى اذا توقفا أمام باب بيتها ، أغلق المظلة الجميلة المبتلة وأعادها اليها ، قائلا فى توسل : « لا تذهبى الآن ! » . ووضع يده فى جيبه ، وحاول أن يخلع خاتم زواجه بابهامه ، وهو يكرر توسله قائلا : « لا تذهبى ! »

واستطاع ان يخلع الخاتم اخيرا .. فى اللحظة التى أجابت فيها قائلة : « لقد تأخرت .. وستغضب خالتى » . فأمسك برسغيها ، وحاول – فى خجل شديد – أن يقبلها ، ولكنها أحنت رأسها ، فلاقت شفتاه قبعتها المخملية . وقالت بصوت خافت : **« دعنى أذهب .. أنت تعلم أنه لا ينبغى أن تفعل ذلك ! »**

وصاح قائلا : « لا تذهبى .. فلا أحد لى فى الدنيا سواك » . فقالت : « لا أستطيع .. لا استطيع » ، وادارت المفتاح فى القفل ، واندفعت بكتفها الرقيق عبر الباب الكبير . فقال لها : « سأنتظرك مرة أخرى غدا » .

وابتسمت له خلال الزجاج ، ثم جرت فى الممر المعتم نحو الفناء الخلفى ، فندت عنه آهة عميقة ، وأخرج منديله ،

وجفف انفه ، وأحكم ازرار معطفه بعناية ، ثم عاد ففكها مرة أخرى . وشعر بيده خفيفة عارية ، فأسرع ودس اصبعه فى الخاتم الذى كان لا يزال دافئا !

الفصل الرابع

وفى بيته ، لم يكن ثمة شيء قد تغير .. وبدا له ذلك غريبا .. كانت اليزابيث وأيرما وبول يبدون كأنهم يمتون لعصر آخر .. هادئين ، فى سكون الصور الايطالية الاولى . وكان بول قد قضى يومه فى عمل مستمر بمكتبه ، فأراد أن يقضى أمسية هادئة فى بيت أخته . وكان يكن احتراما عميقا لألبينوس ، لثقافته ودماثته ، وللأشياء الجميلة التى تحيط به ، واللوحة ذات الخضرة الزاهية — فى غرفة الطعام — التى كانت تمثل الصيد فى غابة .

كان البينوس — حين فتح باب مسكنه — قد شعر بتقلص فى أمعائه ، اذ تذكر أنه لن يلبث أن يرى زوجته بعد لحظة ، فهل تراها قادرة على أن تقرأ فى وجهه خيانته ؟ .. ألم يكن ذلك السير تحت المطر خيانة ؟.. وقد حدث كل هذا بعد أن كان مجرد أفكار وأحلام ، من قبل .. ومن يدريه ان سوء حظه الشنيع لم يسق له من يكون قد رآه وابلغ زوجته ؟ .. أو لعلها تشم العطر الرخيص اللذيذ الذى كانت تستعمله فتاته !

وراح — وهو يعلف الى الردهة — ينسج سريعا فى ذهنه قصة تسعفه عند اللزوم .. قصة عن فنانة صغيرة ، فقيرة ونابغة ، كان يحاول أن يساعدها ..

ولكنه لم يجد شيئا قد تغير .. لا الباب الابيض الذى كانت تنام خلفه ابنته عند نهاية الدهليز .. ولا معطف

شقيق زوجته الواسع ، الذى كان معلقا فى مشجبه ـ وهو مشجب خاص مكسو بالحرير الاحمر ـ فى دعة ووقار كالمعتاد .

ودخل غرفة الجلوس .. فاذا اليزابيث فى ردائها العادى ذى المربعات ، وبول يدخن سيجارته ، وسيدة عجوز من معارفهم ، كانت أرملة بارون وافتقرت بسبب التضخم المالى ، فأصبحت تعيش من دخل تجارة بسيطة فى الابسطة واللوحات الزيتية .. وكانوا يتحدثون أحاديث كل يوم الرتيبة ، فارتاح لذلك ، وشعر باختلاجة سعادة ، اذ لم يكتشف أحد أمره .

وعندما رقد ـ بعد ذلك ـ بجانب زوجته،فى غرفة نومهما ذات الضوء الخفيف والاثاث الفاخر ، وقد انعكس على صفحة المرآة ـ كالمعتاد ـ جزء من جهاز التدفئة المطلى باللون الابيض ، راح يعجب من طبيعته المزدوجة : فان حبه لاليزابيث ما زال متينا لم ينقص شيئا ، ومع ذلك فقد راحت تومض فى عقله فكرة أنه ربما فى الغد .. نعم فى الغد التأكيد !

***

ولكن الامر لم يكن بهذه السهولة ، فان « مارجوت » ـ فى مقابلتهما التالية ـ اجتهدت فى أن تتجنب مغازلاته بمهارة ، ولم تتح له آية فرصة لكى يصطحبها الى أحد الفنادق .. بل انها لم تقل له شيئا كثيرا عن نفسها ، اللهم الا أنها يتيمة ، وأن أباها كان رساما ـ فيا لها من مصادفة عجيبة ! ـ وأنها كانت تعيش مع خالتها ، وتعانى ضيقا شديدا ، وتتوق لأن تترك وظيفتها المرهقة !

وقدم ألبينوس نفسه اليها باسم لفقه سريعا ، هو « شيفر ميللر » .. **وعندئذ قالت « مارجوت » فى نفسها بمرارة :**

« ميللر آخر ايضا .. » ، ثم قالت له : « آه ! .. انك تكذب طبعا » .

وكان شهر مارس مطيرا ، وتلك الجولات الليلية تضنى « ألبينوس » ، ومن ثم فانه لم يلبث أن اقترح عليها أن يذهبا الى مقهى .. واختار مكانا صغيرا مظلما ، اطمأن الى أنه لن يصادف فيه أحدا من معارفه .

وكانت عادته ـ حين يجلس الى مائدة ـ أن يضع عليها فى الحال علبة سجائره وقداحته ، فمكن هذا « مارجوت » من أن تلمح الحرفين الاولين من اسمه منقوشين عليها ، وكانا يختلفان عن حرفى الاسم الذى زعمه لها .. ولم تقل شيئا ، ولكنها بعد تفكير قليل طلبت منه أن يأتى لها بدفتر التليفون .. وبينما كان يتجه الى حجرة التليفون ، بمشيته البطيئة المتراخية ، **تناولت قبعته من على المقعد ، وراحت تفحصها فى خفة ، فوجدت بداخلها اسمه مكتوبا !**

وما لبث «البينوس» ان عاد بدليل التليفون ، يحمله كأنه الانجيل ، وهو يبتسم فى رقة . وبينما كان يطيل التحديق فى أهدابها الوطفاء الواهنة ، راحت تمر بسرعة على حرف الراء ، حتى عثرت أخيرا على عنوان « البينوس » ورقم تليفونه . ثم أغلقت المجلد الازرق فى هدوء .

وقال لها ألبينوس مغمغما : «اخلعى معطفك!» ، فراحت ـ دون أن تكلف نفسها عناء الوقوف ـ تسحب ذراعيها من الكمين ، وهى تحنى عنقها الجميل ، حتى تخلصت من الكم الايمن ثم من الكم الايسر . واذ كان « البينوس » يعاونها ، عبقت أنفاسه بنفحة من عطر البنفسج المتضوع منها .. وتأمل أثناء جيدها ، وتموج بشرتها . ثم استوت معتدلة ، وخلعت قبعتها ، وراحت ـ وهى تتطلع فى مرآتها الصغيرة ـ

تبلل سبابتها وتربت بها على خصلات الشعر الفاحمة المتدلية على وجنتيها .

وجلس « البينوس » بجانبها ، ينظر ثم ينظر الى ذلك المحيا الذى كان كل شيء فيه رائعا فتانا : خدان أحمران بلون الورد ، وشفتان كأنهما مفعمتان بخمر فى حمرة الكريز ، وعينان دعجاوان تحكيان البندق، وشامة صغيرة زغباء قابعة عند استدارة خدها الايسر ذى البشرة الحريرية الناصعة .. واذ تملكه الهيام ، قال فى نفسه : « سأظل أنظر اليها هكذا .. ولو شنقونى ! »

.. حتى لهجة برلين العامية التى كانت تتكلم بها ، لم تزد صوتها الابح الا فتنة .. وكانت اذا تكلمت كشفت عن أسنانها الكبيرة البيضاء ، واذا ضحكت اغمضت عينيها نصف اغماضة ، فترقص غمازتان على خديها !

ومد يده متلصصا الى يدها الصغيرة ، ولكنها سحبتها على الفور ، فقال لها : « انك ستودين بى الى الجنون ! » . فربتت ذراعه قائلة : « رويدك ، كن ولدا طيبا ! »

***

بيد أنه لم يكد يستيقظ فى الصباح التالى ، حتى قال فى نفسه : « لا يمكن أن تستمر الحال هكذا .. أبدا .. يجب أن أعثر لها على غرفة .. ولكن لعنة الله على هذه الخالة ـ خالتها ـ فليس أبدع من أن نكون وحدنا .. وحدنا تماما! .. اذ ذاك أعلمها الحب كما يتعلم المبتدئون اى شيء .. فيالها من طفلة صغيرة جدا .. وبريئة جدا .. وتسبب الجنون .. جدا ! »

وفى هذه اللحظة ، سمع صوت اليزابيث تقول له فى رقة : « أأنت نائم ؟ » .. فتثاءب وفتح عينيه ، واذا اليزابيث

جالسة على حافة السرير الكبير ، فى قميص نومها الازرق الفاتح وقد أخذت تتصفح الخطابات .. وسألها وهو ينظر الى ذراعها الناصعة البياض : « هل من شىء هام ؟ » . فأجابته قائلة : « هذا خطاب من « آش » يطلب فيه نقودا مرة أخرى ، ويقول أن زوجته وحماته كانتا مريضتين ، وأن الناس يتآمرون عليه .. كما يقول أنه عاجز عن شراء الالوان.. اعتقد أن علينا أن نساعده مرة أخرى ! »

فقال البينوس : « نعم .. طبعا ! » .. وارتسمت فى ذهنه – فى هذه اللحظة – صورة زاهية الالوان لوالد مارجوت المتوفى .. **فقد كان مثله – بلا شك – مريضا ، وعصبيا ، وفنانا غير موهوب ، تمضى حياته عسيرة خشنة !**

وواصلت اليزابيث كلامها قائلة : « وهذه دعوة من نادى الفنانين .. أعتقد ان علينا أن نذهب هذه المرة .. وهذا خطاب من الولايات المتحدة .. » . فقال لها : « اقرأيه بصوت مرتفع ! » . فشرعت تقرأ : « سيدى العزيز – ليس عندى انباء كثيرة انقلها اليك .. الا انه لا تزال ثمة أشياء أود ان أضيفها الى خطابى الطويل السابق ، الذى أود ان أقول – بين قوسين – أنك لم تجب عليه بعد .. كما قد يأتى فى .. »

وفى هذه اللحظة دوى رنين التليفون على المنضدة القائمة بجوار السرير ، فمدت اليزابيث يدها اليه وقد مالت الى الامام. وراح البينوس – وهو شارد الذهن – يتابع حركات أصابعها الرقيقة ، وهى تتناول المسماع وتقربه من اذنها .. وسمع شقشقة صوت من الطرف الآخر ، فقالت اليزابيث : « اوه ، صباح الخير » .. **واختلجت ملامحها – فى ذات الوقت – باشارة معينة لزوجها ، توحى اليه بأن البارونة هى التى كانت تتكلم .. وتتكلم كثيرا !**

وعندئذ ، مد يده الى الخطاب الامريكى ، ونظر الى تاريخه، وهو يعجب من نفسه إذ لم يرد بعد على الخطاب الماضى .. وأقبلت « ابرما » لتحيى والديها كعادتها كل صباح ، وفى هدوء قبلت أباها ثم أمها ، التى كانت تنصت الى حديث التليفون بعينين مغمضتين ، وهى تغمغم من حين لآخر بتأكيد فيه رياء ، أو دهشة مصطنعة .

وقال البينوس لابنته هامسا : « أرى انك اليوم فتاة صغيرة حسناء جداً ! » .. فابتسمت ابرما كاشفة عن اسنان كأنها عقد من اللؤلؤ . بيد أنها لم تكن جميلة على الاطلاق ، بل كان النمش يكسو جبهتها الشاحبة ، وكانت أهدابها بيضاء ، وأنفها طويلا جدا بالنسبة لوجهها .

وقالت اليزابيث : « بكل تأكيد ! » للمرة الاخيرة ، ثم وضعت المسماع وهى تتنهد فى ارتياح .. وبينما مضى ألبينوس فى قراءة الخطاب ، أمسكت اليزابيث ابنتها من رسغيها ، وراحت تقول لها كلاما مرحا ، وهى تضحك وتقبلها وتجذبها جذبا خفيفا عقب كل عبارة ، والطفلة تبتسم فى رصانة ..

وفجأة ، رن جرس التليفون ثانية . وفى هذه المرة ، تناول « البينوس » المسماع ورفعه الى أذنه ، **فاذا بصوت نسائى يقول له : « صباح الخير يا عزيزى البينوس ! » .. وتساءل : « من الذى يتكلم ؟ » .. وفجأة انتابه احساس رهيب ، وكأنما كان يهبط به مصعد سريع !**

واستمر الصوت قائلا : « لم يكن ظريفا منك أن تعطينى اسما زائفا ، ولكنى اسامحك .. انما اردت ان اقول لك .. » . فقال بصوت أجش : « أخطأت الرقم ! » . وألقى بالمسماع فى مكانه ، وقد تولاه الخوف من أن تكون اليزابيث قد

سمعت شيئا ، كما سمع هو - من قبل - صوت البارونة الخافت .

وسألته اليزابيث : « ماذا جرى ؟ .. لماذا تضرج وجهك هكذا ؟ » . فقال مغمغما : « يا له من عبث ! .. ايرما يا صغيرتى ، امشي مشية لائقة ولا تتمايلى هكذا .. هذه عاشر مرة يدعوننى فيها التليفون خطأ ، فى بحر يومين .. لقد كتب أنه ربما يحضر الى هنا فى نهاية العام .. سيسرنى أن أراه ! »

فقالت زوجته متسائلة : « من الذى كتب ؟ » . فأجاب « يا الهى .. انك لا تعين أبداً ما أقوله لك .. انه ذلك الرجل الامريكى .. ذلك الذى يدعى ريكس » .. فسألته فى غير انتباه : « أى ريكس ؟ »

الفصل الخامس

كان لقاؤهما فى ذلك المساء لقاء عاصفا . وكان « البينوس » قد بقى بالبيت طول النهار وهو فى رعب دائم من أن تتصل به تليفونيا مرة أخرى . فما ان رآها خارجة من دار السينما حتى حياها غاضبا ، وهو يقول : « اسمعى أيتها الطفلة .. اننى أمنعك من أن تكلميننى تليفونيا ، اذ ان هذا لا يليق .. واذا كنت لم أذكر لك اسمي ، فلأن عندى أسباب ذلك ! »

فقالت مارجوت فى برود : « أوه ، حسنا .. لا شأن لى بك » . ومشت بعيدا ، فوقف فى مكانه ينظر اليها قانطا .. فيا له من حمار ! أما كان خليقا به أن يمسك لسانه ؟ .. انها كانت مسوقة الى أن تعرف فى النهاية انها أخطأت !

وما لبث أن لحق بها ومشى بجانبها ، قائلا لها : « سامحينى يا مارجوت ولا تغضبى منى .. اننى لا أستطيع أن أعيش

بدونك .. وقد فكرت فى الامر جميعه ، **فاتركى وظيفتك – فاننى غنى – وسيكون لك غرفتك الخاصة ، أو بيتك الخاص ، أو أى شىء تحبينه ! »**.. فقالت مارجوت : « أنت كذاب ، جبان ، أحمق ! .. فأنت متزوج ، ولهذا تخفى ذلك الخاتم فى جيب معطفك .. أوه ! .. انك متزوج فعلا ، والا لما كنت فظا فى حديثك التليفونى معى » .

وقال متسائلا : « واذا كنت متزوجا .. فهلا تقابلينني مرة أخرى ؟ » . فقالت : « وماذا يهمنى ؟ أخدعها .. فهذا خير لها ! » .. فزمجر قائلا : « مارجوت .. اسكتى ! » . فقالت : **« اذن ، دعنى وشانى ! »**.ولكنه صاح : «مارجوت» انصتى لى .. ان لى حقا اسرة ، ولكنى أرجوك أن تكفى عن سخريتك بى .. » .

وحاول أن يمسكها ، فأفلتت منه . وتشبث بحقيبتها الصغيرة الرثة قائلا : « أوه .. لا تذهبى ! » .. فصاحت فيه : « اذهب الى الجحيم ! »

وكانا قد بلغا مسكنها ، فصفقت الباب فى وجهه .

الفصل السادس

قالت مارجوت لصاحبة المنزل الذى تقيم فيه : « أريد ان تقرأى لى طالعى» . فأخرجت المرأة – من خلف زجاجات البيرة الفارغة – رزمة مهلهلة من اوراق اللعب ، فقدت معظمها أركانها ، فبدت كلها كأنها مستديرة .. وراحت تقرأ ما فيها : **فثمة رجل غنى أسود الشعر .. ومتاعب .. ووليمة .. ورحلة طويلة .. !**

وبينذاك ، راحت مارجوت تقول لنفسها ، وقد أسندت

مرفقيهـا الى المـائدة : « يجب أن أعرف كيف يعيش ؟ .. فلعله ـ بعد كل شيء ـ ليس غنيا حقا ، ولا يستحق أن أحفل به لحظة .. أم ينبغي أن أجازف ؟ »

وفي الصباح التالي ، طلبته تليفونيا مرة أخرى ، في ذات الموعد السابق بالضبط . وكانت « اليزابيث » في الحمام ، وراح « البينوس » يتكلم هامسا وعينه على الباب ، وهو يكاد يجن فرحا ـ برغم الخوف الذي تملكه ـ لانها صفحت عنه .. وراح يهمهم قائلا : « يا حبيبتي .. يا حبيبتي ! »

وسألته وهي تضحك : « قل لي ، في أي وقت ستكون زوجتك خارج البيت ؟ » . فأجابها وقد سرت في بدنه رعدة باردة : « لا أدري .. لماذا ؟ » . فقالت : **« أريد أن أزورك في البيت لحظة ! »**

وسكت اذ سمع بابا يفتح في مكان ما ، ثم غمغم قائلا : « لن يمكنني الاستمرار في الكلام » . فقالت : « اذا جئتك فسأمنحك قبلة ! » . ولكنه قال متلعثما : « لا أعرف الآن .. كلا ، لا أعتقد ذلك ممكنـا .. اذا وضعت المسماع فجأة ، فلا تدهشي .. سأراك الليلة ، وسوف .. » . وهنا وضع المسماع ، وجلس برهة دون حراك ، ينصت الى دقات قلبه ، وهو يقول في نفسه : « يا لي من جبان ! .. من المؤكد أن اليزابيث ستمكث في الحمام نصف ساعة أخرى ! »

***

وقال لمارجوت حين التقيا بعد ذلك : « أرجو أن تجيبيني الى طلب صغير .. هيا نستأجر عربة ! » . فقالت : « عربة مفتوحة ! » . ولكنه أجاب : « كلا ، فهذا خطر جدا .. بيد أنني أعدك أن أكون عاقلا » .

وراح يتطلع في هيام الى محياها الناضح بالطفولة ، وقد

بدا ناصع البياض فى وهج مصباح الشارع . حتى اذا جلسا فى العربة ، بدأ يقول لها : « اسمعى !.. أننى – أولا – لست غاضبا منك لانك اتصلت بى تليفونيا .. ولكنى أرجوك – بل أتوسل اليك – ألا تفعلى ذلك مرة أخرى يا حبيبتى .. يا معبودتى الغالية ! » . فقالت مارجوت فى نفسها : « هذا أفضل » ، بينما واصل هو حديثه قائلا : **« وثانيا ، قولى لى ، كيف عرفت اسمى ؟ »**

فكذبت ، بلا داع ، قائلة له أن امرأة تعرفها رأتهما فى الشارع معا ، وأن هذه المرأة تعرفه هو كذلك .

فسألها « البينوس » فى جزع قائلا : « من هى ؟ »

فأجابته قائلة : « أوه ، انها ليست سوى احدى العاملات ، وأعتقد أن أختنا لها كانت تشتغل – فى يوم ما – خادمة أو طباخة لدى اسرتك ! » . واذ راح « البينوس » يشحذ ذاكرته فى يأس ، قالت له : « لقد قلت لها – على أية حال – انها مخطئة .. فأنا صبية لطيفة ! »

وكانت الظلمة داخل العربة تلف وتلتف فى دوائر وانصاف وأرباع دوائر من ظلال سنجابية راحت تتراقص من نافذة الى نافذة . وكانت « مارجوت » تجلس قريبة منه جدا ، **حتى لقد كان يحس بالحرارة الحيوانية الشهية المنبعثة من جسدها ، فقال فى نفسه : « لسوف أموت أو أفقد عقلى ، اذا لم أنلها ! »**.. ثم قال لها بصوت مرتفع ، مواصلا كلامه : « وثالثا ، ابحثى لنفسك عن مسكن – من حجرتين مثلا أو ثلاث حجرات ومطبخ – على شريطة أن تدعينى أزورك من حين لآخر ! »

ولكنها ما لبثت أن قالت : « ألبير .. أنسيت ما عرضته عليك هذا الصباح ؟ » .. ودمدم قائلا : « ولكنها مخاطرة .. فأنت ترين مثلا أننى سأكون وحدى غدا من نحو الساعة

الرابعة الى السادسة .. ولكن من يدرى ما عساه أن يحدث ؟ » .. وتصور كيف يحتمل أن تعود زوجته فجأة من أجل شيء نسيته ..

وقالت فى نعومة : « ولكننى وعدتك بأن أمنحك قبلة .. وأنت تعرف أنه مامن شيء فى الدنيا يتعذر تفسيره بطريقة ما .. »

***

وهكذا ، أرسل « فريدا » ـ الخادم ـ بكتابين أمرها أن تسلمهما الى صديقين على بعد بضعة أميال ، عندما خرجت « اليزابيث » مصطحبة « ايرما » الى حفلة شاى ، فى اليوم التالى ..

ومكث وحيدا .. وكانت ساعته قد توقفت قبل دقائق بيد أن المنبه ـ فى غرفة النوم ـ كان مضبوطا .. ثم أنه اطل من النافذة ، لاستطاع أن يرى ساعة الكنيسة وقد أشارت الى الرابعة الا ربعا .. وكان اليوم من أيام أبريل الوسطى ، مشرقا ، شديد الرياح .. وقد لاح على الحائط المشمس للمنزل المقابل ، شبح دخان ينطلق مسرعا من ظل مدخنة .. وقد جفت رقع من أرض الشارع ، كان المطر قد بللها منذ قليل ، وبدا ماتبقى من البلل كأنه اشكال غريبة سوداء مرسومة فى عرض الطريق .

وبلغت الساعة الرابعة والنصف ، ولما تأت الفتاة .. وكان كلما فكر فى محياها الصبيانى الرقيق ، وبشرتها الحريرية الناعمة ، وملمس يديها الصغيرتين العاطلتين من الزينة ، أحس بلذعة الرغبة العارمة تؤلمه .. وبات تصور القبلة الموعودة يملأه هياما لا تفتأ وطأته تشتد عليه حتى لم يعد يحتمل المزيد .. وفى زاوية أخرى من مخيلته كانت صورة جسدها المرمرى تتمثل له .. تلك الصورة التى سبق

لطلبة الفن أن سجلوها فى رسومهم .. ولقد تصادف ان رأى هو أحد تلك الرسوم : اذ حدث مرة أن جاءه « لامبرت » — طبيب العائلة الشيخ — بمجموعة من الصور المرسومة بالفحم ، كان ابنه قد رسمها قبل عامين .. وكانت بينها صورة فتاة ذات شعر معقوص ، واحدى قدميها مثنية تحتها فوق البساط الذى جلست عليه ، وقد مالت على ذراعها الرقيق ، وكتفها يلامس خدها .. **ولم تكن هذه الفتاة سوى « مارجوت » !**

وبلغت الساعة الخامسة الا عشر دقائق ، وقد تأخرت مارجوت عشرين دقيقة ، فتمتم قائلا : « سأنتظر حتى الخامسة .. ثم أخرج بعد ذلك » .

وفجأة ، رآها .. وكانت تعبر الطريق ، دون معطف ولا قبعة ، وكأنها تسكن عند ركن الشارع . فقال فى نفسه : « ما زال ثمة وقت لأنزل اليها وأقول لها أن الوقت قد تأخر جدا ! » . ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك ، هرع لاهثا الى البهو ، وتربص حتى اذا سمع وقع خطواتها الصبيانية على السلم ، فتح الباب فى حذر ، فاذا هى فى ثوبها القصير الاحمر ، وذراعيها العاريتين ، تبتسم فى مرآة صغيرة — فى يدها — ثم تستدير على عقبها ، وهى تسوى مؤخرة شعرها ..

وما ان خطت الى الداخل ، حتى شهقت صائحة : « انك لفى عيشة فاخرة ! » . ثم راحت تدور بعينيها المتألقتين فى البهو ذى اللوحات الكبيرة الفخمة ، والزهرية الخزفية الرائعة فى الركن ، وذلك الطلاء الفاخر بدلا من ورق الحائط . وقالت متسائلة : « أأدخل هنا ؟ » .. وفتحت بابا ، ثم فغرت فاها قائلة : « أوه ! » .. فمد يدا مرتعشة حول خصرها ، وراح يتطلع معها الى الثريا البلورية المدلاة ، وكأنه

يراها — هو الآخر — لأول مرة .. ولكنها بدت له ملفوفة بالضباب !

ووقفت الفتاة وقد ثنت قدميها أحداهما فوق الاخرى ، وجسمها يهتز اهتزازاً خفيفاً،وعيناها تجولان فيما حولها. ثم دخلت معه الغرفة التالية ، فما ان وقع بصرها عليها حتى هتفت — مرة أخرى — قائلة : « انك غنى ! » .. ثم أردفت : « يا للسماء .. يا لها من سجاجيد ! » .. وبهرها «البوفيه» — الذى كان فى غرفة الطعام — الى درجة اتاحت لألبينوس أن يتلصص بيده فى جسدها اللدن الحار . وقالت هى فى تلهف : « لنمض فى جولتنا ! »

وفى مرآة مرا بها ، أبصر « ألبينوس » رجلا وقورا شاحبا يسير بجانب تلميذة من تلميذات المدارس فى ثوب يوم الاحد ! .. وفى حذر مر بيده على ذراعها الناعم الملمس ، فغامت المرآة أمام عينيه . وقالت مارجوت : « هيا بنا ! » . وأراد ان يعود بها الى غرفة المكتب، حتى اذا قدر لزوجته أن تعود قبل موعدها ، استطاع ان يزعم ان زائرته فنانة صغيرة تريد منه المساعدة . ولكن مارجوت سألته وهى تتوقف عند آخر غرفة بلغاها : « وما هذه ؟ » . فأجابها : «تلك هى غرفة الأطفال .. لقد رأيت الآن كل شيء » . فقالت ، وهى تحرك ذراعيها : « دعنى أشاهدها ! » .. فأرسل زفرة عميقة ، وقال : « انها غرفة الأطفال يا حبيبتى .. ليست سوى غرفة للأطفال ، وليس فيها ما يستحق المشاهدة ! »

ولكنها — مع ذلك — دخلت.. وشعر فجأةبدافع قوى لأن يصيح فيها : « أرجو الا تمسى أى شيء ! » . ولكنها أمسكت دمية تمثل فيلا ارجوانيا ذا خرطوم طويل . فخطفه منها والقى به فى أحد الأركان ، فضحكت مارجوت قائلة : « ان

ابنتك الصغيرة تحيط بها السعادة هنا ! ». ثم فتحت الباب التالى ، فصاح فيها متوسلا : « **كفاك يا مارجوت .. لقد ابتعدنا كثيرا عن اللهو ، ولن نسمع صوت الباب الخارجى .. انه لخطر مخيف !** » .. ولكنها دفعته فى نزق الطفل المدلل ، وانسلت عبر الردهة الى غرفة النوم .. وهناك ، جلست أمام المرآة ، وراحت تدير فرشاة فضية الظهر فى يدها ، وتتشمم عبير زجاجة عطر ذات سدادة فضية .. فصاح البينوس قائلا : « أوه .. دعى هذه ! »

واندفع اليها ، فراوغته فى مهارة ، واندفعت نحو الفراش المزدوج ، وجلست على حافته وراحت تخلع جواربها كما يفعل الاطفال ، وهى تحدث جلبة كبيرة ، ثم أخرجت له لسانها . **وعندئذ فقد البينوس عقله فجأة وقال فى نفسه : « سأنالها ثم أقتل نفسى ! »** .. ومشى نحوها مترنحا وقد فتح ذراعيه ، ولكنها قفزت نحو الباب وقد ندت عنها صيحة مرح ، فاندفع خلفها .. ولكنه كان متأخرا ، اذ صفقت الباب فى وجهه وهى تضحك وتلهث ، وأدارت المفتاح من الخارج . فقال البينوس متوسلا : « افتحى يا مارجوت ! » ولكنه سمع وقع خطواتها تبتعد راقصة ، فردد فى صوت مرتفع : « افتحى يا ما رجوت ! » ، غير انها لم تجبه ، فغمغم قائلا : « يالك من لبؤة صغيرة ! » . ثم قال فى نفسه : « ياله من موقف سخيف ! »

***

واستولى عليه الانزعاج ، كما أحس بتعب محموم ، فهو لم يألف من قبل أن يقفز هكذا بين الغرف ، كما اضنته الرغبة التى حبطت فجأة .. ولكن ، اتراها ذهبت حقا ؟ .. كلا ، فهناك شخص يسير فى الداخل .. وجرب بعض المفاتيح التى كانت فى جيبه ، ولكنه لم يفلح فى فتح الباب ، فانهارت

أعصابه وراح يهزه هزا عنيفا ، وهو يصيح : « افتحى حالا ! .. أتسمعيننى ؟ » . واقتربت الخطوات .. ولكنها لم تكن خطوات مارجوت ! .. وسمع صوتا لم يكن يتوقعه فى تلك اللحظة .. صوت بول ، يقول : « ما هى الحكاية ؟ .. هل الغرفة مغلقة عليك ؟ .. أفتحها لك ؟ »

وفتح الباب ، وبدا خلفه بول منزعجا ، وهو يردد قائلا : « ماذا حدث ؟ » ، ثم فغر فاه ، اذ رأى الفرشاة ملقاة على الارض . فقال البينوس : « أوه .. انه لشىء مضحك ، سأرويه لك بعد قليل ! .. لنشرب كأسا من أى شىء ! »

وقال بول : « لقد سببت لى انزعاجا لعينا ، فلم أستطع أن أحدس ماذا حدث .. ومن حسن الحظ أننى أتيت ، فقد قالت لى اليزابيث انها ستعود فى نحو السادسة .. من حسن الحظ أننى أتيت مبكرا .. ولكن من الذى أغلق عليك الباب ؟ .. أرجو الا تكون خادمك قد أصيبت بمس من الجنون ؟ » .. وكان البينوس قد جلس موليا اياه ظهره ، متشاغلا بالبراندى .. وما لبث أن قال ، وهو يجد عناء فى اخراج الكلمات : « الم تقابل أحدا على السلم ؟ » .. فقال بول : « لقد استقللت المصعد » .

وقال « البينوس » فى نفسه ، وقد انتعش بشكل ظاهر : « اذن فقد نجوت ! » .. ثم فطن الى مدى غبائه الخطر ، اذ نسى أن بول كان يحمل مفتاحا لباب المسكن .. وبصوت مرتفع ، قال وهو يرشف كأس البراندى : « هل تصدق ؟ .. لقد دخل لص المنزل ، ولكن ، لا تقل لاليزابيث طبعا ! .. أعتقد أنه كان يظن أن المنزل خال .. وفجأة ، سمعت صوتا غريبا يصدر عن الباب الخارجى ، فخرجت من غرفة مكتبى لارى ما هنالك .. وفى البهو رأيت رجلا يتسلل الى غرفة النوم ، فتبعته .. وحاولت أن أمسك به ، ولكنه

استدار وأغلق الباب ، فحبسنى فى الداخل وهرب مع الأسف .. ظننتك قابلته ! » .. فقال بول مشدوها : « انك تمزح ! »

– كلا . لقد كنت فى مكتبى ، وسمعت صرير الباب الخارجى .. فذهبت لارى ما هنالك و ..

– ولكنه قد يكون سرق شيئا .. هيا نتبين بأنفسنا ! .. يجب أن نخطر الشرطة .

– أوه ، لم يكن لديه وقت ليسرق ، فقد حدث كل شىء فى ثانية .. وقد أفزعته فهرب .

– كيف كان شكله ؟

– رجل ضخم الجسم ، تبدو عليه القوة الهائلة ..

– كان من الممكن أن يوقع بك ضررا .. يا له من حادث محزن ! .. هيا ، ينبغى أن نلقى نظرة على البيت !

وراحا يمران بين الحجرات ، ويفحصان الاقفال ، فاذا كل شىء فى مكانه ، ولكن .. فى نهاية بحثهما ، وهما فى غرفة المكتب ، سرت فى « البينوس » فجأة رعدة ذعر جعلته يترنح ؛ **فهناك خلف خزانة مستديرة للكتب ، كان يبدو طرف ثوب أحمر !** .. ولكن بول – بأعجوبة – لم يره ، برغم أنه كان ينعم النظر فى كل شىء .. وبادره البينوس قائلا بصوت مختنق : « كفى يا بول ! .. لا داعى للاستمرار فى ذلك ، فمن الواضح أنه لم يأخذ شيئا » .

وقال بول ، وهو يهم بالخروج من غرفة المكتب : « كم تبدو منزعجا ! .. اسمع يا صديقى العزيز ، يجب أن تغير قفلك الخارجى ، أو تترك بابك مغلقا على الدوام .. ولكن ماذا عن الشرطة ؟ .. هل تحب أن .. ؟ » . وهنا وضع « البينوس » اصبعه على فمه مشيرا اليه أن يسكت .. فقد ارتفعت أصوات فى البهو ، ثم دخلت اليزابيث ، تتبعها

أيرما ، ومربيتها ، واحدى صديقاتها الصغيرات .. طفلة بدينة ، يبدو من ملامحها أنها بلهاء خجول ، وأن كانت كثيرة الجلبة والصخب ..

وشعر البينوس بأنه فى كابوس : فان وجود مارجوت فى البيت كان أمرا مروعا لا يطاق .. وما لبثت الخادمة أن عادت ومعها الكتابان اللذان كان قد أوفدها بهما — لانها لم تجد العنوان طبعا — فازداد الكابوس هولا .. واقترح على الجميع أن يذهبوا الى المسرح فى ذلك المساء ، ولكن اليزابيث قالت انها كانت متعبة ..

ولم ينفك « البينوس » — أثناء العشاء — عن ارهاف أذنيه لاى صوت مريب، منصرفا الى ذلك بكل انتباهه ، حتى انه لم يدر ما الذى كان يأكله .. وظل يتلفت حواليه وهو يسعل ويهمهم ، ويقول فى نفسه : « ليت المجنونة الفضولية تبقى فى مكانها ولا تتحرك ! »

ولكن ، كان ثمة احتمال آخر رهيب .. فقد تنطلق الطفلتان فى الغرف .. ولم يجرؤ على أن يذهب فيغلق باب غرفة المكتب ، اذ قد يؤدى ذلك الى ارتباكات لا يمكن تصورها . ولكن ، الحمد لله ! .. فان صديقة أيرما الصغيرة لم تلبث أن غادرت البيت، فأوت ايرما الى فراشها . . بيد أن التوتر استمر ، وكان يخيل الى البينوس انهم جميعا — هو واليزابيث وبول والخادم — ينتشرون فى البيت كله ، بدلا من أن يتجمعوا فى مكان واحد ليتيحوا لمارجوت فرصة لتتسلل الى الخارج .. لو كانت تنوى ذلك حقا !

***

واخيرا .. انصرف « بول » فى حوالى الساعة الحادية عشرة ، فذهبت « فريدا » وأغلقت الباب الخارجى بالمزلاج كالعادة .. **ولم يعد فى وسع مارجوت أن تخرج !**

وقال « البينوس » لزوجته وهو يتثاءب فى انفعال : « اننى نعسان جدا ! » .. ثم استولت عليه نوبة تثاؤب ، فذهبا معا الى الفراش .. وساد الهدوء البيت . وكانت اليزابيث على وشك أن تطفىء النور ، حين سمعته يقول : « نامى انت ، فسأذهب أنا لأقرأ قليلا ! » . فابتسمت فى تكاسل ـ غير منتبهة الى تناقض تصرفاته ـ وتمتمت قائلة : « لا توقظنى حين تعود ! »

وكان كل شىء يبدو طبيعيا ، وكأنما السكون يرتفع ويرتفع ، ويكاد أن يطفح ثم ينفجر ضاحكا ! .. وانسل من الفراش بقميص النوم ، وسار فى نعليه الخفيفين دون صوت فى الردهة . **ويا للعجب ! .. لقد ذهب الخوف كله ، وذاب الكابوس ، واستحال الى شعور لذيذ بالحرية الكاملة** .. وسرت فى جسده رعدة وهو يقول فى نفسه : « بعد لحظة .. ستكونين لى ! » . وفتح باب غرفة المكتب فى حذر ، وأشعل النور الخافت ، وهمس وهو محموم : « مارجوت ! .. أيتها المجنونة الصغيرة ! »

ولكنها لم تكن سوى وسادة من الحرير الاحمر .. كان قد جاء بها بنفسه الى هنا ـ منذ بضعة أيام ـ ليجلس عليها وهو يبحث فى كتاب « تاريخ الفن » ، ذى المجلدات العشرة ، لنونيمارشر .. !

الفصل السابع

أخطرت مارجوت صاحبة المنزل بأنها توشك أن تغادرها قريبا ، اذ كان كل شىء يسير سيرا حسنا : فقد تحققت من ثراء عاشقها بعد أن زارت مسكنه ، وقد عرفت من الصورة التى رأتها على منضدة فراشه ، أن زوجته لم تكن أبدا كما

تصورتها ـ امرأة ضخمة ، متجهمة الوجه ، ذات قبضة من حديد ـ وانما كانت تبدو على النقيض : هادئة مسالمة ، يمكن أن تزاح عن الطريق بغير كبير عناء .

ولقد أحبت البينوس ، اذ كان مهذبا ، حسن التربية ، تفوح منه رائحة « البودرة » والطباق الجيد . ولم تكن تأمل ـ بالطبع ـ أن تسترجع سعادة حبها الاول ، الا انها لم تشأ أن تسلم نفسها للتفكير فى « ميللر » ، وفى خديه الفائرين بلونهما الابيض « الطباشيرى » ، وشعره الاغبر المشعث ، ويديه الطويلتين البارعتين .. **كان فى استطاعة البينوس أن يريحها ويهدىء ما بها من حمى القلق ، كتلك الاوراق النباتية المرطبة ، التى تستعمل فى تبريد الالتهابات** .. وكان ثمة شىء آخر : لم يكن « آلبينوس » غنيا فحسب ، وانما كان يمت الى ذلك العالم الذى يؤدى بسهولة الى ارتقاء المسرح والاشتغال بالسينما .. فقد طالما وقفت أمام المرآة تشكل وجهها فى كل صورة غريبة ، أو تتقهقر أمام فوهة مسدس تتصوره ، وكان يبدو لها أن ابتسامتها المغرية تارة ، والساخرة أخرى ، تحكى ابتسامة أية ممثلة من ممثلات السينما .

وبعد بحث طويل مضن ، وجدت بضع غرف جميلة فى حى من الاحياء الراقية .. وكان « ألبينوس » مضطربا ـ بعد زيارتها له ـ حتى لقد شعرت بالاشفاق عليه ، فلم تثر أية صعوبة فى قبول الرزمة السمينة من الاوراق المالية التى دسها فى حقيبتها أثناء سيرهما فى المساء .. ثم تركته ـ بعد ذلك ـ يقبلها فى ظل سقيفة بالطريق ، فظل وهج هذه القبلة يطوف به كأنه هالة مجد عظيم ، حتى اذا عاد الى بيته ، لم يستطع أن يضع هذه الهالة فى البهو ـ مع قبعته ـ فلما دخل غرفة النوم ، خيل اليه أن زوجته لن تلبث أن تبصرها !

على أنه لم يحدث قط لاليزابيث الهادئة ـ اليزابيث التى بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها ـ ان حلمت بان زوجها يخونها ! .. كانت تعلم أن له مغامرات صغيرة قبل الزواج ، وكانت تذكر أنها هى الاخرى ـ حين كانت فتاة صغيرة ـ أحبت فى السر ممثلا مسنا اعتاد أن يزور أباها ويضحكها أثناء الغداء بتقليد أصوات الحيوانات .. وكم سمعت وقرأت أن الازواج والزوجات يخونون بعضهم البعض على الدوام .. فما من شك فى أن الفسق كان محور كلام الناس ، وخيال الشعراء ، والروايات الهزلية والاوبرات الشهيرة .. ولكنها مع ذلك كانت مقتنعة ـ فى يقين ساذج ـ بأن الرابطة ـ التى تربطها بزوجها ـ من نوع خاص ، وثمين ، وطاهر ، ولا يمكن انتهاكه !

ولم تكن الامسيات التى اعتاد زوجها أن يقضيها فى الخارج ـ والتى كان يقول أنه يقضيها مع بعض الفنانين المهتمين بفكرته ـ لتسبب لها أدنى ريبة أو شك .. اما تقلب مزاجه وفرط انفعاله ، فكانت اليزابيث تعزوه الى الجو المتغير فى شهر مايو ، فهو فى لحظة شديد الحر ، ثم اذا المطر ينهمر ـ فى اللحظة التالية ـ باردا مدرارا ، وقد اختلط بحبات البرد التى تقفز على النوافذ كأنها كرات صغيرة .

وقد حدث مرة أن قالت له : « هل نذهب فى رحلة قصيرة الى مكان ما ، كالتيرول مثلا ، أو روما ؟ » . فأجابها قائلا : « اذهبى أنت اذا اردت . أما انا فعندى الكثير من الأعمال يا عزيزتى ! » . فقالت : « أوه ، كلا .. انها مجرد نزوة ! » . ثم ذهبت مع ايرما الى حديقة الحيوان لرؤية الفيل المولود حديثا .. وكان يبدو كما لو انه لم يؤت ذيلا على الاطلاق ، والشعر القصير منتشر على ظهره !

***

ولكن الامر كان يختلف ، بالنسبة لبول. فان حادثة الباب المغلق سببت له اضطرابا غريبا .. **ان البينوس لم يرفض استدعاء الشرطة فحسب ، وانما انزعج فعلا حين عاد بول الى الكلام فى الموضوع !** .. ومن ثم فان بول لم يسعه الا أن يعاود التفكير فى الامر ، وراح يحاول أن يتذكر أى شخص مريب يحتمل أن يكون قد رآه وهو متجه الى المصعد ، حين وصل الى البيت .. لقد كان يقظا جدا ، حتى ليذكر أنه لمح - وهو يجتاز الحديقة - قطة تقفز فوق السياج ، **ورأى تلميذة بثوب أحمر خارجة من المصعد** ، وسمع أغنية وضحكة مدوية تنبعث من مسكن البواب ، حيث كان الراديو مفتوحا كالعادة .. اذن ، فلا بد أن اللص خرج حين كان هو فى داخل المصعد.. ولكن ما سر ذلك الشعور المتوجس الذى انتابه ؟ .. لقد كانت سعادة أخته الزوجية بالنسبة اليه شيئا مقدسا .

وحدث بعد ذلك بأيام ، أن أراد الاتصال بالبينوس تليفونيا ، فلما أعطته العاملة الخط ، كان البينوس يتكلم قائلا : « لا تسأليني ، وانما اشترى ما تشائين ! » .. فأجابه صوت نسائى قائلا : « ولكن ألا ترى يا البينوس .. ؟ » .. وعندئذ ألقى بول المسماع بيد مرتجفة ، وكأنه كان يمسك حية سامة .

وفى ذلك المساء - حين جلس بول مع أخته وزوجها - لم يستطع أن يفكر فى أى شيء أو ان يقول شيئا ، وانما جلس قلقا متململا ، وهو ما يفتأ يحك ذقنه ، ويعقد قدميه المكتنزتين - احداهما فوق الاخرى - ثم يعيدهما الى وضعهما الاول .. وينظر فى ساعته ، ثم يضعها فى جيب صديريته ..

لقد كان من تلك المخلوقات الحساسة التى تحمر خجلا ، اذا ارتكب شخص آخر أى خطأ !

ولكن أيمكن لهذا الرجل الذى يحبه ويحترمه أن يخون اليزابيث ؟ .. كلا ، كلا .. هذا غير صحيح ، بل انه سوء فهم أحمق .. وظلت هذه الافكار تتردد فى رأسه وهو ينظر الى البينوس ، الذى كان يقرأ كتابا ، و « يتنحنح » من حين لآخر ، ويفصل — فى عناية شديدة — صفحات الكتاب بمشرط من العاج ، ووجهه يفيض بالبشر والصفاء .. وراح بول يقول فى نفسه : « مستحيل .. ان ذلك الباب المغلق لا يدل على شيء ، وتلك الكلمات التى سمعتها مجرد كلمات بريئة من غير شك .. كيف يمكن لانسان أن يخون اليزابيث ؟ »

وكانت اليزابيث منزوية فى ركن الاريكة تحكى بالتفصيل — وفى تؤدة — مسرحية رأتها ، والاخلاص يشع من عينيها الصافيتين ، وحبات النمش الخفيف تحف بهما ، وأنفها يعبر عن الرقة والحنان .. وراح بول يرقبها ، وما لبث أن هز رأسه وابتسم .. ثم فجأة — ولمدة ثانية واحدة فقط — لمح عينى البينوس تتأملانه من فوق الكتاب الذى يقرأه !

الفصل الثامن

وكانت مارجوت قد استأجرت المسكن وراحت تشترى بعض الحاجات المنزلية ، مبتدئة بثلاجة « فريجيدير » . ومع أن « البينوس » كان يدفع بسخاء — بل بسرور — فانه لم ير المسكن ، ولا عرف عنوانه . فقد قالت له انها تريد أن تفاجئه به حين يكتمل اعداده .

ومر أسبوع .. وكان يعتقد أنها ستكلمه تليفونيا فى يوم السبت ، فظل طوال اليوم جالسا الى جانب « التليفون » ،

الا أن الآلة ظلت صامتة .. حتى اذا جاء يوم الاحد ، ايقن أنها خدعته واختفت الى الابد ! .. وفى المساء جاء بول ، وكانت زياراته قد أصبحت – منذ ذلك الحين – جحيما لكليهما .. ومما زاد الأمر سوءا أن اليزابيث لم تكن بالبيت عند وصوله .

وجلس بول فى غرفة المكتب مواجها لالبينوس وراح يدخن ، ويتطلع الى طرف سيجارته .. وكان قد بدا – فى المدة الاخيرة – أكثر نحولا ، فقال البينوس لنفسه فى كمد : « انه يعلم كل شىء .. ليكن ! .. وماذا لو كان يعلم ؟ .. انه رجل ، وسيفهم .. ! »

ودخلت ايرما تخب ، فأشرق وجه بول ، وأخذها على ركبتيه ، وند عنه صوت مضحك ، اذ وخزته بقبضتها الصغيرة فى بطنه ، وهى تستريح فى جلستها .. وما لبثت أن عادت اليزابيث من حفلة كانت بها .. وحان وقت العشاء ، ثم المساء الذى بدا لالبينوس اطول مما يستطيع أن يحتمله ، فقال أنه لن يتعشى بالبيت . ولم تغضب زوجته ، بل سألته فى رقة ، كيف لم يقل ذلك من قبل .

وكانت تتملكه رغبة واحدة فقط ، هى أن يعثر على مارجوت فى الحال ، مهما يكلفه ذلك .. فان حظه الذى أجزل له الوعود من قبل ، لا ينبغى أن يخدعه الآن .. وقد كان يائسا لدرجة أنه قرر أن يقوم بمغامرة جريئة : فقد كان يعلم أين غرفتها القديمة ، التى كانت تعيش فيها مع خالتها .. فذهب الى هناك . واذ دلف الى الفناء الخلفى ، راى خادما صغيرة تجلس فى نافذة مفتوحة بالطابق الارضى ، فسألها عن مارجوت .. وأجابت الفتاة : « فراولين بيترز ؟ ! .. أعتقد انها انتقلت من هنا .. ولكن الافضل أن تتحقق بنفسك .. الطابق الخامس ، الباب الذى الى اليسار » .

وفتحت له الباب امرأة قذرة ذات عينين بلون الدم ، فسألته عما يريد - خلال فرجة صغيرة فى الباب ، دون أن ترفع المزلاج - فقال : « أريد أن أعرف العنوان الجديد لفراولين بيترز .. **لقد كانت تعيش هنا مع خالتها » . وإذ ذاك قالت المرأة باهتمام مفاجىء : « أوه .. حقا ؟ »** .
ثم رفعت المزلاج وقادته الى بهو صغير ، كان كل شيء فيها يهتز ويقعقع لأتفه حركة . وكانت تضع - على مفرش من النسيج الامريكى ذى دوائر حمراء - طبقا به بطاطس مدهوكة ، وقبضة من الملح فى كيس ممزق من الورق ، وثلاث زجاجات بيرة فارغة ..

ودعته للجلوس بابتسامة غامضة . **وقالت له وهى تغمز بعينها : « لو اننى كنت خالتها ، لما قدر لى ان أعرف عنوانها » . ثم أردفت فى حدة ظاهرة : « كلا .. فلا خالة لها ! »** .
فقال البينوس لنفسه فى ضجر : « انها سكرانة ! » . ثم قال للمرأة : « اسمعى .. أيمكنك أن **تخبرينى أين ذهبت ؟** » .
فأجابت فى تخاذل : « لقد كانت تستأجر غرفة منى » .. وكانت بينذاك تفكر بحسرة فى عقوق مارجوت ، اذ اخفت عنها خبر الصديق الغنى ، كما اخفت عنوانها الجديد ، وأن لم يتعذر عليها التوصل الى معرفة هذا العنوان .

فقال البينوس : « ماذا أفعل ؟ .. الا يمكنك ان تقترحى شيئا ؟ » .. بيد ان المرأة كانت شاردة فى تفكيرها : نعم ، انه لنكران للجميل ، فقد طالما ساعدت مارجوت ، وهى الآن لاتدرى هل تكون - اذا أخبرته - قد صنعت معها جميلا ، أو تكون قد صنعت العكس ! .. وكانت تفضل الفرض الثانى ، **لاسيما أن الرجل الوجيه ، المرهف الاحساس ، الازرق العينين ، كان يبدو حزينا جدا ، حتى انها لم تتمالك نفسها من أن تطلعه على بغيته وهى تتأوه .** وشيعته الى

الباب ، وهى تهز رأسها وتغمغم قائلة : « لقد كان من دأبهم أن يسعوا ورائى أنا كذلك ، فى الايام الغابرة .. نعم ، هذا ما كان يفعله الرجال ! »

***

وكانت الساعة قد بلغت السابعة والنصف ، وقد أضيئت الانوار ، فاذا وهجها البرتقالى الناعم يبدو غاية فى البهاء على صفحة الفسق الشاحب ، والسماء لا تزال صافية الزرقة : لا يعكر صفاءها غير سحابة واحدة فضية اللون تبدو على البعد . بيد أن هذا التداخل بين النور والظلمة أصاب « البينوس » بالدوار .

وقال فى نفسه والسيارة تسرع به : « بعد لحظة سأكون فى الفردوس ! » .. وكانت ثمة ثلاث شجرات باسقة من شجر الحور ، مصطفة أمام المنزل الكبير المشيد بالقرميد الاحمر ، الذى تسكنه ، وعلى الباب لوحة نحاسية جديدة تحمل اسمها .. وبرزت له أنثى ضخمة الجسم ذات ذراعين ككتلتين من اللحم ، ثم استدارت لتعلن سيدتها بحضوره ، فقال فى نفسه وهو جذل : « سرعان ما جاءت بطباخة ! » .. وبعد هنيهة ، عادت المرأة فقالت له : « تفضل بالدخول ! » .. فسوى شعره المتطاير ودخل .

وكانت مارجوت مستلقية ــ فى عباءة يابانية ــ على أريكة مكسوة بنسيج صارخ الالوان ، وذراعاها معقودتان خلف رأسها ، وعلى بطنها كتاب مقلوب . فما أن أبصرته حتى قالت بصوت متكسر ، وهى تمد اليه يدها : « أسرعان ما جئت ؟ ! » .. وغمغم فى رقة قائلا : « لماذا ؟ كأنك غير مندهشة لرؤيتى .. فهل تعلمين كيف عرفت عنوانك ؟ » .. فقالت

وهى تتأوه وترفع مرفقيهـا مرة أخرى : « لقـد كتبت لك عنـوانى » .

بيـد أن البينوس استمر دون أن يفطن لـكلماتها ، وهو يحدق فى شـفتيها المزمومتين ، قائلا : « لقـد كان شيئـا مسليا . . لاسيما وأنت ترهبيننى بخالتك تلك التى اخترعتيها اختراعا ! »

ففضبت مارجوت فجأة وقالت له : « لمـاذا ذهبت الى هناك ؟ . . لقد كتبت لك عنوانى ، فى الركن الايمن . . انه واضح جدا » . . ففغر البينوس فاه حيرة ، وهو يكرر قولها متسـائلا : « فى الركن الايمن ؟ . . واضـح جـدا ؟ . . عم تتحدثين ؟ »

وأغلقت الكتاب بضربة من يدها ، وجلست على الاريـكة قائلة : « ألم تتلق خطابى ؟ » . فسـألها البينـوس قائلا : « أى خطاب ؟ » . . ثم وضـع فجأة يده على فمـه ، وفتح عينيه الى أقصاهما . . بينما قالت وهى تستلقى مرة أخرى ، وتنظر اليه فى عجب : « لقد ارسلت اليك خطابا هذا الصباح . . وقد قدرت أن يصلك فى بريد المسـاء ، فتأتى الى هنـا مباشرة ! »

وصـاح البينـوس : « هل فعلت ذلك ؟ » . فقـالت : « بالطبع فعلت ذلك ، واستطيع أنأذكر لك بالضبط ما كتبته . . فقد قلت : « **حبيبى ألبير : ان العش الصغـير قـد تم اعداده ، والطائر ينتظرك . . ولكنى أرجوك الا تضمنى ضما شديدا ، والا ادرت رأس صغيرتك أكثر من أى وقت مضى** » . . هذا كل شىء ! »

فهمس بصـوت مختنق قائلا : « مارجوت ، ماذا فعلت ؟ . . لقـد غادرت المنزل قبل أن أتسـلمه ، فان عامل البريد لا يأتى الا فى الثـامنة الا ربعا . . انه الآن . . » . ولـكنها

قاطعته قائلة : « حسنا . انها ليست غلطتى ، فمن الصعب ارضاؤك .. لقد كان خطابا ظريفا ! » . وهزت كتفيها ، والتقطت الكتاب ، وأدارت له ظهرها ، فلمح على الصفحة اليمنى صورة لجريتا جاربو ..

***

وبلغت الساعة الثامنة الا عشر دقائق ، ومارجوت راقدة هناك ؛ وجسدها منحن بلا حراك .. فانفجر صائحا بأعلى صوته : « لقد تركتك تثرثرين .. » . ولكنه لم يتم جملته ، وخرج يجرى مندفعا الى السلم ، ثم قفز الى سيارة ، وجلس على طرف المقعد منحنيا الى الامام ، وراح يحدق فى ظهر السائق .. الا أن هذا الظهر لم يكن يوحى بأى أمل !

واذ بلغ داره ، قفز من السيارة ، ودفع الاجر فى عجلة ، كما يفعلون فى الافلام . وعند سياج الحديقة ، راى عامل البريد الهزيل الجسم ، المقوس الساقين ـ الذى اعتاد رؤيته ـ يتكلم مع البواب القصير البدين ، فتقدم البينوس منه . **وسأله لاهثا : « أليس لى خطابات ؟ » . فاجاب العامل بابتسامة ودية قائلا : « لقد سلمتها لتوى ، يا سيدى ! »**

وتطلع «ألبينوس» الى أعلى ، فاذا نوافذ مسكنه مضاءة كلها ، على غير العادة . ودخل المنزل .. وبجهد عظيم بدأ يصعد السلم ، وهو يحدث نفسه بما ينبغى أن يقوله لزوجته : « دعينى أوضح لك الامر .. انها فنانة صغيرة تحتاج .. » ، وأمسك ، ثم استطرد يناقش نفسه : « ولكن ، غير معقول .. فهل تكتب خطابات غرام الى الغرباء ؟ ! .. هراء ، لقد انتهى كل شىء ! »

وقبل أن يصل الى باب مسكنه ، استدار فجأة ، واندفع

ينزل السلم ثانية .. وعندئذ قفزت قطة فى ممشى الحديقة ، وانسلت بخفة بين قضبان السياج الحديدية .

وبعد عشر دقائق ، كان يدلف مرة أخرى الى تلك الغرفة التى دخلها — من قبل — ممتلىء الجوانح بالغبطة والمرح .. وكانت مارجوت لا تزال مستلقية على الفراش ، فى ذات الوضع ، والكتاب لا يزال مفتوحا عند ذات الصفحة .. فجلس بالقرب منها ، وراح يضغط مفاصل أصابعه فتحدث صوتا ، فقالت له مارجوت دون أن ترفع رأسها : « لا تفعل ذلك ! » . وتوقف هنيهة ، ثم ما لبث أن عاد الى تلك الفعلة ، فقالت له : « حسنا .. هل وصل الخطاب ؟ »

وأجاب ، وهو لا يكاد يستطيع أن يخرج الكلمات : « آه يا مارجوت .. لقد تأخر جدا ، تأخر جدا .. » . ثم انفجر يبكى بصوت مرتفع.. وما لبث أن وقف وراح يجىء ويذهب فى الغرفة .. وأخيرا جلس مرة أخرى ، وهو يقول : « ان زوجتى تقرأ كل خطاباتى » .. فقالت له : « كان خليقا بك ان تمنعها من ذلك ! »

فقال : « انك يا مارجوت لا تفهمين .. لقد كان الامر على الدوام هكذا .. كانت عادة .. سعادة ! .. كانت زوجتى تفض الخطابات أحيانا ، قبل أن أقرأها .. وقد كانت خطابات مسلية ، من كل صنف .. كيف امكنك أن تفعلى هذا ؟ .. اننى لا أستطيع أن أتصور ما ستفعل الآن ! .. **ليت معجزة تكون قد حدثت هذه المرة فقط ، كأن تكون هى مشغولة بشىء .. ولكن ، كلا .. كلا ! »**

فقالت له : « حسنا .. أرجوك ألا تظهر اذا جاءت ، وسأقابلها وحدى فى البهو » . فقال فى ذهول : « متى ؟.. متى ؟ » . وتذكر فى هذه اللحظة العجوز السكرانة التى رآها منذ فترة .. كأنما مرت أجيال منذ رآها !



لقد احبته لانه كان مهذبا، تفوح منه رائحة((البودرة)) والطباق الجيد!..
(ص ٥٧)

وقالت مارجوت : « متى ؟ ! .. فى أية لحظة على ما أعتقد .. انها أصبحت تعرف عنوانى ، أليس كذلك ؟ » . ولكن عقل البينوس ظل جامداً لا يفهم .. ثم صاح أخيراً : « أوه .. هل هـذا ما تعنينه ؟ .. يا لك من حمقاء يا مارجوت ! .. صدقينى أن هذا مستحيل .. قد يحدث أى شىء آخر ، الا .. هـذا ! »

فقالت مارجوت فى نفسها : «هذا أفضل كثيرا» . وشعرت فجأة بفرح عظيم .. فقد كانت – حين أرسلت الخطاب – تتوقع نتيجة أتفه من هـذه بكثير .. **كانت تتوقع أن يرفض البينوس أن يسـمح لزوجتـه برؤية الخطاب ، فتغضب ، وتضرب الارض بقدمها ، وتروح فى نوبة عصبية .. ثم يبدأ الشك يعبث بها ، فيكون فى ذلك تمهيد للطريق** .. أما الآن فقد خدمها الحظ ، وفتحت الطريق بخبطة واحدة ..

وتركت الكتاب يسقط على الارض ، وابتسمت وهى تنظر الى وجهه المنكس ، المختلج العضلات ، وقالت فى نفسها : « لقد جاء وقت العمل ! » . ثم تمددت على الفراش ، وهى موقنة من فتنة جسدها الرشيق ، وقالت له وهى تنظر الى السقف : « تعال بجانبى ! » . فجلس على حافة الفراش ، وراح يهز رأسـه فى قنوط . فقالت له وهى تغمض عينيها : « قبلنى .. ولسوف تجد الراحة بين أحضانى ! »

الفصل التاسع

فى ذلك الصباح من شـهر مايو ، كان عمال برلين – ذوو القبعات البيضاء – ينظفون الشوارع ، والعصافير تشقشق فوق عساليج اللبلاب ، وعربات اللبن تنطلق ، والشـمس تتـألق فى نافذة علوية على منحـدر سقف مغطى بالقرميـد

الاخضر ، وهدوء الصباح الجديد لم يألف بعد صخب حركة المرور ، فهو يحوم حولهـا فى رقة ـ كأنه شىء هش ثمين ـ وقد تفتحت فى الحـدائق زهور البنفسـج ، والفراشـات البيضـاء ترفرف ـ برغم رجفة الفجر ـ وتهوم ، كأنهـا فى حقول الريف .

كل هذا اكتنف « البينوس » وهو خارج من المنزل الذى قضى فيه ليلته .. كان يحس بتعب ثقيل ، وكان جائعا ، لم يحلق ذقنه بعـد ، ولم يسـتحم .. وملمس قميص الامس على جلده يثيره ويحنقه ! .. كان منهكا تماما . ولا عجب ، فتلك هى الليلة التى كان يحلم بها منذ سنين .. ان الطريقة التى قوست بها كتفيهـا وتأوهت ـ حين طبع أول قبلة على جيدها الناعم ـ انبأته بأنه سيحصل على ما كان يريده تماما **.. وما اراده كان شيئا غير برودة الطهر والبراءة ! .. وقد تحقق له كل ما كان يحلم به فى تخيلاته الداعرة ..**

أما الحب البرىء ، وأما التحفظ المتعـالى ، فـلم يـكن معروفا فى ذلك العالم الجـديد الطليق .. ولقـد كانت فى عريها طبيعية ، كأنها معتادة ـ منذ زمان طويل ـ أن تجرى على شـاطىء أحلامه . بيد أنها ما لبثت أن تعست فجـأة ، فبسط عليها الغطاء ، وقبل شعرها الفاحم المنتشر .. وفى الفجـر ، كتب ورقة تركها لهـا على المنضـدة ، ثم خرج فى هدوء .

والآن ، وهو يسـير فى ضـوء الصـباح الوادع ، أدرك أن وقت الحساب قد حان ! .. واذ أبصر ـ من جديد ـ ذلك البيت الذى عاش فيه طويلا مع اليزابيث .. واذ ارتفع به المصعد الذى ضم ـ منذ ثمانى سنوات ـ طفلته وليدة بين ذراعى مربيتها ، وزوجته وقد بدت شـاحبة جدا ـ اثر الوضع ـ وسعيدة جدا .. واذ وقف أمام ذلك الباب الذى

كان يحمل اسمه فى لوحة لامعة ، توحى بالاحترام ، أحس بأنه على استعداد لأن ينبذ كل ذكرى لليلة الماضية ، لو أن معجزة حدثت ! .. كان واثقا من أن بوسعه ان يبرر غيابه بطريقة ما ، اذا كانت اليزابيث لم تقرأ الخطاب .. كأن يقول لها انه حاول مازحا أن يدخن الافيون فى بيت ذلك الفنان اليابانى الذى جاء مرة للغداء .. كان عذرا معقولا !

ووجد أن عليه أن يفتح الباب ، وأن يدخل ، ويرى .. ولكن ماذا عساه مبصرا ؟ .. **أليس الافضل ألا يدخل على الاطلاق ؟ .. ان يترك كل شىء ، وأن يذهب .. ان يختفى ؟**

الا أنه تذكر فجأة كيف أنه ــ خلال الحرب ــ وطن نفسه على الا يستسلم أو ييأس من النجاة ، ففتح الباب .. وفى البهو ، وقف بلا حراك ، يرهف أذنيه .. ولكن ، لا صوت .. كان البيت عادة ــ فى مثل هذا الوقت من الصباح ــ يمتلىء بالأصوات .. فثمة خرير الماء يرتفع من مكان ما ، والمربية تتحدث مع « ايرما » بصوت مرتفع ، والخادم تحدث جلبة فى غرفة النوم .. أما الآن ، فلم يكن ثمة صوت .. وفى ركن من البهو ، كانت تنتصب مظلة اليزابيث .. وحاول أن يتلمس بعض الأمل فى هذا ، الا أنه ما لبث ــ وهو واقف هناك ــ ان رأى « فريدا » تخرج من الداخل .. ونظرت اليه ، ثم قالت فى شقاء : **« اوه ، يا سيدى ! .. لقد ذهبوا جميعا فى الليلة الماضية »** .

وقال البينوس دون أن ينظر اليها : « الى اين ؟ » .

ومضت تروى له كل شىء .. كانت تتكلم بسرعة ، وبصوت مرتفع ــ على غير عادتها ــ ثم انفجرت باكية وهى تتناول منه قبعته وعصاته ، وقالت له وهى تنشج : « هل آتيك ببعض القهوة ؟ »

وكان الاضطراب ــ فى حجرة النوم ــ ينبىء بكل شىء :

فأثواب زوجته ملقاة على السرير ، وأحد دراج خزانة الثياب مفتوح عن آخره ، وقد اختفت صورة المرحوم حماه من فوق المنضدة ، وانقلب طرف البساط فسواه «البينوس» ، ومشى ببطء الى غرفة المكتب . وهنالك كانت بعض الخطابات مفتوحة وملقاة على المكتب ، و .. آه ، ها هو ذا الخطاب ، فيا له من خط أطفال ، وكم من خطأ فى الهجاء ! .. وهذه دعوة للفداء من درايزر .. وهذا خطاب قصير من ريكس .. و « فاتورة » من طبيب الاسنان ..

***

وبعد ساعتين ظهر « بول » ، وقد بدا أنه كان مضطربا وهو يحلق ذقنه ، فثمة شريط أسود ـ على شكل صليب ـ الصق على خده المكتنز .. وقال وهو يمر بجانب البينوس : « جئت لآخذ الاشياء ! » .. فتبعه فى سكون .. وكانت قطع من النقود تصلصل فى جيب سرواله . وراح « بول » و « فريدا » يحزمان الحقيبة فى سرعة ، كأنهما متعجلان للحاق بقطار ..

وغمغم البينوس قائلا : « لا تنس المظلة ! » ، ثم تبعه الى غرفة الاطفال ، وتكرر حزم الامتعة .. هناك . وكانت ثمة حقيبة سفر ممتلئة فى غرفة المربية ، أخذها « بول » كذلك . و « تنحنح » البينوس ، ثم قال متلعثما : « بول .. أتسمح لى بكلمة ؟ » .. ثم اتجه الى غرفة المكتب ، فدخل بول خلفه ، ووقف فى النافذة .

وقال البينوس : « هذه مأساة ! » ، فقاطعه بول قائلا ، وهو ينظر خارج النافذة : « دعنى أقل لك شيئا واحدا .. لسوف يكون من حسن الحظ للغاية ، لو أن اليزابيث نجت من هذه الصدمة .. انها .. » . وأمسك والصليب الاسود

يرتفع وينخفض على خده ، ثم أردف قائلا : « انها أصبحت تشبه امرأة ميتة.. هذا هو الواقع.. وانت ـ فى الحق ـ نذل يا سيدى ! .. انك فى غاية النذالة ! » .. فقال البينوس ، وهو يحاول أن يبتسم : « ألا تراك قدخرجت عن طورك ؟ » . فصاح بول وهو ينظر الى زوج أخته لاول مرة : « **انه لشىء فظيع ! .. من أين التقطتها ، هذه العاهرة ؟ .. وكيف جرؤت على أن تكتب اليك ؟** »

وقال البينوس وهو يلعق شفتيه : « على رسلك .. على رسلك ! » .. فقال بول بصوت أكثر ارتفاعا : « لسوف ادق عنقك .. أننى لأستحق الشنق ان لم أدق عنقك ! » . فغمغم البينوس قائلا : « تذكر فريدا .. ان فى امكانها ان تسمع كل كلمة ! » . فقال بول : « هل تعطينى تبريرا ؟ »

وحاول أن يمسك « ألبينوس » من طية سترته ، ولكن هذا لطمه على يده وهو يحدجه بنظرة قاسية ، قائلا : « اننى أرفض أن تستجوبنى .. ان هذا كله مؤلم للغاية .. أليس بوسعك أن تعتقد انه سوء تفاهم فظيع ؟ افرض.. » . فقال بول مزمجرا ، وهو يضرب الارض بمقعد : « **أنت تكذب أيها الوغد .. فقد كنت لتوى عندها .. تلك العاهرة الصغيرة ، التى كان الاخلق بها أن توضع فى اصلاحية ..** اننى أعرف انك تكذب أيها الوغد .. كيف أمكنك ان تفعل هذا ؟ .. انه ليس مجرد خطيئة .. انه .. »

فقاطعه البينوس قائلا بصوت خافت : « كفى ! » . ومرت عربة فى الشارع، فقعقع زجاج النافذة قعقعة خفيفة . وما لبث بول أن قال بهدوء غير متوقع ، ونغمة حزينة : « أوه ، يا ألبير .. من الذى كان يظن أن هذا يحدث ؟ »

وخرج .. وكانت فريدا تبكى فى الداخل .. وحمل شخص ما الامتعة الى الخارج ، ثم ساد السكون !

الفصل العاشر

وفى ذلك المساء حزم البينوس حقيبة ملابسه ، وانتقل الى مسكن «مارجوت» . وما كان من السهل اقناع «فريدا» بالبقاء فى البيت الخالى ، لولا أن اقترح عليها أن يأتى فتاها الذى تحبه ـ وهو « جاويش » بالشرطة ـ فيشغل غرفة المربية .. وأوصاها البينوس بأن تجيب كل من يسأل عنه تليفونيا ، بأنه قد سافر فجأة الى ايطاليا مع أسرته .

واستقبلته مارجوت ببرود ، فقد أثارها ـ فى الصباح ـ رجل بدين مهتاج ، كان يبحث عن زوج أخته ، وقد سبها ، وان كانت الطباخة السليطة قد خلصتها منه .. وما كان هذا الرجل سوى « بول » طبعا !

ونظرت مارجوت الى حقيبة البينوس ، قائلة له : « ان هذه الشقة مخصصة لشخص واحد فقط ! » . فتمتم البينوس فى بؤس قائلا : « أرجوك يا مارجوت ! » .. ولكنها استطردت : « ثم ان هنالك أشياء كثيرة يجب أن نتكلم فيها .. فأنا لست مستعدة لأن أسمع اهانات أقربائك السفهاء ! » .. وراحت تذرع الغرفة فى دثارها الحريرى الاحمر ، ويدها اليمنى على زندها الايسر ، وهى تنفخ دخان السيجارة فى عصبية ، وشعرها الاسود منسدل على جبينها ، كأنها غجرية .

وبعد تناول الشاى ، خرجت لشراء « جراموفون » .. ولكن لماذا رأت ان تشتريه فى هذا اليوم دون غيره من الايام ؟.. واستلقى البينوس على الاريكة فى غرفة الجلوس ، وقد هده الارهاق ، وأضناه الصداع ، وراح يقول لنفسه : « أن شيئا فظيعا مروعا قد وقع ، ولكننى مع ذلك فى غاية الهدوء .. وقد أغمى على اليزابيث عشر دقائق ، ثم راحت

تصرخ صراخاً ربما كان افزعني سماعه، ومع ذلك فأنا هادئ تماما .. **انها ما زالت زوجتى وأنا أحبها ، وسأقتل نفسى ـ من غير شك ـ اذا ماتت بسبب غلطتى !** .. واننى لأعجب كيف فسروا لايرما ذلك الانتقال المفاجئ الى مسكن بول ، وكل تلك العجلة وذلك الاضطراب ؟ .. لقد كانت طريقة مؤلمة تلك التى وصفت بها فريداً ما حدث ، وهى تقول : « ان السيدة راحت تصرخ .. ان السيدة راحت تصرخ ! » .. فيا له من أمر عجيب ، لأن اليزابيث لم يسبق ان رفعت صوتها فى حياتها قط ! »

وفى اليوم التالى ـ بينما كانت مارجوت فى الخارج تشترى أسطوانات ـ كتب لزوجته خطابا طويلا أكد لها فيه ـ بكل اخلاص ، وان يكن بأسلوب منمق ـ **انه ما زال يعزها كما كان يفعل من قبل ، برغم هفوته الصغيرة ، التى قال انها مزقت سعادتهم العائلية كما تمزق السكين فى يد مجنون صورة جميلة** . واخذ يبكى وينهنه ـ وهو يرهف أذنيه ليتأكد من أن مارجوت غير قادمة ـ ثم يواصل الكتابة، والدمع يهطل من عينيه ، متوسلا الى زوجته أن تصفح عنه . ولكن خطابه كان خلواً من أية اشارة تدل على استعداده لهجر عشيقته .

ولم يتلق أى رد على خطابه . ومن ثم فقد تحقق من أنه ـ اذا شاء ان لا يقضى على نفسه ـ يجب أن يمحو ذكرى اسرته من ذهنه ، وأن يستسلم كل الاستسلام لذلك الهيام العنيف ـ بل الاقرب الى المرض ـ الذى تثيره فيه فتنة « مارجوت » الخليعة المتهتكة . وقد كانت هى من جانبها مستعدة على الدوام ، لأن تستجيب لمغازلته وشطحات رغبته . وكان ذلك ينعشها ، اذ كانت لعوبا ، لا تبالى بشئ .

فقد أكد لها الطبيب ـ منذ عامين ـ أنها لن تلد أبداً ، وقد كانت تعتبر ذلك فضلا من الله ونعمة !

وعلمها « البينوس » أن تستحم كل يوم ، بعد ان كانت ـ قبل ذلك ـ لاتغسل الا عنقها ويديها . واصبحت أظافر يديها وقدميها نظيفة دائما ، ومخضبة بالطلاء الاحمر اللامع .. وكان ما يفتأ يكتشف مفاتن جديدة فيها، ويلمس أشياء صغيرة ، لو كانت فى فتاة غيرها لبدت له مرذولة متبذلة ، كنزقها الذى يشبه نزق الاطفال ، وانعدام حيائها ، وتدرج الظلمة فى عينيها ، كأنها أضواء المسرح تطفأ شيئا فشيئا ! .. وكانت تثير فيه الخبل والجنون ، حتى لقد انعدم فيه كل أثر للخجل الذى كان يستشعره مع زوجته الرقيقة المتحفظة .

***

ولم يعد يغادر المنزل الا قليلا ، خشية أن يقابله احد معارفه . ولم يكن يسمح لمارجوت بالخروج ـ كى تواصل بحثها الذى لا ينتهى عن الجوارب الحريرية والملابس الداخلية ـ الا على مضض ، وفى فترات الصباح . وقد كان يدهشه تجردها من حب الاستطلاع ، اذ لم يحدث أن سألته مرة واحدة عن حياته السابقة . وكان يحاول ـ فى بعض الاحيان ـ أن يسليها بالحديث عن ماضيه ، فيكلمها عن طفولته وعن أمه ـ التى لم يكن يتذكرها الا بغموض ـ وعن أبيه الطيب العنصر الذى كان يملك ضيعة فى الريف ، ويحب كلابه وخيوله ؛ وسنديانانه وغلاله ؛ والذى مات فجاة على اثر نوبة من الضحك الشديد ، انتابته وهو فى حجرة البليادرو ، مع ضيف يقص له قصة داعرة .. فقالت مارجوت « قص لى هذه القصة !» .. ولكنه كان قد نسيها ،

وحدثها عن شغفه الاول بالرسم ، وعن أعماله واكتشافاته، وروى لها كيف أمكنه أن يجدد اللوحات القديمة بمزيج من الصمغ المسحوق والثوم ، وكيف استطاع أن يزيل ما علق من الدخان بالصور المرسومة على الخشب بخرقة مبللة بالتربنتين ، فعاد اليها بهاؤها الاول من جديد . بيد أن أكثر ما كانت تهتم له « مارجوت » هو السؤال عن ثمن هذه الصور فى السوق ..

وحدثها عن الحرب، والوحل البارد فى الخنادق ، فسألته لماذا ـ وهو الغنى ـ لم يضع نفسه فى وظيفة وراء خطوط القتال ؟ .. فصاح وهو يناغيها قائلا : « يا لك من معبودة ساذجة ! »

الا انها بدأت تستشعر الضجر فى الامسيات ، وتتوق الى دور السينما ، والمطاعم الانيقة ، وموسيقى الزنوج الصاخبة ، فقال لها : « **سيكون لك كل شىء .. كل شىء ! .. دعينى استرح أولا ، فان فى رأسى أنواعا من المشروعات .. ولسوف نذهب قريبا الى شاطىء البحر** » .

وكان يجيل بصره فى بهو مسكنها ، ويعجب من نفسه ، كيف استطاع ـ وهو الذى كان يفخر بأنه لا يطيق أى شىء سقيم الذوق ـ ان يحتمل هذا المكان البشع .. بيد أنه كان لايلبث أن يقول فى نفسه ان شغفه بها وهيامه بحبها يضفى على كل شىء غلالة من البهجة والبهاء ! .. وقال لها ذات يوم : « لقد اندمجنا حقا أروع اندماج .. أليس كذلك يا حبيبتى ؟ » . فوافقته راضية .. وان كانت قد أيقنت أن هذا كله ليس الا مؤقتا ، فان ذكرى مسكنه الفاخر ظلت لاصقة بخيالها .. الا انه لم يكن ثمة داع ـ بالطبع ـ للعجلة !

***

وفى ذات يوم من أيام يوليو ، كانت مارجوت عائدة من عند الخياطة ، سائرة على قدميها .. حتى اذا غدت بالقرب من المنزل ، شعرت بشخص ما ينهشها من الخلف ـ فوق مرفقها ـ فاستدارت ، واذا هو أخوها « أوتو » يضحك ضحكة مقيتة ، وقد وقف بالقرب منه إثنان من أصدقائه يضحكان ضحكات مقيتة كذلك .. وقال لها : « كم أنا سعيد برؤيتك يا أختى .. أليس جميلا منك أن تنسى ذويك ! » . فقالت مارجوت ببطء ، وهى ترخى أهدابها : « دعنى وشأنى! »

وعقد « أوتو » ذراعيه ، وقال وهو يجيل فيها بصره من الفرع الى القدم : « كم تبدين جميلة .. حقا أنك لتشبهين تمام الشبه سيدة صغيرة ! » . فاستدارت مارجوت وواصلت سيرها ، ولكنه أمسك ذراعها مرة أخرى ، فندت عنها من الالم آهة مستطيلة واهنة ـ كتلك التى كانت تصدر عنها وهى طفلة ـ بينما قال أوتو : « **اسمعى ! .. هذا هو اليوم الثالث منذ بدأت أراقبك ، وأنا أعرف أين تسكنين .. ولكن يحسن أن نبتعد قليلا !** »

فهمست مارجوت وهى تحاول أن تفلت من قبضته : « دعنى وشأنى ! » . وعندئذ توقف أحد المارة ، وقد توقع نشوب معركة .. وكان منزلها قريبا جدا ، ومن المحتمل أن يطل «ألبينوس» من النافذة ، فيحدث ما لا تحمد عقباه .. لذلك استسلمت لعنف أخيها ، واسلست له قيادها وهو يسحبها الى ركن الشارع ، وقد تبعهما الآخران : كاسبار وكيرت ، وهما يغمزان بأعينهما ويلوحان بأذرعهما !

وسألته ، وهى تنظر فى اشمئزاز الى قبعته الملطخة بالشحم ، وقد وضع سيجارة خلف اذنه : « ماذا تريد ؟ »

فأومأ برأسه الى ناحية وقال : « هيا نذهب الى الحانة التى هناك ! »

وصاحت مارجوت : « كلا » . ولكن الرجلين الآخرين اقتربا منها جدا وراحا يزمجران وهما يدفعانها ناحية الباب ، فتملكها الخوف .. وكان بالداخل بضعة رجال يتحدثون عن الانتخابات القادمة فى جلبة وصخب ، فقال أوتو : « لنجلس هنا .. فى هذا الركن ! »

وجلسوا .. وتذكرت مارجوت بجلاء - وبشىء من الدهشة - كيف كان من عادتهم جميعا أن يخرجوا فى رحلات مرحة الى الضواحى .. هى وأوتو وهذان الشابان اللذان لوحتهما الشمس، واللذان علماها السباحة وكانا يتحسسان فخذيها العاريين تحت الماء . وكان لكيرك وشم على صورة هلب على ساعده ، ووشم آخر على صورة تنين على صدره. **وكانوا يستلقون على الشاطىء ، ويرمى كل منهم الآخر بالرمل الناعم المبتل .. حتى اذا استلقت هى ، راحوا يضربونها على عجزها !** .. لكم كان جميلا وبهيجا كل شىء : فثمة الجماعات المرحة ، ووسائد القش منتشرة فى كل مكان ، وكاسبار ذو العضلات القوية والشعر الاشقر يهز ذراعيه على حافة البحيرة ويصخب .. وكان عندما يسبح ، يضع فمه تحت الماء ، ويصرخ كعجل البحر .. حتى اذا خرج ، كان أول ما يفعله ان يمشط شعره الى الخلف، ويضع قبعته بعناية على رأسه .. وتذكرت كيف كانوا يلعبون الكرة ، ثم ترقد على الشاطىء ويغطونها بالرمال ، فلا يتركون الا وجهها مكشوفا ، ويضعون صليبا على الحصباء، فوق القمة!

***

ووضع الساقى على المائدة أربع كؤوس من البيرة محاطة

بأشرطة ذهبية ، فقال أوتو لأخته : « اسمعى ! .. لا حاجة بك لأن تخجلى من أهلك ، لمجرد انك وقعت على صديق غنى .. بل أن عليك ـ على النقيض ـ أن تفكرى فينا » . وأخذ رشفة من الكأس ، وفعل صديقاه مثله ، وكانا يرمقان «مارجوت» بنظرات ملؤها الحقد والغرور ، فقالت بازدراء : **« أنت لا تعلم شيئا عما تتحدث عنه .. ان الامر يختلف كل الاختلاف عما تظن .. فنحن فى الحقيقة مخطوبان ! »**

وانفجر ثلاثتهم ضاحكين ، فأدارت مارجوت وجهها بعيدا وقد امتلأت نفورا واشمئزازا .. وتململت فى جلستها وهى تغلق حقيبة يدها ، فأخذها أوتو منها وفتحها ، فوجد بها علبة « بودرة » ، وبضعة مفاتيح ، ومنديلا صغيراً ، وثلاث ماركات ونصف ، فأخذ هذه الاخيرة قائلا : « هذا يكفى للبيرة » ، ثم انحنى لمارجوت ووضع الحقيبة أمامها ..

وطلبوا مزيداً من البيرة . وجرعت مارجوت كذلك بعضا منها بصعوبة لأنها كانت تكرهها ، ولكنها لم تشأ ان يأخذوا نصيبها .. وسألتهم وهى تربت على الخصلتين التوأمتين المسدلتين على خديها قائلة : «هل يمكنني أن أذهب الآن ؟» . فصاح أوتو فى دهشة ساخرة قائلا : « ماذا ؟ .. ألا تحبين الجلوس مع أخيك وأصدقائه ؟ .. لشد ما تغيرت يا عزيزتى .. اننا لم نتفق بعد على العمل ! » . **فقالت : « لقد سرقتم نقودى .. وأنا الآن منصرفة ! »**

وزمجروا جميعا مرة أخرى ، فعاودها الخوف ، وقال أوتو فى بذاءة : « لا كلام عن السرقة ، فهذه ليست نقودك ، وانما أخذتيها أنت من شخص أخذها بدوره من عرق جبين الطبقات الكادحة ، فالافضل ألا تتحدثى عن السرقة ! .. انك .. » . وهنا كبح لسانه ريثما استعاد بعض الهدوء ، وقال : « اسمعى .. ينبغى أن تأتى ببعض

النقود من صاحبك لنا .. للعائلة .. ولا بأس بخمسين ، أفاهمة أنت ؟ » . فقالت : « واذا لم أفعل ؟ » . **وأجاب فى تؤدة : « عندئذ سيكون لنا انتقامنا الجميل .. فاننا نعرف كل شىء عنك ! »**.. ثم قال متهكما : « تقولين انك مخطوبة ؟ .. يا لها من أكذوبة كبرى ! »

وعندئذ أشرق محياها فجأة ، وهمست وقد أسدلت أجفانها : « حسنا ، سوف أجىء بها ، فهل هذا كل شىء ؟ .. هل يمكننى الآن أن أذهب ؟ » . فقال : « أنك لفتاة طيبة .. ولكن لماذا العجلة ؟ .. ثم اننا ينبغى أن نزداد تعارفا بعضنا بالبعض .. فما رأيك فى رحلة الى البحيرة ذات يوم ؟ » . ثم استدار الى صديقيه قائلا : « أى لهو اعتدنا أن نتمتع به ! .. انها لا ينبغى أن تظهر بهذا المظهر ، أليس كذلك ؟ »

ولكن مارجوت كانت قد انتصبت واقفة وهى تفرغ كأسها ، فقال أوتو : « صباح الغد ، فى ذات المكان .. وسوف نذهب فنقضى اليوم كله عند البحيرة .. فهل أنت موافقة ؟ » . فأجابت مارجوت بمرح : « موافقة ! » .. ثم صافحتهم جميعا ، وانصرفت .

***

وعادت الى البيت . واذ ألقى « البينوس » صحيفته ونهض ليلقاها ، ترنحت وتظاهرت بأنها توشك أن يغمى عليها .. وكان تمثيلا محضا ، ولكن البينوس خدع به ، فذعر أشد ذعر .. وأراحها على السرير ، وجاء لها ببعض الماء ، وراح يمسح على شعرها وهو يردد : « ماذا جرى ؟ أخبرينى ! » . فقالت مارجوت متأوهة : « لا بد أنك ستتركنى » .

وبهت .. وقفز الى ذهنه ــ على الفور ــ أسوأ افتراض ،

وهو أنها خانته ، فقال لنفسه في التو : «حسنا . . ساقتلها ! »
.. ولكنه قال بصوت مرتفع وفي هدوء تام : « ماذا حدث يا مارجوت ؟ » . فهمست قائلة : « لقد خدعتك ! »

وقال في نفسه : « يجب أن تموت ! » .. بينما واصلت هي كلامها قائلة : « لقد خدعتك بصورة فظيعة يا ألبير .. فأول كل شيء لم يكن أبى فنانا ، وانما كان عاملا يصلح الاقفال . وهو الآن بواب .. وأمي تنظف درجات السلم ، وأخي عامل بسيط .. وقد كانت طفولتي تعسة ، تعسة .. كانوا يجلدونني ويعذبونني ! »

وشعر البينوس براحة لذيذة ، ثم بفيض من الشفقة .. وقالت هي : « كلا ، لا تقبلني .. يجب أن تعرف كل شيء . فقد هربت من البيت ، واشتغلت نموذجا للفنانين ، وقد استغلتني امرأة عجوز بشعة .. **ثم وقعت في حب رجل ، كان متزوجا مثلك ، ولم ترد زوجته أن تطلقه ، فلم أتوان عن تركه ، لأنني لم أحتمل أن أكون عشيقته فحسب ، رغم أنني كنت مجنونة بحبه** .. ثم لاحقني كهل صاحب مصرف ، وعرض على كل ثروته ، ولكنني رفضته طبعا ، فمات كسير القلب .. ثم شغلت تلك الوظيفة في دار السينما » .

وغمغم ألبينوس قائلا : « أوه ، يا ابنتي الصغيرة المسكينة المظلومة ! » .. وكان في الواقع قد كف منذ زمن بعيد عن اعتقاده أنه حبها الاول .

ومضت ، وهي تبتسم خلال دموعها ـ وكان ذلك صعبا ، لأنه لم تكن ثمة دموع تبتسم خلالها ـ قائلة : « ما أشد سروري لانك لا تحتقرني ، ولكن دعني الآن أقل لك أخطر ما في الامر .. فقد عرف أخي أين أعيش .. قابلته اليوم ، وطلب مني نقودا ، وحاول أن يستغلني ، لأنه يعتقد أنك لا تعلم شيئا .. أعني عن ماضي حياتي .. ولذلك فانني حين

رأيته ، أستشعرت العار فى أن يكون لى مثل هذا الاخ ، واذ تذكرت أن حبيبى الجميل الذى يثق بى لا فكرة لديه عن أهلى .. خجلت جداً منهم .. استنكرت من نفسى اننى لم أقل لك الحقيقة كذلك .. »

ولم يدعها ألبينوس تتم كلامها ، وانما أخذها بين ذراعيه ، وراح يهدهدها ويؤرجحها يمينا ويسارا . وكان خليقا أن يغنى لها تلك الاغنيات التى يستدرجون بها النوم الى عيون الأطفال ، لو انه كان يعرف واحدة منها .. وقال لها وهو يضحك ضحكة ناعمة : « ماذا نفعل ؟ لسوف أخاف ان أتركك تخرجين وحدك الآن ، فهل نخطر الشرطة ؟ » . فقالت بتأكيد عجيب : « كلا .. ليس هذا حلا مناسبا ! »

الفصل الحادى عشر

وفى اليوم التالى ، صحبها ألبينوس — لاول مرة — حين خرجت . وقد طلبت كثيراً من الاثواب الجميلة ولوازم السباحة ، وأرطالا من « الكريم » لتعاون الشمس على أن تكسبها اللون البرونزى ، وكان (سولفى) — الشاطىء المطل على البحر الادرياتيكى — هو الذى اختاره ألبينوس لرحلتهما الاولى معا ، اذ كان منتجعا (بلاج) مشمسا يخطف الابصار .. **وبينما كانا يستقلان العربة شاهدت أخاها يقف على الجانب الآخر من الطريق ، ولكنها لم تنبه «البينوس» اليه .**

وكان ظهور البينوس مع مارجوت يملأه بشعور ممض بعدم الارتياح ، اذ أنه لم يستطع — فى الواقع — أن يستسيغ وضعه الجديد .

وعندما عادا — بعد ان ابتاعت مارجوت لوازمها — كان

أوتو قد اختفى ، وكانت هى تعتقد انه شديد الاذى فعلا ، وتتوقع ان يتصرف برعونة وطيش ..

وقبل يومين من رحيلهما ، جلس البينوس فى مقعد غير مريح ، يكتب خطابا يتعلق بأعماله ، بينما راحت مارجوت تضع بعض الاشياء فى الحقيبة الجديدة السوداء الجميلة ، فى الغرفة المجاورة .. وكان يسمع خشخشة الورق الشفاف ، وأغنية خفيفة راحت « تدندن » بها لنفسها فى خفوت ، وفمها مغلق .. فقال في نفسه : « ما أغرب كل هذا .. فلو كان قد قيل لى فى ليلة راس السنة أن حياتى ستتغير هكذا تغيرا تاما فى بضعة أشهر .. »

وهنا أسقطت مارجوت شيئا ما فى الغرفة المجاورة ، فتوقفت عن الدندنة لحظة ، ثم ما لبثت أن استأنفتها . وواصل البينوس كلامه مع نفسه قائلا : « منذ ستة أشهر كنت زوجا مثاليا فى عالم خال من مارجوت .. ولكن سريعا ما دارت عجلة القدر ! .. **غيرى من الرجال يمكنهم الجمع بين الحياة العائلية السعيدة ، وبضع خيانات صغيرة ، أما أنا فسرعان ما تحطم بالنسبة لى كل شىء ..** فلماذا ؟ .. ها أنذا أجلس هنا ، ويخيل لى أننى أفكر فى وضوح وجلاء ، فى حين أن الزلزال فى أوج عنفوانه .. والله يعلم كيف تنتهى الامور .. » .

***

وفجاة ، رن جرس الباب .. وخرج البينوس ، ومارجوت ، والطباخة فى وقت واحد ، من ثلاث غرف مختلفة . وهمست مارجوت قائلة : « كن حذرا جدا يا ألبير ، فاننى متأكدة من أنه هو » . فقال فى همس : « اذهبي الي غرفتك ، وسأعرف كيف أتصرف معه » .

وفتح الباب .. واذا القادم عاملة من متجر القبعات .. بيد أنها لم تكد تنصرف ، حتى رن الجرس مرة أخرى .. ففتح الباب ثانية . ورأى البينوس أمامه شابا ذا وجه ينم عن المشاكسة والفظاظة ، وان حمل بعض الشبه من مارجوت : هاتان العينان السوداوان ، وهذا الشعر الناعم ، وهذا الانف المستقيم ذو الثنية الخفيفة عند الطرف .. وكان يرتدى سترة بدا انه كان يدخرها للمناسبات ، وقد دس نهاية ربطة عنقه بين أزرار قميصه .. واذ سأله البينوس قائلا : « ماذا تريد ؟ » ، سعل وقال بصوت ذى خشونة غريبة : « ينبغى أن أتكلم معك بشأن أختى .. انا شقيق مارجوت ! »

وسأله البينوس : « ولماذا معى أنا بالذات ؟ » .. وكان جوابه أن تساءل : « هل أنت الهر ..؟ » . فقال البينوس « شيفر ميللر » .. وارتاح اذ تبين ان الفتى لم يكن يعرف شخصيته .

وقال أوتو : « حسنا ، ياهر شيفر ميللر ، لقد تصادف أن رأيتك مع أختى .. ولذلك حسبت أنه قد يهمك اننى .. أننا .. » . فقاطعه البينوس قائلا : « بالتأكيد .. ولكن لماذا تقف بالباب ؟ تفضل بالدخول ! »

ودخل الشاب ، وسعل مرة أخرى ، ثم قال : « ان ما أريد قوله هو هذا يا هر شيفر ميللر : أختى صغيرة ، وعديمة الخبرة ، ومنذ أن تركت البيت ، لم تنم أمى ليلة واحدة .. انها لم تتعد السادسة عشرة كما تعلم ، ولا تصدقها اذا قالت لك انها فوق هذه السن .. واسمح لى أن أقول لك أننا قوم محافظون ، وأبى جندى قديم .. فها أنتذا ترى أنه وضع فى غاية السوء ، ولا أدرى أى تعويض يمكن ان .. » .
وكانت ثقة «أوتو» بنفسه قد ازدادت عند هذا الحد ، حتى

لقد بدأ يصدق ما كان يزعمه ، فاسترسل ، وقد ازداد ثورة وهياجا يقول : « لا أريد منك الا أن تتصور ـ يا هر شيفر ميللر ـ أن لك أختا محبوبة بريئة ، اشتراها شخص ما .. »

فقاطعه البينوس قائلا : « اسمع يا صاحبى .. يبدو أن ثمة خطأ .. فقد قالت لى خطيبتى أن عائلتها قد سرت بالتخلص منها ! » . فاختلجت عينا أوتو ، وقال : « أوه ، كلا .. انك لن تقنعنى بأنك ستتزوجها ، فحين يريد رجل أن يتزوج من فتاة محترمة ، يتحدث الى أسرتها فى ذلك .. فأرجو منك أن تكون أكثر مبالاة ، واقل عجرفة ، يا هرشيفر ميللر » .

ونظر البينوس الى أوتو فى فضول ، وقال فى نفسه ان الحيوان الصغير يتكلم كلاما معقولا من وجهة ما . فان من حقه أن يعتبر نفسه مسئولا عن سعادة مارجوت ، كما كان من حق بول أن يرعى سعادة أخته ، وان كان ـ بالتأكيد ـ حديث اليوم هو الهزل فى صورة الجد ، اذا قورن بذلك الحديث القاسى الذى جرى قبل شهرين . واستشعر السرور اذ أدرك أن بوسعه الآن ـ على الاقل ـ أن يقف موقفا أفضل أمام هذا الفتى ، سواء أكان أخا أو غير أخ ، اذ كان يعرف انه نصاب أفاق .. ومن ثم فقد قال له فى حدة وفى برود شديد : « خير لك أن تسكت ، فأنا أعرف بالضبط حقيقة الامور .. وليس هذا من شأنك ، فاذهب الآن من فضلك ! »

فسكت ، وراح يدير قبعته فى يده محملقا فى الارض .. ثم ما لبث أن جرب وترا آخر ، فقال : « قد تضطر لأن تدفع ثمن ذلك غاليا قبل أن تفطن يا هر شيفر ميللر ، فان اختى الصغيرة ليست كما تظن تماما .. لقد وصفتها لك بأنها

بريئة ولكن هـذا لم يـكن الا من قبيل العطف الاخوى .. فيا لك من رجل يسهل أن يقاد من أنفه يا هر شيفر ميللر ! .. يا له من شيء مضحك أن أسمعك تدعوها خطيبتك ، فهذا يحملنى على أن أقهقه. . والآن هل يمكننى ان أقول لك شيئا أو شيئين ؟ » .. فأجاب البينوس محتدا : « لا لزوم ، فقد قالت لى هى كل شيء بنفسها ، وأنها لطفلة سيئة الحظ ، تخلى أهلها عن حمايتها .. فاذهب من فضلك فى الحال ! »

وقام وفتح الباب . فقال أوتو بغلظة : « سوف تندم على هذا » . فأجابه قائلا : «اذهب والا طردتك طردا» . ووضع بذلك اللمسة الاخيرة الرائعة فى لوحة النصر ، فقد انسحب « أوتو » ببطء .. واذ كان موهوبا بذلك النوع من الحماس السطحى جدا لجماعته البورجوازية ، فقد راح « البينوس » يصور لنفسه مقدار البؤس والقبح اللذين لا بد أن تكون عليهما حياة هذا الفتى .. وخيل اليه أنه يشبه«مارجوت» حين تعبس وتتجهم ، فأخرج فى خفة ـ قبل أن يغلق الباب ـ ورقة من ذات العشرة ماركات ودسها فى يد أوتو ، ثم أغلق الباب .

وفتح أوتو يده وهو على السلم ونظر الى الورقة . ثم وقف يفكر هنيهة ، وما لبث أن عاد ورن الجرس ، فقال البينوس : « ماذا ؟ .. هل عاد مرة أخرى ؟ » .. ووجد « أوتو » يمد يده بالنقود ، قائلا وهو يزمجر فى غضب : « **لا أريد عطيتك ، والافضل أن تهبها للمتطفلين .. فسوف تجد الكثيرين منهم فى كل مكان** » . فقال البينوس ، وقد شعر بارتباك بالغ . « ولكن .. **خذها من فضلك !** »

وهز أوتو كتفيه قائلا : « لست أقبل الفتات المتساقط من موائد الاغنياء المتخمين .. ان للرجل الفقير كبرياءه ،

وانني .. » . فغمغم البينوس : « حسنا .. انما كنت أعنى فقط .. »

ولم يجد أوتو بدا من أن يستبقى الورقة ــ وهو يدمدم ــ وتحول فنزل السلم ، وقد أرضى الشرف الاجتماعى ، وصار من حقه أن يرضى الحاجات الانسانية .. وقال فى نفسه : « انه ليس بمبلغ كبير ، ولكنه أفضل من لا شىء ، على أى حال .. لقد كان خائفا منى ، ذلك المجنون المتلعثم ، ذو العينين الجاحظتين ! »

الفصل الثانى عشر

منذ اللحظة التى قرأت فيها « اليزابيث » خطاب « مارجوت » القصير ، تحولت حياتها الى مثل تلك الرؤى الفظيعة المروعة التى يراها الانسان فى أحلامه وهو فى عنفوان الحمى .. **وكانت تشعر أول الامر كأنما زوجها قد مات ، وان الناس انما يحاولون أن يخدعوها وأن يوحوا اليها أنه هجرها** .. وراحت تذكر كيف أنها ــ فى ذلك المساء الذى أصبح يبدو لها بعيدا جدا ــ قد طبعت قبلة على جبينه قبل أن يذهب ، فقال لها : « الافضل أن تذهبى ــ على أية حال ــ الى لامبرت ، فليس ينبغى أن تظل تحك جلدها هكذا ! .. »

كانت تلك هى كلماته الاخيرة فى هذه الحياة ! .. كلمات بسيطة ، عائلية ، تتعلق بطفح جلدى خفيف أنتشر على عنق ايرما ، ثم .. ذهب الى الابد ! .. ولقد قضى مرهم الزنك على هذا الطفح فى أيام قليلة ، ولكن .. **لم يكن ثمة مرهم فى الدنيا يمكنه أن يشفيها هى من ذكرى جبينه الكبير الناصع**

البياض ، والطريقة التي ربت بها على جيوبه وهو خارج من الغرفة !

ولقد بكت فى الايام الاولى ، حتى انها ــ هى ذاتها ــ تولتها الدهشة من قدرة عينيها على ذرف الدموع .. فهل يدرى العلماء كم من الماء المالح يمكن أن يفيض من عينى الانسان ؟ .. أن ذلك ليذكرها بما اعتادوه ــ ذات صيف ــ على الشاطىء الايطالى ، اذ كانوا يغسلون جسد الطفلة فى دلو مملوء بماء البحر .. وانها لقمينة بأن تملأ دلوا أكبر من هذا بسبيل دموعها ، وأن تغرق فيه ماردا جبارا !

وقد كان يبدو لها هجره ايرما ــ بصورة ما ــ أكثر فظاعة من هجره اياها ، وهى زوجته .. أتراه سيعمل على رقة ابنته ؟ .. فهل من الاحكم اذن أن ترسلها الى الريف وحدها مع مربيتها ؟ .. لقد قال لها بول ان هذا أحكم ، وأغراها بأن تذهب معها كذلك . ولكنها لم تفعل .. فقد كانت تشعر بأنها لن تستطيع أن تصفح عن زوجها .. لا لأنه أهانها بما فعل ــ فقد كانت كبرياؤها أعظم من ان تفكر على هذا النحو ــ وانما لأنه أهان نفسه وحقرها .. ومع ذلك فقد ظلت تنتظر ، وهى تأمل يوما ــ بعد آخر ــ أن يفتح الباب كهزيم الرعد فى ظلمة الليل ، وأن يدخل زوجها شاحب الوجه ، كأنه « لعازر » خارجا من القبر ، وعيناه الزرقاوان متورمتان دامعتان ، وثيابه ممزقة مهلهلة ، وذراعاه مبسوطتان !

وكانت تجلس معظم النهار فى احدى الغرف أو فى الردهة ــ أو فى أى مكان تقودها اليه غمامة افكارها السوداء ــ وتروح تتمعن فى هذه أو تلك من صور حياتها الزوجية الذاهبة .. وكم خيل اليها أنه كان ــ على الدوام ــ غير مخلص ، وقد تذكرت الآن وفهمت ؛ كما يفعل الشخص

الذى يعرف لغة أجنبية حين يتذكر كتابا اشتراه ذات مرة بهذه اللغة قبل أن يتعلمها .. **تذكرت تلك البقع الحمراء – رمز القبلات القرمزية – التى رأتها ذات مرة لاصقة بمنديل زوجها !**

وفعل بول كل ما فى وسعه ليصرفها عن أفكارها ، فلم يشر قط الى زوجها .. وعدل من أجلها عن بعض عاداته المحبوبة ، كقضاء صباح الاحد فى الحمامات التركية ! .. وكان يأتيها على الدوام بالمجلات والروايات ، ويروح يكلمها عن طفولتهما ، وعن أبويهما اللذين ماتا من زمن طويل ، وذلك الشقيق ذى الشعر الاشقر الذى قتل فى (السوم) .. ذلك الموسيقى الحالم .

وذات يوم من أيام الصيف القائظة ، ذهبا يتنزهون فى احدى الحدائق ، وراحوا يرقبون قردا صغيرا ، هرب من صاحبه وتسلق شجرة دردار عالية .. وكان وجهه الصغير الاسود – فى قمة كتلة من الزغب الرمادى – يلوح بين الاوراق الخضراء . ثم ما لبث أن قفز الى غصن أعلى ، فتمايل الغصن وخشخشت أوراقه .. وعبثا حاول صاحب القرد أن يغريه بالنزول ، وهو يصفر له بصوت رخيم ، ويلوح له بأصبع كبيرة من الموز الاصفر ، ويرسل اليه بريقا من مرآة فى يده .

وعندئذ تمتمت اليزابيث قائلة : « انه لن يعود .. لا فائدة .. انه لن يعود أبدا ! » .. ثم انفجرت باكية .

الفصل الثالث عشر

لا شىء غير الزرقة العميقة ، كان يحيط بمارجوت وهى مستلقية على الرمال البلاتينية ، وجسمها مشرب

بالحمرة العسلية ، وحزام رفيع من المطاط الابيض يخفف من سواد لباس البحر الذى ترتديه ، وكأنها لوحة رائعة على شاطىء البحر .. وبجانبها رقد « البينوس » وقد بدت عليه الغبطة التى لا نهاية لها ، والافتتان بأجفانها المسدلة - وعليها مثل لمعة الزيت - وفمها المخضب لتوه بالدهان الاحمر ، وشعرها الفاحم المبلل وقد تهدل فوق جبينها المستدير ، بينما تلألأت حبات رمل فى أذنيها الصغيرتين .. حتى اذا تأملتها العين من قرب ، بدا لها نور ينبعث بألوان قوس قزح من ذراعيها الورديتى البياض .. وكان ذلك الشىء الاسود الذى فى حجم بصمة الاصبع ، واللاصق ببدنها - لباس السباحة - صغيرا جداً ، حتى كأنها لم تكن تلبس شيئا ..

وتناول البينوس حفنة من الرمل المبلل ، وجعلها تتسرب من قبضته - كأنها ساعة رملية - فوق بطنها الملساء .. **ففتحت عينيها وحدقت هنيهة فى الوهج الازرق الفضى ، وابتسمت .. ثم أغمضت عينيها مرة أخرى** .. وما لبثت أن جلست منتصبة ، وطوت ذراعيها حول ركبتيها ، وظلت هكذا بلا حراك .. وأصبح بوسع البينوس أن يرى ظهرها عاريا حتى الخصر ، وحبات الرمل تلمع فوقه ، فأزالها بلطف، واذا لحمها حريرى حار .. وما لبثت مارجوت ان صاحت قائلة : « يا للسماء ! .. يا لزرقة البحر اليوم ! »

كان البحر أزرق حقا ، أزرق أرجوانيا من بعيد ، وازرق ياقوتيا من قريب ، وأزرق ماسيا حيث يمتزج الضوء بالموج .. وكان الزبد يقفز ثم يجرى ، ثم لا يلبث أن يبطىء ، ثم يرتد تاركا خلفه مرآة صقيلة على الرمل الرطب ، الذى لا تلبث الموجة التالية ان تغمره مرة اخرى .. وكان ثمة رجل كثيف الشعر - فى رداء برتقالى - يقف على حافة الماء

وهو يمسح نظارته .. وطفل صغير يتصايح فى مرح ، وقد تدفق الزبد فى المدينة ذات الجدران التى بناها من الرمال .. وكانت المظلات الزاهية الالوان ، والخيام المخططة ، تحكى بلغة الالوان ما كانت تحكيه صيحات المستحمين للآذان .. **وأقبلت كرة كبيرة زاهية اللون - من مكان ما - تطفر فوق الرمال صاخبة فأمسكتها مارجوت .. وقفزت بها ، ثم ردتها مرة أخرى .**

ورآها البينوس فى أطار الشاطىء المرح ، بيد أنه كان ذاهلا عن الشاطىء ، وقد ركز كل وعيه فى « مارجوت » ، التى بدت له - بعودها الاهيف ، وبشرتها التى لوحتها الشمس ، ورأسها الفاحم الشعر ، والسوار يلمع فى أحد ذراعيها - كأنها كلمة مكتوبة بالالوان الرائعة على رأس الفصل الاول من حياته الجديدة ..

واقتربت منه وهو يرقد متمددا ، وعلى كتفيه القرنفليتين المسلختين منشفة ، فراح يتأمل حركة قدميها الصغيرتين .. ومالت عليه بضحكة « برلينية ! » ، ولطمته لطمة شديدة على بطنه المنتفخ تحت لباس البحر .. ثم انطلقت صائحة فى قلب الموج ، وراحت تهز ردفيها وتطوح ذراعيها ، وهى تخوض الماء الذى بلغ ركبتيها .. ثم القت بنفسها محاولة أن تسبح - وهى تزحف وتبقبق - حتى غاصت الى خصرها فى الزبد.. **واندفع البينوس وراءها والماء يتطاير من حوله ، فاستدارت اليه ، وهى تضحك ، وتنحى الشعر المبلل عن عينيها ، والرذاذ ينتثر عند قدميها ..** فراح يحاول أن يدفعها تحت الماء ، وقد أمسكها من رسغها ، وهى تضرب بقدميها وتصرخ .. وكانت امرأة انجليزية تتأرجح فى مقعد من مقاعد الشاطىء تحت مظلة بنفسجية ، وهى تقرأ مجلة « بانش » ، فاستدارت الى زوجها - وهو رجل احمر

الوجه ، يضع على رأسه قبعة بيضاء وقدجلس على الرمل ـ وقالت له : « أنظر الى ذلك الالمانى الذى يمرح مع ابنته .. فلا تكن بليداً يا وليم ، وخذ الاولاد ليسبحوا ويرتعوا ! »

الفصل الرابع عشر

وبعد هنيهة ، ذهبا ـ فى لباس الحمام المزركش ـ يمشيان فى طريق صخرى تغطى الحشائش والاعشاب نصفه ، الى « فيللا » صغيرة فاخرة تتيه بلونها الناصع البياض ، كأنها قطعة السكر بين أشجار السرو الظليلة ..

وكان ثمة جعران كبير بديع الشكل يدرج فوق الحصباء ، فحاولت مارجوت أن تمسكه ، وانثنت ومدت أصابعها فى حذر ، ولكنه ـ بأطرافه الحادة ـ لم يلبث أن قفز فجأة ، ناشراً جناحيه الازرقين الشبيهين بالمروحة ، ثم اختفى سريعاً كما ظهر .

وفى الحجرة الرطبة ذات الارضية المرصوفة بالقرميد الاحمر ـ والضوء يتخلل خشب الشبابيك ويتراقص فى العين ، ويستلقى فى خطوط متألقة عند القدم ـ وقفت مارجوت ونضت عنها لباسها الاسود ، كالثعبان حين يخلع جلده .. ولم يعد على بدنها سوى جورب طويل . وراحت تجىء وتذهب فى الحجرة ، محدثة جلبة ، وهى تقضم خوخة فى يدها ، وأشرطة من أشعة الشمس تروح وتجىء على جسمها .

وفى الامسيات ، كان الرقص يدور فى « الكازينو » وكان البحر يبدو أكثر شحوبا من سماء الليل ، واضواء سفينة عابرة تتلألأ فى منظر بهيج ، وفراشة طائشة ترفرف

حول مصباح وردى الظلال .. وكان البينوس يراقص مارجوت ، ورأسها البديع التنسيق لا يكاد يبلغ كتفه .

وكانا بعد وصولهما بقليل ، قد اكتسبا معارف كثيرين .. **وكان البينوس يشعر بالغيرة تأكل قلبه وتستذله ، حين كان يرى مارجوت تلتصق جدا بأى شخص غيره يراقصها ، لا سيما وقد كان يعلم أنها لم تكن ترتدى شيئا تحت ثوبها الرقيق ..** وكانت ساقاها قد اكتسبتا لونا ورديا رائعا ، ومن ثم لم تكن تلبس أى جورب ..

وكانت تختفى عن نظره أحيانا ، فيروح ويغدو قلقا مضطربا ، وهو ينفض سيجارته . وقد يلج غرفة يلعب فيها بعضهم الورق ، ثم يخرج الى الشرفة ، ثم يعود ثانية ، وقد توطد اقتناعه - وهو يشعر بالضيق الخانق - بأنها تخونه .. بيد أنها كانت تظهر فجأة ، وتجلس بجانبه فى ثوبها الجميل البراق ، وتحتسى جرعة كبيرة من النبيذ .. ولم يكن يبوح لها - اذ ذاك - بشكوكه وهواجسه ، وانما كان يدفع ركبتيها العاريتين تحت المائدة فترتطمان و[illegible] تستلقى الى الخلف فى مقعدها ضاحكة ضحكة هستيرية ، وهى تروى له شيئا - كان يعتقد أنه ليس مضحكا جدا - قاله لها رفيقها الاخير فى الرقص .

والحق ان مارجوت كانت تبذل كل ما فى وسعها لتظل مخلصة كل الاخلاص له .. **وان كانت - رغم رقة غزله - تعلم على الدوام أنه من جانبها حب ينقصه شىء ما ، بينما كانت تستشعر فى أقل لمسة من عشيقها الاول ، كل اللذة العارمة التى تتوق اليها ..** الا أنه حدث لسوء الحظ أن شابا نمساويا - كان أبرع راقص فى (سولفى) ، وأبدع لاعب للبنج بونج - أوتى شبها بذلك العشيق ، وكان ثمة

شىء ما فى أصابعه القوية ، وعينيه الصارمتين الساخرتين يذكرها بأشياء كانت تفضل أن تنساها .. وذات ليلة حارة اتفق أنها بين رقصتين انساقت معه الى ركن مظلم فى حديقة الكازينو ، وكان عبير شجرة تين يعبق الجو ، وقد رفرف على المكان ذلك المزيج الساحر من ضوء القمر وأنغام الموسيقى البعيدة ، التى تفعل فعلها فى النفوس .. وعندئذ شعرت بشفتيه تدغدغان عنقها وخدها ، ويديه البارعتين تتلمسان طريقهما الى ساقيها ، فغمغمت قائلة فى همس : « كلا .. كلا .. ينبغى ألا تفعل ذلك ! » .. وألقت برأسها الى الخلف ، **ثم قبلته هى بدورها فى نشوة وتلذذ ، فضمها ضما شديدا حتى لقد شعرت بما بقى لها من قوة قليلة ينهار ويتهاوى ..** الا أنها ما لبثت أن افلتت منه واندفعت الى الشرفة ذات الضوء الساطع .

ولم يتكرر هذا المنظر بعد ذلك أبدا .. فقد أحبت « مارجوت » أشد الحب تلك الحياة التى كان يمكن لألبينوس أن يمنحها اياها .. تلك الحياة التى تسطع فيها أضواء فيلم من أفلام الدرجة الاولى ذات الورود المرتجفة وأشجار النخيل المتمايلة - لان دنيا الافلام دائما تهب عليها الرياح - وكانت تخاف أن ترى كل شىء وقد اختطف منها اختطافا ، فلم تجرؤ مرة واحدة على أن تجازف أية مجازفة ، **بل انها بالتأكيد فقدت وقتا ما صفتها الغالبة ، وهى الثقة بالنفس .. وأن كانت هذه الثقة قد عاودتها بمجرد أن عادا فى الخريف الى برلين ..** فما أن ألقت نظرة على غرفة الفندق الفاخر الذى أقاما به حتى قالت فى جفاء: « بالتأكيد انها لجميلة جدا ، ولكننى أرجو أن تفهم يا ألبي اننا لن نستمر هكذا الى الابد ! » .. فسارع ألبينوس -

الذى كان يرتدى سترة السهرة ـ يؤكد لها انه يتخذ الترتيبات بالفعل لاستئجار مسكن جديد .. فقالت فى نفسهافى حنق شديد : «ايعتقدنى بلهاء ؟» ، ثم رفعت صوتها قائلة : «أرى انك لا تفهم ياألبير» .. ثم ندت عنها آهةعميقة، وغطت وجهها بيديها قائلة ، وهى تراقبه خلال أصابعها : « أنت تخجل منى ! »

وحاول أن يطوقها بذراعيه فى مرح ، ولكنها صاحت ، وهى تدفعه دفعة موجعة بمرفقها : « لاتلمسنى ! .. اننى أعلم جيدا أنك تخاف أن يرانى أحد معك فى الطريق .. فاذا كنت تخجل منى ، ففى وسعك أن تتركنى وتذهب الى زوجتك .. انك حر تماما ! » .. فتوسل فى عجز قائلا : « لا تقولى ذلك يا حبيبتى ! » .. وألقت بنفسها على الاريكة ، وتصنعت أنها تنفجر باكية ، فرفع ركبتى سراويله، وركع أمامها ، وراح يحاول أن يمس كتفها وهى تدفعه به فى كل مرة تقترب منها أصابعه .

وسألها فى رقة قائلا : « ما الذى تريدينه ؟.. ما الذى تريدينه يا مارجوت ؟ »

وقالت فى نشيج : « أريد أن أعيش معك علانية .. فى بيتك الخاص .. وان أرى الناس ! » . فقال وهوينتصب وينفض ركبتيه : « حسنا جدا .. لك ما تريدين » .

وقالت مارجوت فى نفسها ، وهى تبكى بكاء جميلا : « وفى بحر سنة ستتزوجنى .. ما لم أكن ـ عندئذ ـ فى هوليود .. ففى هذه الحالة يمكنك أن تذهب الى الشيطان ! » . وقال لها البينوس : « ان لم تتوقفى عن البكاء .. فسوف أبكى أنا الآخر ! »

فاعتدلت مارجوت ، وابتسمت خلال دموعها .. ولم

تكن الدموع تزيدها الا فتنة وجمالا .. وكان وجهها مستعرا ، وعيناها تبرقان ، ودمعة كبيرة تتراقص على جانب انفها .. ولم يكن ألبينوس قد رأى - من قبل - دموعا بهذا الحجم ، ولا بهذا التألق .

الفصل الخامس عشر

وكما عود ألبينوس نفسه على ألا يتحدث معها أبدا عن الفن - الذى لم تكن تفهم فيه شيئا ، ولا كان يعنيها منه شيء - فقد بات عليه أن يتعلم أن يخفى عنها الآلام التى كان يعانيها ، خلال الايام الاولى من حياتهما معا فى المسكن القديم ، الذى قضى فيه عشر سنوات مع اليزابيث .. **كان كل ما يحيط به يذكره بزوجته ، لاسيما هداياه اليها وهداياها اليه .. وكان يقرأ فى عينى فريدا اشمئزازا مهينا** . وقبل أن ينقضى أسبوع ، غادرت البيت بعد أن استمعت بازدراء الى تعنيف قارس للمرة الثانية أو الثالثة من مارجوت !

وكأنما كانت غرفة المائدة وغرفة الاطفال تنظران الى ألبينوس نظرة عتاب مؤلم برىء !.. وكان الامر أكثر مضضا بالنسبة لغرفة النوم .. لان مارجوت نقلت اليها كل شيء من غرفة الاطفال التى خصصتها للبنج بونج .. وخيل لالبينوس فى الليلة الاولى - فى غرفة النوم - أنه يشم الرائحة الخفيفة للكولونيا التى كانت تستعملها زوجته ، وقد أضناه ذلك وبلبله ، حتى لقد ضحكت مارجوت من تحفظه المفاجىء !

وكانت مكالمة التليفون الاولى عذابا له .. فقد سأله صديق قديم عما اذا كانوا قد قضوا وقتا طيبا فى ايطاليا ،

وسأل عن صحة اليزابيث ، وعما اذا كان يمكن أن تذهب مع زوجته الى حفلة موسيقية فى صباح الاحد .. فبذل ألبينوس جهدا كى يقول : « الواقع أننا نعيش منفصلين فى الوقت الحاضر » . فقالت مارجوت فى نفسها ساخرة : « فى الوقت الحاضر ! » .. وكانت تستدير أمام المرآة لترى ظهرها الذى تحول من اللون الوردى الى اللون الذهبى .

وسرعان ما انتشرت أخبار التغيير الذى طرأ على حياته .. بيد أنه كان يرجو ألا يعرف أحد أن عشيقته تعيش معه ، فكان يحتاط لذلك - حين راحا يقيمان الحفلات - بأن تخرج مارجوت فى النهاية مع المدعوين الآخرين ، ثم تعود بعد عشر دقائق !

وكان يشعر بقلق مقبض وهو يلحظ كيف توقف الناس بالتدريج عن السؤال عن زوجته ، وكيف انقطع بعضهم عن زيارته ، وكيف لم يبق منهم غير نفر قليل - وهم الذين اعتادوا الاقتراض منه - ظلوا يبدون له ودا واخلاصا ، فى حين حاولت الجماعة البوهيمية من أصدقائه أن تبدو وكأنما لم يحدث شىء .. وأخيرا كان ثمة بعض أصدقاء - أغلبهم من زملاء المدرسة - يبدون استعدادا لزيارته كشأنهم من قبل ، ولكنهم لم يكونوا أبدا يجيئون بزوجاتهم معهم .. ويبدو أن هاتيك الزوجات قد أصبن جميعا بالصداع فى وقت واحد !!

بيد أنه اعتاد بالتدريج وجود مارجوت فى تلك الحجرات التى كانت يوما ما مليئة بالذكريات .. وهى لم تفعل الا أنها غيرت من وضع بعض الاشياء الصغيرة ، ومن ثم فسرعان ما فقدت هذه الاشياء روحها ، وتلاشت الذكرى المحيطة بها .. ومع الوقت أصبح كل شىء فى البيت فى غير

موضعه . ومن ثم ففى شهرين اثنين ماتت حياته الماضية فى هذه الحجرات الاثنتى عشرة موتا تاما .. اذ لم تعد تمت بأية صـلة الى تلك الحجرات الرائعة الجمال التى عاش فيها مع زوجته .

***

وفى الهزيع الاخير من ذات ليلة ، كان يدلك بالصـابون ظهر مارجوت ـ بعد حفلة راقصة ، وهى تتلذذ بالوقوف فى الحمام الممتلىء فوق أسفنجتهـا الضخمة ، والفقـاقيع تتصاعد من حولها ، كأنها فى كأس شمبانيا ـ اذا بها تسأله فجأة عما اذا لم يكن يرى أن فى امكانها أن تغـدو نجمة سينمائية .. فضحك ، بينما كان انتبـاهه كله مركزا فى أشياء أخرى جميلة ، وقال : « طبعا .. لم لا ؟ »

وبعد أيام قلائل عادت الى الموضوع ، وقد اختارت لذلك ـ فى هذه المرة ـ لحظة كان ألبينوس فيها أكثر انتباها .. وسره اهتمامها بالسينما ، وبدأ يشرح لها نظريته العزيزة عن مزايا السينما الصامتة بالنسـبة للسينما النـاطقة ، قائلا : « ان الصـوت سـيقتل السينما على الفور ! » .

فقاطعته قائلة : « كيف يصورون فيلما لك ؟ »

وعرض عليها أن يأخذها الى الاستديو ، حيث يمكن أن يريها كل شىء ويشرح لها العمل بالتفصيل .. وسـارت الامور بعد ذلك بسرعة عظيمة ، بيد أن ألبينوس لم يلبث أن قال لنفسه ذات صباح : « رويدك ، ماذا أنت فاعل ! » .

وكان فى الليلة الماضية قـد وعد بتمويل فيلم أراد مخرج متوسط أن يتولاه ، بشرط أن يعطى مارجوت الدور النسائى الثانى ، وهو دور الحبيبة المهجورة ..

وراح يحدث نفسه قائلا : « انه لغباء منى .. فلسوف

يكون المكان ممتلئا بالممثلين الشبان الذين يفيضون جاذبية .. وسأجعل من نفسي أضحوكة لو أنني صحبتها في كل مكان » .. بيد أنه عاد يواسي نفسه قائلا : « انها لتحتاج الى شيء يشغلها وتجد فيه مسرتها .. حتى اذا انتهت من عملها في وقت مبكر ، سنقضي كل ليلة في نوادي الرقص » .

وتم توقيع العقد ، وبدأت التمرينات . . ولقد عادت في اليومين الاولين غاضبة جدا ، ومستاءة جدا ، لانهم أجبروها على أن تكرر ذات الحركة مئات المرات المتوالية ، ولان المخرج صرخ فيها ، والمصابيح أعمتها .. ولم يكن يعزيها الا شيء واحد ، وهو أن الممثلة الشهيرة جدا – وهي السيدة الاولى « دوريانا كارنينا » – أبدت غاية التلطف معها ، وأطرت تمثيلها ، وتنبأت لها بأنها ستفعل الاعاجيب !.. وهنا قال البينوس في نفسه : « هذه علامة سيئة ! »

وأصرت مارجوت على ألا يحضر ألبينوس أثناء العمل ، قائلة ان ذلك يجعلها شديدة الاحساس بنفسها ، فضلا عن أنه لن يجد في الفيلم مفاجأة ، اذا هو رأى كل شيء مقدما ، وهي تحب أن تفاجيء الناس .. بيد أنه كان يجد متعة كبيرة في أن يختلس ومضات من مواقفها الدرامية أمام العدسة .. الا أن الحاجز الذى كان يقف خلفه فضحه ذات مرة – بصوت الصريف الذى صدر عنه – فرمته مارجوت بوسادة حمراء ، وهو يقسم لها أنه لم ير شيئا .

***

واعتاد أن يأخذها الى « الاستديو » في سيارة ، ثم يعود بها بعد ذلك الى البيت .. وقد قيل له ذات يوم أن التمرين

سيتأخر ساعتين ، فراح يتمشى فى الطرقات . وقادته قدماه — دون أن يدرى — الى الحى الذى يقطنه بول .. وعندئذ شعر فجأة برغبة عارمة فى أن يرى ابنته الصغيرة الشاحبة .. وكان ذلك فى حوالى الوقت الذى ترجع فيه عادة من المدرسة ، حتى اذا تحول عند المنحنى ، خيل اليه أنه رآها على البعد مع مربيتها ، ولكنه شعر فجأة بالذعر وابتعد مسرعا !

وفى ذلك اليوم بالذات ، خرجت اليه مارجوت متوردة الخدين ضاحكة : فقد مثلت تمثيلا رائعا ، ولن يلبث تصوير الفيلم أن ينتهى . فقال لها ألبينوس : « سأقول لك شيئا .. اننى سأدعو « دوريانا » للعشاء ، وستكون الوليمة كبيرة أدعو اليها بعض الشخصيات الهامة .. وقد اتصل بى بالأمس تليفونيا فنان شهير فى الرسم الكاريكاتورى — وهو يرسم رسوما هزلية كما تعلمين — وقد عاد أخيرا من نيويورك ، وهو نابغة فى فنه ، وسأدعوه كذلك ! »

فقالت مارجوت : « كل ما أريده أن أجلس بجانبك » ، وبادر مجيبا : « حسنا .. ولكن تذكرى يا حبيبتى أننى لا أريدهم جميعا أن يعلموا انك تعيشين معى ! » .. فقالت مارجوت ، وقد اكفهر وجهها فجأة : « أوه ، انهم جميعا يعرفون ذلك ، أيها المغفل ! »

فقال : « ولكن هذا يضعك أنت — لا انا — فى موقف حرج .. يجب أن تتأكدى من ذلك .. أن هذا لا يهمنى طبعا ، ولكننى أرجوك — من أجل خاطرك أنت — أن تفعلى كما فعلت فى المرة السابقة » . فقالت : « ولكن هذه حماقة .. وفضلا عن ذلك ، فهنالك طريقة يمكننا بها أن نتجنب هذه المضايقات » . فسألها قائلا : «كيف نتجنبها ؟»

وعضت شفتيها قائلة : « ماحيلتى اذا كنت لاتفهم !» ..

وقالت فى نفسها : « متى يبدأ يتكلم عن الطلاق ؟ »

فقال لها ألبينوس متوسلا : « كونى معقولة .. اننى لأفعل كل ما تطلبينه ، وأنت تعلمين ذلك حق العلم يابوسى ! » .. وكان غرامه باسماء التدليل قد ازداد تدريجا !

الفصل السادس عشر

كان كل شىء كما ينبغى ، وقد أعدت على طبق من المعدن — فى البهو — بطاقات كتبت عليها أسماء المدعوين — اثنين اثنين — فى تنسيق ينم عن ذكاء ، حتى يعلم كل مدعو على الفور زميلته فى المأدبة : فالدكتور لامبرت يزامل « سونيا هيرش » ، وأكسيل ريكس يرافق « مارجوت بيترز» ، وبوريس فون ايفانوف يصاحب«أولجا والدهيم»، وهكذا .. وتولى ارشاد الضيوف الى مقاعدهم — فى وقار — خادم مهيب الطلعة ، له وجه « لورد » انجليزى .. أو هكذا — على أى حال — كانت تظن مارجوت ، وقد اعتادت عيناها أن تتريثا عليه لحظة ، فى غير قسوة ..

وأخذ جرس الباب يدوى كل بضع دقائق .. واكتمل بالفعل عقد خمسة ضيوف غير مارجوت فى غرفة الاستقبال : فثمة « ايفانوف » — أو فون ايفانوف ، كما كان يعتقد أن على الناس أن ينادوه — وكان مستلقيا ، بأسنانه الرديئة ونظارته .. يتلوه « بوم » — وهو مؤلف بدين أحمر الوجه ، كثير الثرثرة ، ذو ميول اشتراكية متطرفة ، ودخل محترم — وقد اصطحب زوجته ، وكانت امرأة عجوزا ، بيد أنها احتفظت بمظهر فخم .. **وكانت فى شبابها المضطرب ، قد سبحت فى حوض زجاجى مغلق !**

وحمى وطيس الحديث .. وكان بين الحاضرين « أولجا والدهيم » ، وهى مغنية بضة الذراعين ، ممتلئة الصدر ، ذات شعر متموج بلون مربى البرتقال ، وصوت بديع النبرات . وكانت تقص – كشأنها دائما – قصصا بديعة عن قططها الفارسية الست .. وبينما كان ألبينوس يقف ضاحكا ، نظر من خلال الشعر الابيض الذى يكسو رأس « لامبرت » – وهو اخصائى بارع فى الحنجرة ، وعازف كمان مرح – وراح يتأمل « مارجوت » ، ويقول فى نفسه أن ثوبها الاسود الهفهاف – المحلى فوق الصدر بزهر « الداليا » المخملى – يبدو رائعا عليها .. ياللتلك الحبيبة الغالية ! وكانت على شفتيها المتألقتين بسمة خفيفة ، كأنها تفصح عما يختلج فى صدرها من عدم الثقة بنفسها وسط أولئك القوم ، وفى عينيها ذلك التعبير الذى يجول فى عينى المها ، والذى معناه – كما كان يعلم – أنها تنصت الى أشياء لا تفهمها : وكان الحديث عندئذ يدور حول موسيقى « هيندميث » .

وفجأة لاحظ أن وجهها قد تدرج بالحمرة الشديدة ، وقد انتصبت فجأة على قدميها ، فقال فى نفسه : «ما أحمقها ، لماذا تقف ؟ » .. وكان قد دخل – فى هذه اللحظة – عدد آخر من الضيوف ، هم : دوريانا كارنينا ، وآكسيل ريكس ، وشاعران من صغار الشعراء .. وتقدمت دوريانا الى مارجوت وقبلتها وهى تطوقها ، فى حين كانت عينا هذه تبرقان بوميض عجيب ، فقال ألبينوس مرة أخرى فى نفسه : « ما أحمقها ، اذ تبدى الاستكانة هكذا أمام تلك الممثلة من الدرجة الثانية ! » .. وكانت دوريانا مشهورة بكتفيها

الرائعتين ، وبسمتها التى تشبه بسمة « مونا ليزا » ، وصوتها الاجش الرنان .

وتقدم ألبينوس من ريكس - الذى لم يكن يعلم من هو مضيفه - فراح يفرك يديه كما لو كان يغسلهما بالصابون ، وقال له : « يسرنى ان أراك أخيرا .. بيد أننى كنت أتصورك فى مخيلتى بصورة مختلفة كل الاختلاف .. كنت أتصورك قصيرا ، بدينا ، ذا نظارة سميكة الاطار .. وان كان اسمك يذكرنى دائما بالفأس (١) .. سيداتى وسادتى .. هذا هو الرجل الذى يجعل قارتين تضحكان ، فلنأمل أن يكون فى عودته الى المانيا كل الخير ! » .. وأخذ ريكس ينحنى انحناءات صغيرة وعيناه تبرقان ، وهو يفرك يديه طيلة الوقت .. وكان يرتدى حلة رائعة ، فى دنيا تسودها ثياب السهرة الالمانية القبيحة التفصيل !

وقال له ألبينوس : « تفضل بالجلوس ! » . بينما سألته دوريانا بصوتها العميق البديع : « ألم أقابل أختك ذات مرة ؟ » . **فأجاب فى وقار : « أختى فى السماء! » . واذ ذاك قالت دوريانا : « أوه .. اننى آسفة » . فأضاف قائلا : « انها لم تولد أبدا ! »**

وجلس على مقعد بجانب مارجوت - التى اتجهت اليها عينا ألبينوس - وهو يضحك مسرورا ، بينما راحت مارجوت تميل ناحية جارتها سونيا هيرش - ذات الوجه الوضىء الذى يشبه وجه طفل ، وكتفيها المنحنيتين بعض الشىء - وهى تتكلم بسرعة غريبة ، وعيناها مخضلتان ، وجفناها

---

(١) كلمة « آكسيل » بالالمانية - وهى الاسم الاول للفنان - تقابل كلمة الفأس فى اللغة العربية

يختلجان .. **وراح البينوس ينظر الى أذنها الصغيرة المحمرة ، والى عرق نافر فى عنقها ، والى الظل الخفيف بين نهديها ..** وهى تسكب فى سرعة محمومة بسيل من الهراء المحض ، وقد وضعت يدها على خدها المتورد .. وكانت تثرثر قائلة : « ان الرجال من الخدم اقل اقبالا على السرقة .. وان لم يكن من الممكن – طبعا – رفع صورة كبيرة كهذه .. وقد كنت فى وقت ما أعبد الصور الكبيرة .. ذات الرجال يمتطون صهوات الجياد ، ولكن حين يرى المرء هذا القدر الكبير من الصور .. »

وقال ألبينوس فى نغمة ناعمة : « فراولين بيترز .. هذا هو الرجل الذى جعل قارتين .. » . فجفلت مارجوت واستدارت قائلة : « أواه .. حقا ؟.. كيف حالك ؟ » . واذ ذاك انحنى ريكس ، وقال فى تؤدة ، مستديرا الى ألبينوس : « لقد اتفق لى أن قرات وانا فى السفينة مقالك البارع عن تاريخ حياة سيباستيانو ديل بيومبو .. وان كنت – مع الاسف – لم تشر الى قصائده ذات الاربعة عشر بيتا » . فأجاب ألبينوس قائلا : « أوه .. ولكنها قليلة جدا » .. فقال ريكس : « بالضبط .. وهذا هو البديع فى الامر ! »

وهنا اندفعت مارجوت ، بخطوات – أو بالاحرى قفزات – خفيفة نحو ضيفة جديدة ، طويلة الاطراف ، هزيلة العود ، كانت تبدو كأنها النسر المنتوف ، وقد أخذت عنها مارجوت دروسا فى الالقاء .. **وعندئذ انتقلت «سونيا هيرش» الى مكان مارجوت ، واستدارت نحو ريكس قائلة له :**

« ما رأيك فى أعمال كامنج .. اعنى مسلسلته الاخيرة . وهى

« المشنقة والمصانع » .. كما تعلم ؟ » .. فقال ريكس : « انها شنيعة !»

***

وهنـــا فتح باب غرفة المائدة ، فتلفت الرجال حولهم باحثـــين عن زوجاتهم ، ووقف ريكس منعـزلا .. وراح مضيفه - الذى كان قد تأبط ذراع دوريانا - يجيل بصره باحثا عن مارجوت ، فلم يلبث أن رآها فى زحمة المدعوين وهم يتقاطرون الى غرفة المائدة ، فقال لنفسه فى قلق:«أنها ليست على ما يرام الليلة ! » . وقاد السيدة التى كانت معه الى ريكس ..

وجلس دوريانا ، وريكس ، ومارجوت ، والبينـــوس ، وسونيا هيرش ، وبوم - على التوالى - الى المـائدة .. وازدردت مارجوت كأسها الثالثة من النبيذ فى جرعةواحدة، وجلست منتصبة جدا ، وقد تألق البريق فى عينيها وهى تنظرأمامها واسا . .ولم يكن ريكس يعيرها اهتماما - لا هى ولا دوريانا التى كان اسمها يضايقه - وانما راح يتناقش عبر المائدة مع المؤلف بوم ، فى معنى التعبـــير الفنى .. ومضى يقول : « ان الكاتب اذا تكلم عن الهند - مثلا - وانا لم أرها أبدا ، وراح يصف الراقصات ، والفقراء،والثعابين، وصيد النمور ، وجوز الهند ، وسحر الشرق الغامض .. فما قيمة هذه الاشياء التى يصفها ؟ .. لا شىء . فبـدلا من أن يجعلنى أتصور الهند ، لا يفعل الا انه يصيبنى بوجع فى اسنانى .. أما ذلك الذى يكتب مثلا : خلعت قبـــل الدخول حذائى المبلل كى يجف ، حتى اذا كان الصباح ، الفيته وقد نمت فيه غابة كثيفة زرقاء .. »

واذ رفعت دوريانا حاجبيها ، قال لها : « انها الفطريات

يا سيدتى ! » .. ثم استرسل قائلا : « **عندئذ تغدو الهند** حية أمام ناظرى فى الحال .. أما سوى ذلك فنفاية لا قيمة لها ! » . وهنا قالت دوريانا : « أن أولئك الذين يسمونهم رجال اليوجا يأتون أمورا عجيبة .. ويبدو أن فى امكانهم أن يتنفسوا عن طريق .. »

ولكن بوم — الذى كان قد كتب أخيرا رواية من خمسمائة صفحة ، تجرى حوادثها فى سيلان ، حيث قضى أسبوعين مشمسين — ما لبث أن تدخل صائحا فى حماس : « ولكن عفوك يا سيدى الطيب ، فانك ينبغى أن تزخرف الصورة ، وترسم كل تفصيلاتها ، حتى يمكن لكل قارىء أن يفهمها .. **فليس الكتاب هو المهم فى ذاته ، وانما الاهمية تتمثل فى المشكلة التى يعالجها ، ويحلها** . فاذا أنا تصديت لوصف المناطق الاستوائية ، فينبغى أن أتناول موضوعى من أهم جوانبه ، وذلك هو : **ما تلقاه تلك البقاع من عسف الاستعمار الابيض وجوره واستغلاله .. لانك حين تفكر فى الملايين والملايين ..** » ، فقال ريكس : « انا لا افكر فى ذلك » .

وفجأة ، ضحكت مارجوت — التى كانت تنظر أمامها — ضحكة ساخرة ، لم يكن لها أى شأن بالحديث .. فالتفت « ألبينوس » الى عشيقته الصغيرة — وكان يتحدث عن معرض الفن الذى أقيم أخيرا — ولاحظ أنها تسرف فى الشراب كثيرا .. بل انها — حين نظر اليها — تناولت رشفة من كأسه هو .. فقال فى نفسه : « يالها من طفلة ! » ولمس ركبتها تحت المائدة ، فأطلقت ضحكة ساخرة مرة اخرى . والقت قرنفلة عبر المائدة الى لامبرت الكهل !

وقال ألبينوس ، مشتركا فى وطيس النقاش : « لا ادرى أيها السادة ما رأيكم فى « آدو كونراد » .. انه ليبدو لى من

ذلك النوع من المؤلفين ذوى الرأى الرائع والاسلوب الالهى ـ الذى قد يسرك يا هر ريكس ـ أن لم يكن من أعظم الكتاب لانه ـ وهنا أتفق معـــك يا هر « بوم » ـ لا يستحيى من المشاكل الاجتماعية المخـزية، بل اسمحوا لى أن أقول الاثيمة ، التى تشوب عصرنا هذا الذى يحتـدم بالغليـان الاجتماعى .. وقد عرفته حق المعرفة فى أيام تلمذتى ، حين كنا معا فى (هيد لبورج)، ثم اعتدنا بعد ذلك أن نلتقى من حين لآخر .. وأنا أعتبر أفضل كتبه هو «الخدعة الزائلة»، وقد قرأ الفصل الاول منه فى الواقع هنا ، على هذه المائدة .. أعنى على مائدة تشبهها ، و .. » .

وبعـد العشاء استرخوا يدخنون ويتناولون الاشربة الخفيفة ، فى حين راحت مارجوت تنتقل من مكان الى آخر .. **وكان واحد من الشاعرين الصغيرين يتبعها كالكلب الاشعث، وقد تحدته أن تحرق يده بنار سيجارتها ، وشرعت تنفذ ذلك بالفعل ..**

وبالرغم من أن الشاب تصبب عرقا ، فقد ظل مع ذلك يبتسم كأنه البطل الصغير .. أما ريكس ، فانه ـ وقـد استحال عليه أن يقهر « بوم » فى غرفة المكتب ـ جاء فجلس مع « ألبينوس » ، وراح يصف له بعض مناظر برلين ، كأنها مدينة بعيدة بهيجة .. وقد كان بارعا فى ذلك ، حتى لقـد وعده « ألبينوس » بأن يرى بصحبته ذلك الزقاق ، وذلك الجسر ، وذلك الجدار ذا اللون العجيب ، وما الى ذلك من المعالم التى كان يصفها .

وقال ألبينوس : « لكم أنا آسف لاننا لن نستطيع العمل معا فى فكرتى السينمائية .. اننى لواثق من أنك كنت خليقا بان تصنع العجـائب ، ولكننى ـ بصراحة ـ لا أستطيع تمويل المشروع ، فى الوقت الحاضر على الاقل » .

وأخيرا دهمت الضيوف تلك الموجة التى تبدأ بهمهمة خافتة ، ثم لا تفتأ ترتفع وترتفع فى دوامة التحيات وكلمات الوداع وهرجه ، حتى تكتسحهم جميعا خارج المنزل .. وتركوا البينوس وحيدا . وكان جو الحجرات أزرق اللون مثقلا بدخان السجائر ، وقد سكب أحد الضيوف شيئا ما على المائدة التركية الطراز ، فأصبحت لزجة كلها .. وكان الخادم الوقور يترنح بعض الشىء ، فقال ألبينوس فى نفسه : « لو أنه ثمل مرة أخرى فسأفصله من العمل ! » . وفتح الخادم النافذة ، فتدفقت منها الى الداخل برودة الليل الحالك .. وقال البينوس فى نفسه وهو يخلع رداء السهرة : « لم تكن حفلة ناجحة .. من وجهة ما ! »

الفصل السابع عشر

قال ريكس لمارجوت حين بلغا منحنى الطريق : « يحكى أن رجلا أضاع زر قميصه الماسى فى البحر الأزرق الواسع ، ثم بعد ذلك بعشرين سنة ــ وفى ذات اليوم ، وأظنه كان يوم جمعة ــ كان يأكل سمكة كبيرة .. ولكنه لم يجد الماسة فى داخلها .. وهذه هى حالى أنا ! »

فأوسعت مارجوت الخطى وراحت تجرى بثوبها المصنوع من جلد الفقمة ، والمحبوك حبكا شديدا على جسمها .. فأمسكها ريكس من مرفقها وأجبرها على الوقوف ، قائلا : **« لم أكن أتوقع أبدا أن أجرى وراءك مرة أخرى ، فكيف جئت الى هنا ؟ .. اننى لم استطع أن أصدق عينى .. أنظرى الى ، فلست أعتقد أنك ازددت جمالا ، ولكننى احبك على أى حال ! »**

وبكت « مارجوت » فجأة ، ثم تحولت عائدة . فجذبها من ذراعها ، ولكنها استدارت بأسرع من ذى قبل ، وراحا يدوران حول نقطة واحدة ، فقال لها : « خبرينى بحق السماء ، أين تذهبين ؟ ..الى مسكنى أم مسكنك ؟ .. ماذا دهاك ؟ » . فدفعته وأسرعت تجرى . فتبعها مرددا فى خبل : « ماذا بالله دهاك ؟ »

وأوسعت الخطو ، فأمسكها ثانية ، وقال لها : « تعالى معى أيتها البلهاء .. أنظرى ، أن عندى لك شيئا هنا ! » . وأخرج حافظة نقوده ، فلطمته فوزا على وجهه ، فقال فى هدوء : «أن الخاتم الذى حول سبابتك قاس جدا !» . ومضى يلاحقها — وهو يتحسس فى عجلة حافظته — فأسرعت مارجوت الى مدخل البيت وفتحت قفل الباب . وحاول ألبينوس أن يضع شيئا فى يدها ، ولكنه رفع عينيه فجأة . واذ رأى الباب — الذى كانا قد خرجا منه منذ هنيهة — صاح : « أوه .. هذه هى اللعبة الصغيرة اذن .. أليس كذلك ؟ » . ففتحت مارجوت الباب دون أن تتلفت حواليها .

وقال لها فى خشونة : « ها هى ذى .. خذيها ! » ، فلما لم تأخذ ما قدمه اليها دفعه الى ياقتها المصنوعة من الفرو .. وصفقت فى وجهه الباب ، فلو لم يكن من النوع ذى الهواء المضغوط ، لكان لاصطفاقه صوت مزعج .. ووقف ألبينوس برهة ، وقد عض على شفته السفلى ، ثم انصرف .

وتلمست « مارجوت » طريقها فى الظلام على السلم .. الا أنها ماصعدت بضع درجات ، حتى شعرت فجأة بالاغماء ينتابها ، فجلست هنالك وبكت كما لم تبك من قبل ، حتى

فى تلك المرة التى هجرها فيها .. وشعرت بشىء ما يتثنى فى عنقها فأمسكته واذا به قطعة ورق مجعدة .. فضغطت مفتاح النور . ولم يكن ما فى يدها نقودا ، بل رسما – بالقلم الرصاص – لظهر فتاة عارية الكتفين والساقين ، تجلس على فراش ، ووجهها الى الحائط .. وفى أسفل الورقة تاريخ مكتوب أولا بالقلم الرصاص ، ثم معاد عليه بالحبر .. تاريخ اليوم والشهر والسنة ، التى هجرها فيها . . وكان هذا هو السبب فى أنه سألها ألا تتلفت حواليها ، يوم اعتزم الرحيل ، فقد كان يرسمها ! .. أحقا كان ذلك منذ سنتين فقط ؟

وانطفأ النور مرة أخرى ، واتكأت مارجوت على الجدار تبكى من جديد ، وصوت المصعد يهدر فى أذنيها .. **تبكى لأنه هجرها فى تلك المرة ، ولانه أخفى عنها اسمه وشهرته ، ولأنها كان بوسعها أن تسعد معه طيلة هذا الوقت ! ..** لو أنه بقى ، لاستطاعت – اذ ذاك – أن تتفادى الرجلين اليابانيين ، والرجل العجوز ، وألبينوس .. كذلك كانت تبكى لانه حدث – عند العشاء – أن لمس ريكس ركبتها اليمنى ، ولمس ألبينوس ركبتها اليسرى ، فأحست كأنما النعيم عن يمينها ، والجحيم عن يسارها !

ومسحت أنفها بكمها ، وتلمست الجدار فى الظلام حتى عثرت على زر النور فضغطته مرة أخرى .. وهدأت نفسها فى النور قليلا .. وراحت تتأمل الرسم مرة أخرى ، ثم قالت فى نفسها ، انه – مهما يكن الامر – ذو معانى كثيرة بالنسبة اليها ، فمن الخطر أن تحتفظ به . ومن ثم مزقته الى قطع صغيرة . وألقت به من خلال السياج الى بئر المصعد .. ثم اخرجت المرآة وراحت تنثر « البودرة » على وجهها بحركة

خفيفة دائرية ، وهى بينذاك تعض شفتها السفلى . ثم أغلقت حقيبتها أغلاقا محكما ، وأسرعت تصعد درجات السلم .

وسألها ألبينوس قائلا : « لماذا تأخرت هكذا ؟ » .. وكان يلبس منامته . **فراحت تقول له ـ وهى تلهث ـ انها وجدت عناء فى التخلص من « فون ايفانوف » . الذى ظل يلح لكى يقلها فى عربته الى منزلها** . فقال ألبينوس مغمغما : « كم تتألق عينا جميلتى ، وكم هى منهوكة ودافئة !.. لقد كانت جميلتى تشرب .. » ، فقاطعته بصوت ناعم : «كلا .. دعنى الليلة وحدى ! »

وقال لها متوسلا : « أرجوك يا أرنبتى .. لقد كنت فى انتظارك » . فقالت : « انتظر برهة وجيزة كذلك .. ولكن ثمة شيئا أريد أن اعرفه أولا : **ألم تفعل شيئا بشأن الطلاق بعد ؟ »** . **فجفل وكرر كلمتها قائلا : « الطلاق ؟ »**

وقالت : « لا يمكننى أحيانا أن أفهمك يا ألبير .. يجب ـ بعد كل شىء ـ أن نضع الأشياء فى موضعها الصحيح ، أليس كذلك ؟.. أو تراك تقصد أن تتركنى بعد فترة وتعود الى زوجتك ؟ » .. فردد كلمتها قائلا : « تتركنى ؟ » .

ولكنها قالت : « كفاك ترديداً لكلماتى أيها الاحمق .. كلا، لن تقربنى حتى تعطينى جوابا مقنعا ! » . فأجابها قائلا : « حسنا جدا .. سأكلم المحامى يوم الاثنين » . فقالت : « حقا ؟.. هل تعدنى ؟ »

الفصل الثامن عشر

كان « آكسيل ريكس » فرحا بعودته الى أرض وطنه الجميلة ، فقد اصطدم بالمتاعب فى الفترة الاخيرة ، وأغلقت

دونه ـ بطريقة ما ـ أبواب الحظ ، وتركتـه فى الوحل ، كعربة مكسـورة .. كان ثمة ـ مثـلا ـ ذلك الشجار مع رئيس التحرير ، الذى لم تعجبه هزليته الاخيرة ، لا لان فكرتها معادة ، وانما لما كان بينهما من نزاع مستمر ، كانت من عوامله امرأة غنية ،وصفقة مالية كبيرة .. وكانت ثمة محادثة من جانب واحد مع بعض السلطات عن أجانب غير مرغوب فيهم .. ولم يكن النـاس عطوفين فى معـاملته . ولكنه قال فى نفسه أنه قد صفح عنهم جميعا .. **وقد كانت مضحكة تلك الطريقة التى عامله الناس بها ، اذ كانوا يبدون الاعجاب بعمله ، ثم يحـاولون ـ فى اللحظة التـالية ـ أن يلطموا وجهه .. وقد لطموه فعلا مرة أو مرتين !**

بيد أن أسوأ مافى الامر ، كان مركزه المالى ، اذ كانت الشهرة ـ وان لم تصل الى درجة عالمية ، كمـا قال بالامس ذلك الاحمق ـ قد جاءته بقدر كبير من المال فى فترة ما .. حتى اذا عاد أخيرا الى برلين ، مهيض الجنـاح محطم النفس بصدد مهنته كرسام كاريكاتورى ، كان الناس هنالك كما هم دائما ، يشغفون بالسخرية من الحماة .. ومن ثم كان بوسعه أن يحصل من هذا البـاب على القـدر الذى كان يحصل عليه من قبل من المال ، أو فى القليل على بعضه .. لولا أنه كان مولعا بالقمار .

ولا عجب ـ وقد غرس فى نفسه الولع بالخداع منـذ شبابه الباكر ـ ان كانت لعبته المفضلة هى البوكر !.. وقد كان يلعبه فى أى مكان يجد به من يشاركه اللعب ، وكان يلعبه فى أحلامه مع الشخصيات التاريخية ، او مع ابن عم بعيد له ، مات منذ مدة ، وان كان فى حياته الحقيقية لا يتذكره أبدا ، أو مع أناس كانوا فى الحياة الحقيقية كذلك يرفضون رفضا باتا أن يكونوا معه فى غرفة واحدة .. وكان

فى ذلك الحلم يأخذ الخمس ورقات الموزعة عليه ، مضمومة الى بعضها ، ويرفعها الى قرب عينيه ، فيلمح والفرحة ملء جوانحه « الجوكر » يطل عليه من الورقة الاولى ، **ثم يضغط بابهامه فى حذر على الركن الاعلى للورقة التالية ، ثم التى تليها وهكذا ، فيتضح له أن معه خمسة من «الجوكر» ، فيهتف فى نفسه قائلا : « رائع ! »** ، دون أن يعجب لتكرر «الجوكر» خمس مرات . ثم يراهن رهانه الاول ، فيتصدى له « هنرى الثامن » ـ وليس معه سوى اربع ملكات ـ ويضاعف الرهان .. وعندئذ يصحو من نومه ، ووجه « الجوكر » مرتسم فى مخيلته ..

***

وفى ذلك اليوم ، استيقظ من نومه فأحس بالصباح قارسا معتما .. وتقلب على فراشه ، فلاحت له الستار الشبكية ـ المسدلة على النافذة ـ قذرة .. وخطر له أن أصحاب الفندق كانوا خليقين بأن يعطوه غرفة أفضل من هذه نظير نقوده التى قال فى نفسه أنهم لن يروها .. **وفجأة ـ فى انبثاق لذيذ ـ تذكر ذلك اللقاء الغريب بالامس .. وكان ـ كقاعدة عامة ـ يتذكر شؤونه الغرامية غير متأثر بأية عاطفة خاصة ..** بيد أن مارجوت كانت استثناء من هذه القاعدة ، فكثيرا ما حدث ـ خلال هذين العامين الماضيين ـ أن ألفى نفسه يفكر فيها ، وكثيرا ما كان يتطلع ـ بخبل كبير الشبه بالماليخوليا ـ الى ذلك الرسم السريع الذى رسمه لها بالقلم الرصاص .. وهو أمر غريب من آكسيل ريكس الذى كان أقل ما يقال فيه أنه ماجن ساخر !

كان قد غادر المانيا لاول مرة ، فى شبابه ، متعجلا جدا

لتجنب الحرب . فترك أمه المسكينة وحيدة ، شبه فاقدة العقل . . وقدر لها - فى اليوم التالى لرحيله الى (مونتفيديو) - أن تقع من اعلى السلم ، فأصيبت اصابة قاتلة .. وفى طفولته صب كمية من البترول على عدد من الفيران الحية وأشعل فيها النار ، وراح يتمتع برؤيتها وهى تندفع - بضع ثوان - كشهب مشتعلة .. ومن الافضل عدم الخوض فى الامور التى كان يفعلها بالقطط .. ولكنه - فى السنوات التى صار فيها أكثر نضجا ، والتى نمت فيها قريحته الفنية - تعود أن يحاول اشباع فضوله بطرق أكثر خبثا . . ولم يكن فضوله من ذلك النوع العلمى .. كلا ، عفوا ، بل كان من ذلك النوع البارد الذى لا يلقى بالا الا للامور التافهة التى تقع فى هامش الحياة ، ليستغلها فى فنه .. **كان يسره أن يرى الحياة وقد بدت خرقاء تدعو للهزء والسخرية حتى تصلح لان تقع تحت رحمة الرسم الكاريكاتورى !** . . وكان لا يأبه بالفكاهات المصنوعة صنعا ، وانما يحب الصور الهازلة التى تخطر من تلقاء نفسها مصادفة بين الحين والآخر ، فلا تحتاج لغير لمسة صغيرة منه كى تندفع العجلة فى منحدرها .. كان يحب أن يهزأ بالناس ، وكان أقل ارتباك يتضمنه الموضوع ، يسره أعظم السرور .. بيد أن هذا الرجل الخطر ، كان فى ذات الوقت - وقلمه فى يده - فنانا بارعا حقا ..

فى قصة له نرى رساما عظيما كان يقف ذات يوم على « سقالة » ، ثم هم بالتراجع ، ليتأمل - عن بعد - الرسم الذى أنجزه .. وكانت الخطوة التالية لابد أن تهوى به .. واذ كانت صيحة التحذير - فى هذه الحالة - قد تؤدى الى موته ، فان تلميذه كان من حضور البديهة بحيث أسرع فألقى محتويات دلو على اللوحة الرائعة .. هذه صورة

مضحكة جداً ، ولكنها تكون أكثر أضحاكا — فى نظر ريكس — لو ان الاستاذ الذاهل تقهقر وسقط ، بينما تلقى المتفرجون ما أفرغه التلميذ من محتويات الدلو على أيديهم .. **ففن الكاريكاتير اذن — كما يفهمه ريكس — لا يهزأ بالطبيعة فقط ، وانما يقوم على المفارقة بين القسوة من ناحية ، وسلامة النية من الناحية الاخرى** .. ولو أن ريكس رأى فى حياته الحقيقية شحاذا اعمى يضرب بعصاته راضيا بحاله، ثم هم بالجلوس على مقعد حديث الطلاء ، لما مد أصبعا لتحذيره ، وانما لاستمد من ذلك المنظر موضوعا لرسمه الجديد !

واصبح كل ما يبغيه فى الوقت الراهن ، أن يتأكد — قبل كل شىء — مما اذا كانت « مارجوت » تعيش حقا مع « البينوس » . فنظر الى ساعته ، واذا النهار قد انتصف .. ونظر فى حافظة نقوده ، فاذا هى خالية .. وارتدى ملابسه ، وأخذ طريقه على قدميه الى المنزل الذى كان به فى الليلة الماضية .. وكان الثلج يتساقط هشا ، مستمرا .

***

وشاءت المصادفة أن يكون ألبينوس هو الذى فتح له الباب بنفسه ؛ وقد التبس عليه الامر فلم يستطع أن يميز الشبح الذى وقف أمامه مكسواً بالبرد .. فلما رفع ريكس وجهه — بعد أن مسح حذاءه فى الممسحة — استقبله البينوس بترحاب عظيم .. فقد أسره الرجل فى الليلة الماضية ، لا بفكاهته الحاضرة وأسلوبه المرسل فحسب ، وانما كذلك بمظهره الممتاز .. اذ كان — بخديه الشاحبين الغائرين ، وشفتيه الغليظتين ، وشعره الداكن المنفوش — مثالا للقبح الفاتن !.. **وسر « البينوس » أن يتذكر أن**

مارجوت قالت ، وهما يتحدثان عن الوليمة : « أن لصديقك الفنان هـذا وجه كئيب . انه رجل لا أمنحه قبلة بأى ثمن ! » .. كذلك كان ما قالته عنه « دوريانا » طريفا .

واعتذر ريكس عن زيارته فى وقت غير مناسب ، فضحك ألبينوس متلطفا .. وقال ريكس : « الحق أنك واحد من اولئك القلائل – فى برلين – الذين أود أن أعرفهم معرفة وثيقة .. ان اكتساب الاصدقاء فى أمريكا أسهل مما يحدث هنا ، وقد اعتدت هناك أن أتصرف طليقا من التقاليد ، فاعف عنى اذا كنت قد صدمتك بتصرفى !.. ولكن ما أجمل هـذه الدمية الانيقة التى تعلو أريكتك .. وبالمناسبة ، هل أتفرج على لوحاتك عن قرب ؟ .. هذه التى هناك تبدو رائعة » .

وراح ألبينوس يطوف به الحجرات ، وكانت كل منها تحوى بعض اللوحات البديعة ، التى يبدو عليها أثر خفيف للتزييف . فراح ريكس يتطلع اليها بسرور ، متسائلا – فى دهشة – عما اذا كانت صورة لورنزو لوتو مع يوحنا ذى الرداء البنفسجى والعذراء الباكية ، هى الصورة الاصلية .. وكان فى بعض مغامرات حياته قد اشتغل بتزييف الصور ، وأنتج مجموعة منها فى غاية الروعة .. وقد تخصص يومذاك فى صور القرن السابع عشر .. وقد لمح – فى الليلة الماضية – احدى هذه اللوحات القديمة ، أثناء وجوده فى بيت ألبينوس ، فراح الآن يتأملها – مرة أخرى – بسرور عظيم .. كانت من أبدع أعمال بوجين ، وتمثل آلة « ماندولين » الموسيقية فوق رقعة شطرنج ، ونبيذا ياقوتيا فى كأس ، وقرنفلة بيضاء .

وقال ألبينوس : « الا تبدو حديثه ؟ .. انها تتسم بالسريالية فى الواقع » . فقال ريكس وهو يرفع معصمه

ويتأمل الصورة : « تماما » .. وكانت حديثة فعلا ، فقد رسمها هو منذ ثمانى سنوات فقط !

ثم سارا فى الردهة .. وبينما كانا يتأملان لوحة جميلة تمثل فراشة وزهورا ، ظهرت «مارجوت» فجأة من الحمام فى ثوب رائع أصفر اللون .. وجرت تريد أن تختفى .. تاركة أحد خفيها فى الطريق .. فقال ألبينوس وهو يضحك فى خجل : « فلندخل هنا ! » .. وتبعه ريكس الى غرفة المكتب ، وهو يقول باسما : « ان لم أكن مخطئا ، فهذه هى فراولين بيترز .. هل هى قريبتك ؟ »

وفكر ألبينوس بسرعة قائلا فى نفسه : « ما فائدة لانكار ؟.. من المستحيل خداع شخص ذكى كهذا .. ثم ، أليس الامر كله بديعا ، يكتنفه جو من البوهيمية العابثة ؟» .. وما لبث أن قال بصوت مرتفع : « انها عشيقتى الصغيرة ! »

ودعا ريكس للبقاء على الغداء ، فلم يتوان هذا عن القبول .. وحين ظهرت مارجوت على المائدة ، كانت ذابلة ، ولكنها هادئة . فان الانفعال المهتاج الذى لم تكن قادرة على كبحه ـ فى الليلة الماضية ـ الا بجهد ، تحول الى شىء يشبه الطمأنينة كثيرا .. وكانت تشعر ـ وهى جالسة بين هذين الرجلين اللذين يقتسمان حياتها ـ كما لو انها كانت الممثلة الاولى فى فيلم درامى عاطفى غامض ، فحاولت أن تتصرف على هذا الاعتبار فكانت تبتسم ساهمة ، مرخية أهدابها ، واضعة يدها فى لطف على ذراع « ألبينوس » ـ وهى تطلب اليه أن يناولها الفاكهة ـ ملقية بنظرة خاطفة فى غير مبالاة الى عشيقها السابق .

وفجأة قالت فى نفسها ، وقد جرت رجفة لذيذة طويلة

فى سلسلة ظهرها : « كلا .. لن أدعه يفلت مرة أخرى .. لا خوف من ذلك ! »

وتكلم ريكس كثيرا .. ومن بين أشياء كثيرة مسلية ، ذكر لهما قصة مضحكة عن « لوهنجرين » الفلكى السكران الذى فاته كوكب « الدجاجة » وراح ينتظر عبثا مرور الكوكب التالى !.. وضحك ألبينوس من قلبه ، وان كان ريكس يعلم أنه لم يدرك الا نصف المزحة ، وأن نصفها الآخر هو الذى جعل « مارجوت » تعض شفتيها .. ولم يكن ينظر اليها الا قليلا وهو يتحدث ، حتى اذا صوب اليها عينيه ، كانت ترخى أهدابها على الفور ، ناظرة الى المكان الذى استقرت عليه عيناه من ثوبها ، فتمر بيدها عليه دون وعى ! وما لبث ألبينوس أن قال وهو يغمز بعينيه : « وسريعا ما سنرى شخصا ما على شاشة السينما ! » . فتجهمت مارجوت وضربت يده بخفة ، بينما سألها ريكس : « هل أنت ممثلة ؟ .. أوه ، حقا ؟.. وهل لى أن أسأل فى أى فيلم تظهرين ؟ » . فأجابته دون أن تنظر اليه ، وقد شعرت بزهو عظيم .. فانه إذا كان فنانا مشهوراً ، فهى نجمة سينمائية ، ومن ثم فقد أصبحا فى مستوى واحد !

***

وخرج ريكس بعد الغداء مباشرة .. وفكر هنيهة فيما يفعل بعد ذلك ، ثم ذهب الى ناد للقمار .. وفى اليوم التالى زار «ألبينوس» ، واصطحبه الى معرض للصور الحديثة .. وفى اليوم الذى يليه ، تناول الغداء فى منزل « ألبينوس » ، وقد سأل - على غير توقع - عن مارجوت ، ولكنها لم تكن بالمنزل ، ومن ثم كان عليه أن يحتمل محادثة طويلة مع ألبينوس ، الذى كان قد بدأ يحبه حبا عظيما .. وكاد

ريكس أن يرزح تحت الضيق الشديد ، لولا أن القدر أشفق عليه - اخيرا - فساق فرصة لاسعاد قلبه : مباراة فى « الهوكى » على الجليد فى قصر الالعاب . فما ان عادت «مارجوت» ، حتى اقترح أن يذهبوا جميعا لمشاهدة المباراة .

وإذ كان ثلاثتهم يأخذون طريقهم الى مقصورتهم ، لمح « ألبينوس » كتفى بول وضفيرة ايرما الشقراء .. وكان لابد من أن يحدث شيء من هذا فى يوم أو آخر .. الا أنه بوغت أشد مباغتة - برغم انه كان على الدوام يتوقعه - حتى لقد انحرف بقوة ، فدفع « مارجوت » دفعة عنيفة وهو يفعل ذلك . فقالت له ببذاءة : « انظر يا هذا ماذا انت فاعل ! » . فقال لها ألبينوس : « استريحى واطلبى بعض القهوة .. لدى .. محادثة تليفونية لابد منها .. لقد نسيت ذلك تماما ! »

وهبت « مارجوت » واقفة مرة أخرى ، وهى تقول : «أرجوك .. لاتذهب !» . فأصر قائلا : « أن الامر عاجل» . وراح يحنى كتفيه محاولا أن ينكمش قدر الامكان ، حتى لا تلمحه ابنته ، ثم قال لمارجوت : « اذا تأخرت ، فلا تنزعجى ! .. معذرة ياريكس » .

وعادت مارجوت تقول ، مرددة بتؤدة شديدة : « أرجوك أن تبقى ! » .. ولكنه لم يلاحظ نظرتها الغريبة ، ولم ينتبه اليها وقد احتقن خداها وارتعشت شفتاها .. وأسرع الى باب الخروج وقد أصبح ظهره مقوسا تماما .

وانقضت لحظة سكوت ، ثم ندت عن ريكس زفرة عظيمة ، وقال بالفرنسية وهو ينفخ دخان سيجارته : «أخيرا .. وحدنا ! » . وكانا يجلسان جنبا الى جنب فى مقصورتهما ، الى منضدة صغيرة ذات مفرش ناصع البياض .. وفى أسفل - خلف الحاجز مباشرة - كانت تمتد ساحة الثلج ..

وكانت الفرقة تؤدى ألعابا بهلوانية عنيفة ، والثلج يسطع ببريق أزرق زيتى ، والجو حار وبارد فى ذات الوقت .

وقالت مارجوت فجأة : « هل تفهم الآن ؟ » .. ولم تكن هى نفسها تفهم سر تساؤلها . وهم ريكس أن يجيب . لولا أن عاصفة هتاف دوت فى هذه اللحظة داخل الدار العظيمة ، **فضغط على أصابعها الصغيرة تحت المائدة .. وعندئذ شعرت بدموع تطفر من عينيها ، ولكنها لم تسحب يدها !**

وفى هذه اللحظة أقبلت فتاة فى ثياب بيضاء محبوكة عليها ، و « جونلة » قصيرة فضية اللون ذات حاشية مخملية ، تنزلق فوق الثلج على أطراف قبقابى الانزلاق ، وصنعت بقوة الاندفاع قوسا جميلا ، ثم قفزت واستدارت . ثم انطلقت منزلقة مرة أخرى بسرعة البرق الخاطف ، وهى تدور وترقص ، ضاربة الثلج ضربات حادة ..

وعادت مارجوت تقول : « لقد خدعتنى ! » .. فأجابها قائلا : « نعم . ولكننى عدت إليك ، أليس كذلك ؟ .. لاتبكى ياطفلتى .. هل أنت معه منذ وقت طويل ؟ » . وحاولت أن تتكلم ، ولكن الضجيج الهائل ملأ الدار ثانية . ثم خلت رقعة الثلج مرة أخرى ، فأسندت مارجوت مرفقيها الى المنضدة ، وضغطت بكفيها على جانبى رأسها .

وعاد اللاعبون ــ بين الهتاف والتصفيق والضجيج ــ ينزلقون على مهل فوق صفحة الثلج : السويديون فى المقدمة ، ثم الالمان .. وكان حارس مرمى الزائرين ــ بصديريته الناصعة ، والوسائد الجلدية الضخمة التى تكسو ساقيه الى اعلى الفخذين ــ ينزلق ببطء نحو مرماه .

وقالت مارجوت : « انه سيحملها على أن تطلقه .. فهل ترى أية لحظة حرجة اخترتها لتجىء فيها ؟ »

ــ هراء .. أتعتقدين حقا أنه سيتزوجك ؟

ـ لو أنك أفسدت الامور فلن يفعـــل ..

ـ كلا يا مارجوت .. انه لن يتزوجـــك !

ـ وأنا أقول لك انه سيفعل ذلك !

واستمرت شفاههما تتحرك ، ولكن الضجيج الذى كان يدوى حولهما خنق عراكهمـــا الخفيف . وكانت الجموع تهدر بالهياج ، والعصى البـارعة تتبع الكرة على الثلج تضربها ، وتقتنصها ، وتمررها ، وتفقدها ، وتتصادم معا فى تلاطم سريع .. وحارس المرمى ـ وهو يتجه بخفة الى هنا وهناك وهو فى موقعه ـ يضم رجليـــه احداهما الى الاخرى ، وقد كونت وسادتيهما درعا واحدا .

وعادت مارجوت تقول : **« انه لامر فظيع انك عـــدت ، فانت متسول بالنسبة اليه ! .. يا الهى الرحيم .. اننى اعلم الآن أنك ستفسد كل شىء ! »**

ـ هراء ، هراء .. سنكون حريصين جدا .

ـ اننى أكاد أجن .. أخرجنى من هذه الضوضاء ! .. فلننصرف ، فأنا متأكدة انه لن يعودالآن ، ولو عاد ، فسوف يكون هذا درسا طيبا له !

ـ تعـــالى الى مســكنى .. يجب أن تأتى ، ولا تكونى حمقاء .. فاننا سنسرع،وستنصرفين بعد ساعة واحدة..

ـ اسكت ! لن أقدم على اية مخاطرة .. لقد عملت منذ اشهر كى أصل به الى هذه الغاية ، وقد أصـــبح الآن فى يدى .. فهل تنتظر منى حقا أن ألقى بكل شىء الآن ؟

وقال ريكس بلهجة اقتنـــاع : « انه لن يتزوجك ! » . فصـــاحت قائلة : « هل تأخذنى الى المنزل أم لا ؟ » .. وبرقت فى ذهنها فكرة ، فقالت فى نفسها : « سأتركه يقبلنى فى العربة » . ولكنه قال : « انتظرى قليلا .. كيف عرفت انني مفلس ؟ » . فأجابته قائلة : « يمكننى أن أرى ذلك فى

عينيك » ، ثم سدت أذنيها ، وقد بلغ الآن الضجيج قمته، فقد أحرز الالمان هدفا .. وكان حارس المرمى السويدى منكبا على وجهه فوق الثلج ، والعصى – التى طارت من يده – تدور وتدور وهى تنزلق على الثلج كأنها مجداف مفقود.

وقال ريكس : « ان ما أريد أن أقوله ان التهرب من الواقع اضاعة للوقت ، فهو سيحدث عاجلا أو آجلا، فتعالى معى !.. ان ثمة منظرا بديعا فى نافذتى حين يرخى الليل سدوله » . فأجابته قائلة : « لو قلت كلمة أخرى، فسأذهب الى المنزل وحدى! »

***

وعندما كانا يشقان طريقهما خلف المقاصير ، جفلت مارجوت وعبست ، فقد كان ثمة رجل وجيه ضخم الجسم ، ذو نظارات سميكة الاطار ، ينظر اليها فى تقزز واشمئزاز . وبجانبه صبية تتابع المباراة خلال منظار مقرب.

وقالت مارجوت لمرافقها بسرعة : « انظر خلفك ! .. هل ترى ذلك الرجل البدين الذى معه الطفلة ؟ **انه شقيق زوجته ، وهذه هى ابنته .. وقد فهمت الآن لماذا أسرع بالخروج .. فيا لأسفى اذ لم ألاحظهما من قبل ! ..** لقد كان شقيق زوجته وقحا جدا معى ذات مرة ، حتى لأود لو جلده شخص ما بالسياط ! » . فقال ريكس وهو يهبط الدرجات الناعمة الضيقة بجانبها : « ومع ذلك تكلمينني عن أجراس الزواج ؟ .. انه لن يتزوجك أبدا ! .. والآن اسمعى يا حبيبتى ، ان عندى اقتراحا جديدا أقدمه ، وهو الاقتراح الاخير فيما أظن » .

وسألته مارجوت قائلة بارتياب : « وما هو ؟ » . فأجاب قائلا : « سآخذك الى المنزل بالفعل .. ولكن عليك أن تدفعى اجر المركبة يا عزيزتى ! »

الفصل التاسع عشر

راح « بول » يحدج « مارجوت » بنظره ، وقد غدت طيات الشحم المتراكمة فوق ياقته ، بلون البنجر . وماكان — رغم دماثة خلقه — ليتردد فى أن يفعل بها ما أرادت هى أن تفعله به ..

وتساءل فى نفسه عمن يكون الشخص الذى كان يرافقها. كما تساءل أين ألبينوس .. فقد ساوره شعور مؤكد بأنه لابد ان يكون فى مكان ما من دار العرض . وأفزعته فجأة فكرة أن الطفلة قد تراه ، ومن ثم فقد ارتاح جدا حين انطلقت « الصفارة » معلنة انتهاء المباراة ، وأمكنه أن ينجو بنفسه مع ايرما .. على أنها بدت — حين بلغا البيت — متعبة ، **ولم تكن تجيب على أسئلة أمها عن المباراة الا بهزة من رأسها ، وبتلك الابتسامة الواهنة الغامضة التى كانت من أجمل صفاتها .**

وقال بول : « ما أروع الطريقة التى كان اللاعبون ينزلقون بها على الثلج » . فرمقته اليزابيث بنظرة طويلة، ثم تحولت الى ابنتها قائلة : « حان وقت النوم .. حان وقت النوم!» . فقالت ايرما متوسلة وهى تغالب النعاس: «أواه. كلا ! » . فقالت أمها : « يا لله .. لقد قاربنا منتصف الليل .. ولم يسبق لك أن تأخرت هكذا أبدا ! » .

واذ نامت الطفلة ، قالت اليزابيث لشقيقها :

« قل لى يا بول ، اننى أشعر بأن شيئا ما قد حدث .. فقد كنت قلقة جدا وأنتم فى الخارج .. صارحنى يا بول، ما ذا حدث ؟ » . فقال وقد احمر وجهه احمرارا شديدا: « ولكن ليس لدى ما أقوله ! »

وقالت تتلمس تبريرا لشعورها : « ألم تقابل أحدا ؟

أحقا لم تقابل أحدا ؟ » .. فارتبك إرتباكا تاما امام ذلك الاحساس المرهف ، الذى تضاعف عند اليزابيث منـذ انفصالها عن زوجها ، وغمغم قائلا : « ما الذى وضع مثل هذه الفكرة فى ذهنك ؟ » . فهمست ، وهى تخفض راسها فى بطء قائلة : « اننى أخشى ذلك دائما » .

وفى الصباح التالى ، دخلت المربية حجرة « اليزابيث » وميزان الحرارة « الترمومتر » فى يدها . وايقظتها قائلة فى جزع : « ان ايرما مريضة يا سيدتى .. لقـد بلغت حرارتها الواحدة بعـد المائة » (١) .. فرددت اليزابيث كلمتها قائلة : « الواحدة بعد المائة ؟ » . وخطر لها فجأة: «هذا - اذن - هو السبب فى أننى كنت متضايقة بالامس» .

ونهضت من فراشها ، وهرعت الى غرفة ايرما ، فاذا بها مستلقية على ظهرها ، تحدق فى السقف بعينين متألقتين . وما لبثت أن تمتمت قائلة : « صياد ، وزورق ! » ، وهى تشير الى السقف الذى كان ضوء مصباح الفراش يلقى عليه ظلالا تؤلف فيما بينها بعض المناظر .. وكان الوقت باكرا وباردا .. وسألتها اليزابيث ، وهى ما تزال تعالج لبس ثوبها : « هل حلقك يوجعك يا حبيبتى ؟ » . وانحنت منزعجة على وجه الطفلة الصغير المدبب ، وغمغمت وهى تزيح الشعر الجميل عن جبين ايرما قائلة : « يا الهى .. ما أدفأ جبينها ! »

واستمـرت أيرما تقول بصوت خافت ، وهى ما تزال ناظرة الى أعلى : « بوصـة ، أثنتان ، ثلاث ، أربع » .. فقالت اليزابيث : « الافضل أن نسـتدعى الدكتور ! » . فقالت المربية : « لا داعى لذلك يا سيدتى .. ولسـوف

---

(١) هذه الحرارة تقابل ٣٨٫٢ درجة مئوية

أعطيها بعض الشاى الساخن بالليمون ، وقرص اسبيرين .. ان الناس جميعا مصابون بالسخونة فى هـذه الايام » .

وقرعت البزابيث باب غرفة بول .. وكان يحلق ذقنه، فأسرع - والصابون ما زال على وجنتيه - الى غرفة ايرما .. وكان بول يجرح نفسه كثيرا حين يحلق ذقنـه ، فبدت بقعة حمراء متألقة خلال رغوة الصابون على ذقنه.. وحين انحنى على ايرما ، كانت تقول : « فراولة، وقشدة » ..

* * *

ووصل الدكتور فى المســاء ، فجلس على حافة فراش الطفلة . وبدأ - وعيناه مثبتتان فى ركن من أركان الغرفة - يعد نبضها ، وهى تحدق فى الشعر الابيض النابت فى تجويف أذنه الكبيرة المعقدة ، وفى العرق المتعرج على وجنته المتوردة .. وما لبث الدكتور أن قال : « حسـنا ! » ، وهو ينظر الى ايرما من فوق اطار نظارته . ثم طلب اليهـا أن تجلس . وجذبت اليزابيث قميص الطفلة الى أعلى ، فبدا جسمها شديد البياض ، نحيفـا ، وقد برزت عظام الكتفـين . ووضع الدكتور سماعته على ظهـرها . واذ كانت تتنفس تنفسا بطيئا ، طلب اليها أن تزيد من تنفسها ، ثم قال مرة اخرى : « حسـنا ! » . واخـذ ينقـر على مختلف اجزاء صدرها ، يتحسسها بأصابعه المثلجة .. وانتصب الطبيب أخيرا ، وربت رأس « ايرما » ، ثم غسـل يديه ، وأنزل أطراف كميه . وقادته اليزابيث الى غرفة المـكتب ، حيث جلس وأخرج قلمه ، وكتب ورقة الدواء . ثم قال : « نعم .. ان الانفلونزا منتشرة جدا فى هذه الايام .. وقد ألغيت أمس حفلة ، لان المغنية ومرافقتها ، مصابتان كلتاهما بها » .

وفى الصباح التالى هبطت حرارة ايرما بدرجة ملحوظة ..

بيد أن بول كان من جانبه متوعكا جدا ، وكانت أنفاسه تتهدج ، وأنفه ينخر ، ولكنه رفض رفضا باتا أن يرقد فى فراشه ، بل لقد ذهب ألى مكتبه كالعادة .. وكذلك أخذت المربية تعطس .

وفى مساء ذلك اليوم - حين سحبت اليزابيث ميزان الحرارة الزجاجى من ابط ابنتها - سرها أن رأت الزئبق لا يكاد يبلغ خط الحمى الاحمر .. وحجبت ايرما عينيها عن الضوء الذى كان يبهر بصرها ، ثم أدارت وجهها الى الحائط ، وقد ران الظلام على الحجرة مرة أخرى،وسرعان ما نعست .. الا أنها استيقظت فى منتصف الليل على أثر حلم مزعج .. وكانت عطشانة ، فمدت يدها الى كوب الليمون اللزج الذى كان على المنضدة المجاورة للسرير ، وأفرغته ، ثم أعادته برفق ، وهى تمص شفتيها فى دعة .

وكانت الحجرة تبدو مظلمة أكثر من المعتاد ، وفى الغرفة المجاورة كانت المربية تغط بصوت مرتفع ، فراحت ايرما تنصت اليها ، ثم راحت تنتظر الضجة المألوفة التى يحدثها القطار الكهربائى وهو يخرج من تحت الارض قريبا جدا من المنزل .. ولكنه لم يأت ، فلعل الوقت كان متأخرا جدا ، وقد توقفت القطارات عن السير .. ونامت ايرما بعينين مفتوحتين .. وفجأة سمعت صفيرا مألوفا ذا أربع نغمات يتصاعد من الشارع .. **هو بالضبط صفير أبيها الذى كان يعزفه حين يعود الى المنزل ، كى ينبههم الى أنه سيكون معهم بعد لحظة ، وأن عليهم أن يعدوا العشاء ..**

وكانت ايرما تعلم تماما أنه ليس أباها ، وانما هو رجل اعتاد - فى الاسبوعين الاخيرين - أن يزور السيدة التى تقطن الطابق الرابع .. وقد قالت لها ابنة البواب الصغيرة ذلك ، وأخرجت لسانها حين قالت « ايرما » - بحق -

انه من الحماقة أن يأتى متأخرا هكذا .. وكانت تعلم كذلك انه ليس من الجائز لها أن تتكلم عن أبيها الذى يعيش مع صديقته الصغيرة .. وهو أمر عرفت به من حديث سيدتين كانتا تنزلان السلم أمامها !

وتكرر الصفير تحت النافذة ، فقالت ايرما فى نفسها : « من يدرى ؟ لعله أبى بعد كل شىء .. ولن يسمح له أحد بالدخول .. ولعلهم قالوا لى متعمدين أنه رجل غريب !»

وازاحت الغطاء عنها ، وذهبت على أطراف أصابعها الى النافذة .. وقد ارتطمت وهى تفعل ذلك بمقعد فسقط عنه شىء ناعم – هو دميتها التى كانت على صورة الفيل – محدثا صوتا وصريرا .. الا أن المربية استمرت تغط !

وفتحت ايرما النافذة ، فاندفع منها الى الداخل تيار هواء بارد كالثلج .. **وفى ظلام الشارع ، رأت شخصا واقفا ينظر الى أعلى المنزل .. وقد حدقت فيه وقتا طويلا .. ولكنه – وا أسفاه ! – لم يكن أباها ..**

وقد أطال الوقوف هنالك ، ثم استدار أخيرا ومشى ببطء ، فشعرت ايرما بالاسى يملأ قلبها . وكان البرد قد جمدها حتى لقد قاست عناء فى سبيل اغلاق النافذة . ولم يعد فى امكانها أن تشعر بالدفء مرة أخرى حين عادت الى فراشها .. وأخيرا نعست ، وحلمت أنها تلعب الهوكى مع أبيها .. وأنه ضحك وانزلق ثم سقط على فخذيه ، ووقعت منه قبعته العالية .. وأنها سقطت هى كذلك .. وكان الثلج قارسا تحتها ولكنها لم تستطع أن تقف مرة أخرى ، وقد طاحت عصا الهوكى – التى كانت معها بعيدا – وانزلقت كأنها دودة تزحف ! ..

* * *

وفى الصباح التالى ارتفعت حرارتها الى اربع درجات بعد المائة ، وصار وجهها داكنا ، واشتكت من الم فى جنبها .. فاستدعوا الطبيب حالا .. وقد بلغ نبضها مائة وعشرين ، وكان موضع الالم من الصدر صامتا تحت نقرات أصابع الطبيب ، وقد اظهرت السماعة لغطا فى الرئة ، فأمر بوضع « لزاق » على صدرها ، وأعطائها دواء ملطفا ..

وأحست اليزابيث ـ فجأة ـ بأنها ستفقد عقلها ، وبأنه ليس من حق القدر ـ بعد كل الذى حدث ـ أن يعذبها هكذا . . وبمجهود عظيم جرت قدميها جرا كى تودع الدكتور ، الذى القى نظرة ـ قبل أن يذهب ـ على المربية ، فاذا بها محمومة جدا ، ولكنها لقوة بنيتها لم تكن فى حال تدعو للانزعاج عليها .

وصحب بول الدكتور الى البهو ، وسأله هامسا ـ وقد حبس البرد صوته ـ عما اذا كان ثمة خطر . فأجابه الدكتور قائلا ببطء : « سأعود اليوم مرة أخرى » .

وقال لامبرت ـ الشيخ ـ فى نفسه وهو ينزل السلم : « دائما ذات الامر ، وذات الاسئلة ، وذات النظرات المتوسلة ! » .. ونظر فى مفكرته ، واندس خلف عجلة القيادة فى سيارته ، وهو يصفق الباب . **وبعد خمس دقائق ، كان يدخل منزلا آخر .. منزل « البينوس » الذى استقبله وهو يرتدى سترته الحريرية المطرزة ـ التى كان يرتديها أثناء العمل فى غرفة مكتبه** ـ وقال له فى انزعاج : « انها تشعر بأنها ليست على مايرام منذ الامس .. وهى تشكو الما فى جسمها كله » .

فسأله لامبرت عن حرارتها ، وهو حائر فيما اذا كان

ينبغي أن يقول لهذا العاشق الولهان ان ابنته مصابة بالالتهاب الرئوى .. واجابه البينوس وهو منزعج : « كلا، وهذا هو الاشكال .. فان حرارتها ليست مرتفعة ، وقد قيل لى أن الانفلونزا اذا لم تصحبها حرارة تكون خطرة » .

وقال لامبرت فى نفسه : « لماذا أقول له ؟ لقد هجر عائلته دون وازع من ضمير .. فليقولوا له بأنفسهم ان ارادوا .. أما أنا ، فلماذا اتدخل؟ » . ثم التفت الى البينوس وزفر قائلا : «حسنا . فلنلق نظرة على مريضتنا الفاتنة ! »

وكانت مارجوت راقدة على الاريكة ، متوردة الوجه ، مرتدية قميصا من الحرير الموشى « بالدانتلا » .. وقد جلس ريكس بجانبها، طاويا ساقيه احداهما فوق الاخرى ، وهو يرسم رأسها البديع على ظهر علبة سجائر . فقال لامبرت فى نفسه : « انها لمخلوق بديع بلا شك .. الا ان ثمة شيئا ثعبانيا يكتنفها » .

وانسحب ريكس الى الغرفة المجاورة ، وهو يصفر بفمه .. وراح البينوس يتسكع قريبا جدا ، بينما أقبل لامبرت يفحص المريضة .. وكان ما بها برد خفيف .. هذا كل شىء . فقال لها : « يحسن أن تلازمى البيت يومين أو ثلاثة .. وبهذه المناسبة مااخبار الفيلم ؟ هل انتهيتم منه؟»

فأجابت مارجوت وهى تلتف بدثارها فى وهن قائلة : « نعم ، الحمد لله .. وفى الشهر المقبل سيكون ثمة عرض خاص له .. وينبغى أن تكون صحتى قد تحسنت فى ذلك الوقت ، على أى حال » .. وهنا قال لامبرت فى نفسه دون مناسبة : « وفضلا عن ذلك ، فأن هذه اللبؤة الصغيرة ستقضى على البينوس » .

وما أن خرج الدكتور ، حتى عاد ريكس الى جانب مارجوت ، واستمر يرسمها فى تلكؤ ، وهو يصفر خلال

أسنانه طول الوقت .. ووقف ألبينوس بضع لحظات بالقرب منه ، يتتبع الحركة المنتظمة ليده البيضاء الناتئة العظام ، ثم ذهب الى غرفة مكتبه ليكمل مقالا يكتبه عن معرض اختلفت فيه الآراء وكثر عنه الحديث . وعندئذ قال ريكس وهو يقهقه ضاحكا : « انه شيء بديع ، ان أكون صديق العائلة ! »

فالتفتت مارجوت اليه وقالت غاضبة : « نعم . انني حقا أحبك يا قبيح الصورة ، ولكن ما من شيء يمكن عمله .. وأنت نفسك تعرف ذلك ! »

فأقفل علبة السجائر ، وألقى بها فراحت تدور حول نفسها حتى استقرت على المائدة ، وقال لها : « اسمعى يا عزيزتى .. انك ستأتين عندى ذات يوم .. هذا واضح . ولاشك أن زياراتى هنا بهيجة وسارة ، الا أننى سئمت هذه المهزلة » . فقالت : « أول كل شيء ، أرجو ألا تصيح هكذا .. انك لن ترتاح ما لم نرتكب أمرا طائشا وخيم العاقبة .. **فهو خليق بأن يقتلنى او يطردنى لأتفه ريبة او اثارة .. وعندئذ لن نجد نحن الاثنان مليما واحدا ! »**

وضحك ساخرا وهو يقول : « يقتلك ؟ .. ان هذا كثير بالنسبة اليه » . فقالت له : « أرجو أن تنتظر قليلا .. ألا تفهم ؟ .. لو أنه تزوجنى ، لصرت أقل اضطرابا واكثر حرية فى التصرف كما أشاء .. فالزوجة لا يمكن التخلص منها بهذه السهولة .. وفضلا عن ذلك ، فهنالك الفيلم .. ان عندى كل أنواع المشاريع » . فضحك ريكس — مرة أخرى — قائلا : « الفيلم ؟ » .. فقالت : « نعم ، وسوف ترى .. فانني متأكدة من انه سيكون عظيما .. يجب ان تصبر ، فان الصبر يعذبنى مثلك يا حبيبى » .

وجلس على حافة أريكتها ، ومر بيده على ذراعها ،



.. « واين العاشقان اليوم ؟.. ذانك اللذان يتعانقان فى كل ركن ..
ألا يسمونهما كذلك ؟ »

(ص ١٧٤)

فقالت مرتجفة ! « كلا . كلا ! » .. واغمضت عينيها نصف اغماضة . فقال لها : « قبلة واحدة صغيرة فقط ! » . وأجابت فى صوت متهافت : « صغيرة جدا ! »

فانحنى عليها . . ولكن ، اصطفق باب خارج الفرفة — فجأة — وسمعا ألبينوس يقترب ، وخطواته تدب على السجادة ، ثم على الارض ، ثم على السجادة ، ثم على الارض مرة أخرى .. **وهم ريكس بأن يتراجع ، الا أنه أبصر — فى ذات اللحظة — زرا فى سترته قد علق بالدانتيلا التى على كتف مارجوت** .. وحاولت مارجوت أن تخلصه بخفة ، بينما راح ريكس يشده ، ولكن « الدانتيلا » ابت ان تترك الزر . . وزمجرت مارجوت فى فزع ، وهى تنهش العقدة بأظافرها الحادة اللامعة .. وفى هذه اللحظة دخل « ألبينوس » الفرفة !

وقال ريكس ببرود : « كلا . اننى لا أقبل فراولين بيترز ، وانما كنت اساعدها على اتخاذ وضع مريح فى جلستها ، كما ترى ! » .. وكانت مارجوت ما تزال تعالج « الدانتيلا » دون أن ترفع أهدابها ، وقد أصبح الموقف مضحكا للفاية ، فاستمتع به ريكس كل الاستمتاع .. على أن ألبينوس أخرج — فى هدوء — مطواة ضخمة ذات عشر شفرات ، فأبرز منها مبردا صغيرا راح يحاول تخليص الزر به حتى كسر ظفره .. ومن ثم ازداد الموقف حرجا واضحاكا .. وقال ريكس : « بحق السماء ، لا تخزها بمبردك ! » . **فقال ألبينوس : « ارفعا ايديكما ! » .. ولكن مارجوت صاحت قائلة : « لا تقطع الدانتيلا ، بل اقطع الزر ! » .. فصرخ ريكس قائلا : « قف .. انه زرى »** .

وبدا فى هذه اللحظة أن كلا من الرجلين يسقط على أم رأسها .. ثم شد ريكس زره شدة أخيرة ، ففتق شيئا ما ،

ولم يلبث أن اصبح الزر طليقا .. وعندئذ قال له ألبينوس بلهجة غامضة : « تعال الى مكتبى ! » . فقال ريكس فى نفسه : « فلأكن ذكيا » .. وتذكر — فى هذه اللحظة — حيلة بارعة أعانته ذات مرة على خداع غريم له .

***

وقال ألبينوس وهو متجهم جدا : « اجلس من فضلك ، فان ما أريد قوله لك فى غاية الاهمية .. انه بصدد ذلك المعرض الذى أقامه وايت رافين ، فقد فكرت فيما إذا كان يعنيك ان تساعدنى .. انت ترى اننى انهى مقالا فيه حيطة ودهاء ، وتعلم ان كثيرين من العارضين يتلقون معاملة خشنة على يدى ! » .. فقال ريكس فى نفسه ساخرا : **« ألهذا تبدو مكروبا ؟.. أهو توجع العقل المتعلم ، ومخاض الالهام ؟.. بديع اذن ، بديع ! »**

ومضى ألبينوس قائلا : « أن ما أود منك أن تفعله ، هو أن توضح مقالى هذا ببعض الرسوم الكاريكاتورية ، التى نقدى .. وأنا اقدح الالوان واتجاه الخطوط معا ، كما فعلت مرة مع بارسيلو » . فقال ريكس : « اننى على استعداد ، ولكن لى — أنا الآخر — طلبا صغيرا .. ولعلك تعرف ما أعنى ؟ فاننى انتظر سداد بعض أتعابى ، بيد اننى محتاج للنقود الآن .. فهل تدفع لى مقدما مبلغا .. مبلغا زهيدا ؟.. كخمسمائة مارك ، مثلا » .

وقال ألبينوس : « طبعا ، بل أكثر من ذلك اذا أردت .. وعلى أية حال ، يجب أن تحدد أتعابا عن الرسوم التى اتفقنا عليها » . فسأله ريكس : « هل هذا « كتالوج » ؟ .. هل لى ان القى نظرة عليه ؟ » . تناول كتيبا ، وما لبث أن قال باشمئزاز واضح وهو يقلبه : « فتيات .. فتيات ..

فتيات شوارع ، فتيات ساقطات، فتيات مصابات بداء الفيل!»

فقال البينوس وهو يرمقه خفية : « لماذا بالله ؟ هل تضيق بالفتيات الى هذا الحد ؟ » .. واذ شرح له ريكس حقيقة رأيه فى الفتيات بصراحة ، قال له البينوس : « انها ليست الا مسألة ذوق فيما أعتقد .. وأنا بالطبع لا ألومك، فانني أعتقد أن هذا أمر شائع جدا بين الرجال ذوى المزاج الفنى .. وقد يسبب لى ذلك اشمئزازا اذا ابتلى به تاجر مثلا .. أما بالنسبة لرسام ، فان الامر يختلف كل الاختلاف .. وهو فى الواقع أمر لذيذ ، ورومانتيكى .. اخذناه عن روما » .. ثم اضاف قائلا : « بيد اننى أؤكد لك انك بذلك تفقد الشيء الكثير » .

واذ ذاك قال ريكس : **« كلا . أشكرك . فليست المرأة عندى سوى مخلوق ثديى اليف ، أو هى أحيانا جليس ظريف ! »** . فضحك البينوس قائلا : « حسنا .. فما دمت صريحا هكذا بصدد هذا الموضوع ، دعنى بدورى أعترف لك بأن تلك الممثلة كارنينا قالت بمجرد أن رأتك أنها متأكدة بأنك لا تهتم بالجنس اللطيف » .. فقال ريكس فى نفسه : « أوه . هل قالت ذلك ؟ »

الفصل العشرون

ومرت أيام قليلة . **كانت مارجوت خلالها تسعل . ولما** كانت شديدة الخوف على نفسها ، فقد حرصت على البقاء بالمنزل .. واذ لم يكن ثمة ما تفعله ــ لاسيما أن القراءة لم تكن من فضائلها ــ راحت تسلى نفسها بالطريقة التى علمها اياها ريكس .. وهى ان تستلقى مسترخية على خليط جميل من الوسادات ، **وتنتقى من دليل التليفون أرقاما ،**

كيفما اتفق ـ لاشخاص وحوانيت وشركات أعمال ـ وتروح تتحدث الى أولئك الذين لا تعرفهم على الاطلاق .. وقد طلبت بهذه الطريقة ارسال زهور زنبق وجهاز راديو وأشياء أخرى الى عناوين اختارتها اعتباطا .. وسخرت من مواطنين أفاضل ، ناصحة زوجاتهم بأن يكن أقل سذاجة .. وراحت تدير كل رقم ـ من ارقام معينة ـ عشر مرات متوالية ، ومن ثم ألهبت نار الغيظ والقنوط فى صدور السادة « تروم » و « بوم » ، و« كاسيبير » .. وقد تلقت عددا من عبارات الغرام الرائعة ، وعددا أكبر من الشتائم واللعنات ..

وفيما هى كذلك ، دخل « البينوس » ووقف يراقبها وعلى فمه ابتسامة هيام مدلهة .. وكانت تطلب تابوتا لمن تدعى « فراو كيرشهوف » .. وكان الكيمونو الياباني الذى ترتديه محلولا ، وقدماها الصغيرتان تتأرجحان فى سرور خبيث ، وعيناها الواسعتان ـ وهى تنصت ـ تتحركان فى حدقتيهما ذات اليمين وذات اليسار .. والبينوس واقف فى سكون ، على قيد خطوات منها ، يكاد يذوب من فرط الشغف بها ، وهو خائف أن يقترب منها فيفسد متعتها ..
وما لبثت أن طلبت « البروفيسور جريم » ، وراحت تحكى له قصة حياتها ، وتتوسل اليه أن يقابلها عند منتصف الليل .. بينما كان « البروفيسور » ـ فى الطرف الآخر من الخط ـ يجادل نفسه فى اهتمام خطير ، متسائلا فى حيرة مؤلمة عما اذا كانت هذه الدعوة لعبة ساخرة ، أو هى من نتائج شهرته كأستاذ فى علم الاسماك وطبائعها !

وبسبب عبث مارجوت فى التليفون ، لم يكن غريبا ان ظل بول يحاول نصف ساعة أن يتصل بالبينوس ، ولكن دون جدوى .. وهو ما يفتأ يدير الرقم ثم يديره ، فلا

يجيبه فى كل مرة الا ذلك الازيز الذى لا يرحم . واضطر – أخيرا – الى أن ينهض ، وقد شعر بدوار ينتابه ، فارتمى فى مكانه مرة أخرى .. وكان الارق قد لازمه فى الليلتين الماضيتين ، فهو مريض ، وهو غارق فى لجة من الكمد .. ولكن واجبه – مهما يكن الامر – أن يتصل بألبينوس . وقد قرر أن يتصل به ، الا أن ذلك الازيز المتصل جعله يعتقد أن القدر قد صمم على أن يحبط عزمه . ولكنه كان عنيدا : فاذا كان قد أخفق فى انجاز الامر بهذه الطريقة ، فليجرب طريقة أخرى ..

وذهب على أطراف أصابعه الى غرفة ايرما .. وكانت مظلمة ، وساكنة ، برغم وجود عدة أشخاص بها .. ولمحت عينه مؤخر رأس أخته ، ومشطها الخلفى ، والشال الصوف الذى يحيط بكتفيها .. فاستدار فجأة فى حزم ، وخرج الى البهو ، فتناول معطفه فى عجلة – وهو يزفر ويكتم نشيجه – وانطلق ليأتى بألبينوس . فلما وصل ، قال لسائق السيارة « انتظر » ، ثم نزل على الطوار امام المنزل المألوف ..

وكان يدفع الباب الخارجى ، حين كان ريكس يهم بصعود السلم ، وقد دخلا معا ، فى ذات اللحظة . ونظر كل منهما للآخر ، ثم قال بول متجهما : « هل انت فى الطريق الى مسكن الهر البينوس ؟ » .. فابتسم ريكس وهز رأسه ، فقال له بول : **« اذن دعنى أقل لك انه لن يمكنه استقبال أى زائر الآن ، فأنا شقيق زوجته ، وعندى أخبار له فى غاية السوء ! »** . واذ ذاك قال ريكس فى رفق : « هل تود أن تعهد الى برسالتك ؟ »

وكان بول يعانى من ضيق التنفس ، فتوقف على السلم ، وبرأس منكس – كأنه الثور – نظر الى ريكس الذى كان

يحدق فى وجهه اللاهث المخضل بالدموع .. فقال بول أخيرا ، وهو يتنفس بصعوبة : ((**انصحك بأن تؤجل زيارتك .. فان طفلة زوج أختى تموت !**)) .. واستمر يصعد السلم وريكس يتبعه ببطء .. واذ سمع خطواته الوقحة خلفه ، أحس بالدم يندفع الى رأسه ، ولكنه كان يخشى أن تشتد عليه نوبة الربو ، فكبح انفعاله .. حتى اذا بلغا باب الشقة ، استدار مرة أخرى الى ريكس وقال له : ((اننى لا أعرف من أنت ولا ماذا أنت ، ولكننى لا أفهم سبب اصرارك)) .

وأجاب ريكس فى تودد قائلا : ((أوه .. ان اسمى اكسيل ريكس .. وأنا هنا فى بيتى !)) .. ثم مد أصبعه الطويل الابيض ، وضغط الجرس الكهربائى . فقال بول فى نفسه : ((هل أضربه ؟)) .. ثم قال : ((ولكن ماجدوى ذلك الآن ؟ كل ما يهمنى أن أؤدى المهمة بأسرع ما يكون)) .

***

وفتح الباب لهما خادم قصير أشيب الشعر - وكان ((اللورد)) قد طرد من الخدمة - فقال ريكس وهو يزفر : ((قل لسيدك ان هذا السيد ..)) . ولكن بول بادره قائلا : ((اخرس أنت !)) ، وراح - وهو واقف فى وسط البهو - يصيح بأعلى صوته : ((البير .. البير !))

واذ وقعت عينا البينوس على وجه شقيق زوجته المتجهم ، اندفع نحوه فى ارتباك ، وزلقت قدمه فتمالك نفسه ، ثم وقف لا يريم حراكا . فقال بول وهو يضرب الارض بعصاه : ((**ان ايرما مريضة فى حالة خطرة .. فالافضل أن تأتى فورا !**))

وساد السكون هنيهة ، وقد وقف ريكس يرقبهما فى

فضول شره .. وفجأة دوى صوت مارجوت المجلجل ـ من داخل غرفة الجلوس ـ قائلة : « البير .. اريد أن أتحدث اليك ! » . فقال ألبينوس متلعثما : « ها أنذا آت حالا » .. وأسرع الى غرفة الجلوس .. وكانت مارجوت واقفة وذراعاها معقودان على صدرها .. فقال لها : « ابنتى الصغيرة مريضة فى خطر .. وأنا ذاهب لأراها حالا » . فصاحت مارجوت فى غضب قائلة : **« انهم يكذبون عليك .. انها مكيدة يغرونك بها لتعود اليهم ! »**

فقال متوسلا : « أرجوك يا مارجوت .. من أجل الله ! » . فأمسكت يده قائلة : **« وما رأيك فى أن أذهب انا معك ؟ »**

فتوسل اليها مرة أخرى قائلا : « كفى بالله يامارجوت ! .. يجب أن تفهمى .. أين معطفى ؟ أين معطفى ؟ .. انه ينتظرنى » . فقالت : « انهم يعبثون بك .. لن ادعك تذهب ! » . وعاد يقول متلعثما ، وقد فتح عينيه الى أقصى اتساعهما : « انهم ينتظروننى » .. فقالت : « اذهب اذا جرؤت ! »

وكان بول واقفا فى مكانه السابق من البهو ، ينقر الارض بعصاه .. وجاء ريكس بصندوق صغير مطعم بالميناء ، وقدم لبول بعض الحلوى ، ولكن الاصوات كانت تتصاعد ثائرة من غرفة الجلوس ، فأزاح بول الحلوى بمرفقه وسكبها على الارض .. وضحك ريكس ، بينما استمر هدير الاصوات .. فزمجر بول قائلا : « لا فائدة ! » ، ثم اندفع الى الخارج ونزل السلم مسرعا .

واذ عاد الى داره سألته المربية فى همس : « وبعد ؟ » . فقال : « كلا ، انه لن يأتى » .. وغطى عينيه بيده لحظة وسعل ، ثم دخل على أطراف أصابعه الى غرفة « ايرما » . ولم يكن ثمة شىء قد تغير فى الغرفة ، **وقد راحت ايرما تطوح راسها يمنة ويسرة فى بطء ـ وبحركة رتيبة ـ فوق**

الوســادة ، وعينــاها نصف المفتوحتين مظلمتان ..
ومن لحظة لاخرى كانت تنتــابها نوبة فواق .. وراحت اليزابيث تمر بيدها على الفراش تحتها ، وكأنها تمهــده بحركة آلية لا وعى فيها..وفى هذه اللحظة ، سقطت ملعقة من على المائدة ، فظل صوتها يطن فى آذان الجالسين وقتــا طويلا . وتقدمت ممرضة المستشفى الى الطفلة المسجاة ، وراحت تعد نبضهــا ، ثم طرفت بعينهــا ، واعــادت اليد الصغيرة فى حذر ، كما لو كانت تخاف أن تؤذيها !

وهمست اليزابيث قائلة : « ربما تكون عطشانة ! » . فهزت الممرضة راسها .. وسعل شخص ما فى الغرفةسعلة خافتة ، فحركت ايرما رأسها ، ورفعت ركبتها الواهنــة تحت الغطاء ، ثم أعادتها مرة أخرى ببطء شديد ..وارتفع صرير الباب ، ثم دخلت الممرضة وهمست بشىء ما فى أذن بول ، فهز رأسه ، وخرجت .. ثم ارتفع صرير الباب مرة أخرى ، ولكن اليزابيث لم تحول رأسهــا ..

***

ووقف الرجل الذى دخل ، على بعدخطوتين من الفراش.. ولمح فى غير وضوح شعر زوجته الاشقر ، ولكنه رأى ـ بجلاء آلمه ـ وجه ايرما ، بفتحتى أنفها الصغيرتين السوداوتين، والبياض الضارب الى الصفرة يكسو جبينها المستدير ..

وظل جامدا فى وقفته وقتــا طويلا ، وهو فاغر فاه .. وشخص ما ـ هو ابن عم بعيد له ـ يمسكه من تحت ابطه.. ثم وجد نفسه جالسا فى غرفة مكتب بول .. وكانت تجلس على الاريكة التى فى الركن سيدتان ، لم يستطع أن يتذكر اسميهما ، وقد راحتا تتحدثان فى همس .. **وتولاه شعور غريب بأنه لو تذكر اسميهما ، لعاد كل شىء على ما يرام**

مرة أخرى .. وكانت مربية « ايرما » تبكي وهي منكفئة على مقعد طويل .. وثمة رجل فاضل كبير السن ـ ذو جبهة واسعة صلعاء ـ يقف وهو يدخن عند النافذة، ومن حين لآخر يغير وضع قدميه .. وعلى المائدة طبق زجاجى كبير ممتلىء بالبرتقال .

وتمتم « البينوس » ، وهو يرفع حاجبيه ، قائلا دون أن يوجه كلامه الى شخص معين : « لماذا لم يرسلوا الى من قبل ؟ » .. وتجهم وجهه ، وهز رأسه ، وراح يضغط مفاصل أصابعه ، ثم ساد السكون .. وكان « المنبه » يطقطق على رف غرفة المائدة .. وخرج « لامبرت » من غرفة « ايرما » ، فسأله البينوس فى صوت متحشرج قائلا: « ماذا يا دكتور ؟ » .. **ولكن لامبرت استدار الى الرجل الفاضل الكبير السن ، الذى هز أكتافه هزا خفيفا وتبعه الى غرفة المريضة .**

ومضى وقت طويل .. وكان الظلام فى النوافذ حالكا ، وما من احد قد اهتم باسدال الستائر . وأخذ البينوس برتقالة وراح يقشرها ببطء .. وكان الثلج يتساقط فى الخارج ، ولم تكن تتصاعد من الشارع سوى أصوات مكتومة خافتة .. ومن وقت لآخر كانت تنبعث همهمة من جهاز التدفئة .. وما لبث أن تصاعد من الطريق صوت رجل يرسل صفيرا ذا أربع نغمات .. ثم غرق كل شيء فى السكون مرة اخرى .. وراح البينوس يأكل البرتقالة فى بطء .. وكانت مرة جدا .. وفجأة جاء بول ، ودون أن ينظر الى أى شخص تفوه بكلمة واحدة قصيرة ، فتبعه « البينوس » ..

وفى حجرة « ايرما » ، رأى ظهر زوجته ، وهى منحنية ـ بلا حراك ـ فوق الفراش ، ممسكة كوبا فى يدها .. ثم وضعت ممرضة المستشفي ذراعها حول كتفيها وقادتها الى

الظلام .. فتقدم ألبينوس نحو الفراش ، وفى لحظة أبصر لمحة غائمة من الوجه الصغير الميت ، والشفة الرقيقة الشاحبة والاسنان الامامية المكشوفة ، وسنة من أسنان اللبن المفقودة .. ثم أظلم كل شىء ، أمام عينيه ، فاستدار وسار فى حذر شديد - محاولا ألا يصطدم بأى شخص أو أى شىء - وخرج .. وكان الباب الخارجى مغلقا ، بيد أنه لم تلبث أن نزلت سيدة مخضبة الوجه بالاصباغ ، فتحته وأدخلت رجلا يغطيه الثلج .. ونظر ألبينوس فى ساعته ، فاذا الوقت قد جاوز منتصف الليل .. فهل حقا قضى هنالك خمس ساعات ؟

ومشى على الطوار الابيض الناعم الذى كان يئز تحت قدميه ، وهو لا يصدق ما حدث . فقد كان يتصور ايرما على الدوام - فى مخيلته - جالسة فى حيوية مدهشة على ركبتى بول ، أو واقفة تداعب كرة خفيفة وتضربها فى الحائط بيديها .. والآن ها هى العربات تنعق وكأنما لم يحدث شىء ، والثلج يتألق كأنه فى ليلة عيد الميلاد وقد انسكب عليه ضوء المصابيح .. وكانت السماء مظلمة ، الا انها على البعد - خلف سقوف القصور العظيمة - كان ظلامها يختلط بحمرة ملتهبة قانية .. وفجأة تذكر اسمى السيدتين اللتين كانتا تجلسان على الاريكة : انهما بلانش وروزا فون ناخت .

وأخيرا وصل الى البيت .. وكانت مارجوت مستلقية على ظهرها وهى تدخن فى تلذذ . وتذكر ألبينوس - فى غموض - أنه تشاجر معها شجارا بشعا ، ولكن هذا لم يعد ذا أهمية .. وظلت تتابع حركاته فى سكون ، وهو يذهب ويجىء فى الغرفة ، ويجفف وجهه الذى بلله الثلج .. كل ما أصبحت تشعر به هو الرضا والارتياح الناعم .. وقد غادرها ريكس منذ هنيهة ، راضيا مرتاحا كذلك !

الفصل الواحد والعشرون

لعلها كانت المرة الاولى – فى غضون السنة التى قضاها ألبينوس مع مارجوت – التى تبينت له فيها تلك الطبقة الموحلة من الخسة والدناءة التى رانت على حياته .. وبدا له – فى وضوح براق – أن القدر يدفعه دفعا لأن يعود الى وعيه ويسترد ما أضاعه من رشده ، وقد جلجل فى أذنيه نداءه الداوى ، **فأصبح يدرك – فى هذه اللحظة – اية فرصة نادرة أتاحها له القدر ليرفع حياته الى مستواها السابق ..** وأيقن – فى صفاء الحزن الذى راح يصهره – انه لو عاد الى زوجته فى هذه الظروف ، فان الصلح – الذى كان يبدو فى الظروف العادية مستحيلا – سيأتى بطبيعة الحال من نفسه ..

واستهوته بعض ذكريات تلك الليلة ، وسلبته سكينة نفسه .. تذكر كيف نظر اليه بول فجأة – فى ضراعة دامعة – ثم ضغط على ذراعه وهو يستدير ضغطا خفيفا .. وتذكر كيف أبصر فى المرآة لمحة خاطفة من عينى زوجته ، وفيهما تعبير يمزق القلب .. تعبير ملؤه العذاب والضنى ولكنه ما زال ينطوى – مع ذلك – على استعداد للبشاشة ، والابتسام .. **ولقد فكر وتمعن فى كل شىء بتأثر عميق .. أجل ، لو أنه ذهب الى جنازة ابنته الصغيرة ، فسيبقى مع زوجته الى الابد !**

وطلب بول تليفونيا ، فأنبأته الخادم بمكان الدفن وميعاده.

* * *

وفى الصباح التالى ، نهض من نومه مبكرا .. وكانت مارجوت لا تزال نائمة ، فأمر الخادم بأن يأتيه بحلته

السوداء وقبعته العالية .. وبعد أن احتسى بعض القهوة في عجلة ، ذهب الى الغرفة ـ التى كانت فيما سبق غرفة ايرما ، فأصبحت تشغلها طاولة طويلة عليها شبكة خضراء ـ وأمسك بكرة صغيرة من « السليلود » ، ثم تركها تقفز على المنضدة .. وفى هذه اللحظة ، لم يتراء لعينيه خيال ابنته ، وانما تمثل طيف فتاة لطيفة ، خفيفة ، لعوب ، تضحك وقد انحنت على المنضدة ورفعت احدى قدميها ، وهى تضرب « كرة البنج بونج » ! .. **صورة « مارجوت » فى أول زيارة لها لهذا المسكن !**

وحان الوقت .. لسوف يكون بعد لحظات قليلة متأبطا ذراع اليزابيث ، أمام قبر مفتوح .. وألقى بالكرة الصغيرة على المنضدة ، وهرول مسرعا الى غرفة النوم كى يرى مارجوت نائمة لآخر مرة .. ووقف بجانب الفراش يمتع عينيه بمرأى ذلك الوجه الصبيانى ، ذى الشفتين الناعمتين اللتين بلون القرنفل ، والخدين النضيرين اللذين يحكيان الورد .. وفى هذه اللحظة تذكر ليلتهما الاولى معا ، **وسرت فى بدنه قشعريرة من الجزع اذ تمثل حياته المقبلة بجانب زوجته الشاحبة الذابلة** .. لكم بدت له هذه الحياة كأنها كهف من تلكم الكهوف الطويلة المظلمة الموحلة ، التى لا تقع العين فيها الا على صندوق مغلق بالمسامير فوق عربة أطفال فارغة !

وحول عينيه ـ فى مشقة ـ عن الصبية النائمة ، وعض ابهامه فى كمد ، ثم سار الى النافذة ، وكانت مخضلة بذوب الثلوج .. والعربات تنطلق فى الطريق الموحل مثيرة الرذاذ حولها .. وعند المنحنى ، كان ثمة رجل رث الشياب يبيع زهور البنفسج .. وطيف رقعة شاسعة لامعة من السماء ذات الغيوم المسرعة ، ينعكس على لوح زجاجى ، تكب على تنظيفه

فتاة عارية الذراعين .. وفجأة ، سألته مارجوت فى صوت متكسر يقطعه التثاؤب قائلة : « لماذا أنت مستيقظ مبكرا جدا هكذا ؟ اين انت ذاهب ؟ » . فقال دون أن يستدير : « لست ذاهبا الى أى مكان ! »

الفصل الثانى والعشرون

قالت له ، بعد أسبوعين : « لا تكن حزينا هكذا ياحبيبى .. اننى أعلم أن الامر كله محزن جدا ، ولكنهم كانوا قد أصبحوا أقرب الى الغرباء بالنسبة اليك ، وأنت نفسك تحس بذلك ، وقد أوغروا — بطبيعة الحال — صدر الطفلة ضدك .. **صدقنى أننى أدرك ما يعتمل فى أعماق نفسك .. ولو أننى أستطيع انجاب طفل ، لفضلت أن يكون ولدا ! »** . فقال البينوس ، وهو يربت على شعرها : « أنت نفسك .. طفلة ! » . وواصلت كلامها قائلة : « اليوم ، دون الايام جميعا ، يجب أن نكون فرحين .. فاليوم بداية مستقبلى ، ولسوف أكون مشهورة » . فقال : « أجل . لقد نسيت .. متى ذلك ؟ أحقا اليوم ؟ »

وكان ريكس يتسكع فى الداخل ، اذ كان — فى المدة الاخيرة — يلازمهم كل يوم ، **وقد كشف له البينوس مكنون قلبه فى مناسبات عديدة ، وأفضى اليه بما لم يكن يستطيع أن يقوله لمارجوت** . وكان ريكس ينصت اليه فى تودد ، ويعلق على حديثه بعبارات نابضة ، مرهفة ، ويبدى له من اللطف والعطف ما جعله يشعر بأن فترة تعارفهما القصيرة لا يمكن أن تكون مقياسا لاحساسه الباطن ، ذلك الاحساس الروحى الذى سرعان ما نما ونضج واكتمل .

وكان مما قاله ريكس وهو يحدثه : « ان المرء لا يمكن أن

يبنى حياته على وعثاء كارثة حلت به .. فهذا اثم فى حق الحياة .. وقد كان لى - فى يوم من الايام - صديق مثال، كان تقديره للجمال لا حد له ، ثم اذا به فجأة يتزوج - مع الاسف - فتاة حدباء ، قبيحة الشكل طاعنة فى السن .. ولست ادرى بالضبط ماذا حدث ، الا انهما ذات يوم - بعد زواجهما بقليل - حملا حقيبتين صغيرتين ، لكل منهما واحدة ، وذهبا على اقدامهما الى اقرب مستشفى للمجاذيب! **ولذلك فاننى أعتقد أن الفنان يجب الا يسلس قياده الا لشىء واحد .. هو احساسه بالجمال ، فهو لن يخدعه أبدا)).**

وقال فى مناسبة اخرى : « ان الموت فيما يبدو ليس الا عادة سيئة ، تعجز الطبيعة فى الوقت الحاضر عن التغلب عليها .. كان لى ذات مرة صديق عزيز ، وكان شابا جميلا ممتلئا بالحياة ، له وجه ملاك ، وعضلات نمر .. وقد جرح نفسه وهو يفتح علبة من علب الخوخ المحفوظ - ذلك النوع الكبير الناعم الذى يذوب فى الفم - فمات بعد أيام قليلة نتيجة تسمم فى الدم .. فيا له من أمر فظيع ، أليس كذلك ؟ .. ومع ذلك فقد اعتبر حادثته تلك عملا من أعمال الفن - وان كان هذا غريبا بلاشك - لأن صورة حياته ماكانت لتكتمل هكذا لو انه عاش حتى تقدمت به السن وصار كهلا محطما .. وهكذا ، فكثيرا ما يكون الموت مزحة من مزح الحياة ! »

* * *

وكان ريكس - فى مثل هذه المناسبات - يستطيع ان يتكلم الى ما لا نهاية ، دون أن يتولاه الكلل ، مختلقا القصص عن أصدقاء من نسج الخيال ، وعارضا على المستمع اليه أفكارا غير عميقة ، بيد أنها ملفوفة فى غلاف براق . فقد

كانت ثقافته خليطا مهوشا ، ولكن عقله كان ذكيا لماحا ، وولعه بالسخرية من أصدقائه كان يبلغ حد العبقرية والنبوغ. **ولعل الشيء الوحيد الصادق فيه هو اقتناعه الفطرى بأن كل ما ابتدع فى ميدان الفن أو الفكر أو العلم انما هو خدعة ذكية ، بدرجة تزيد أو تنقص** . فقد كان بوسعه دائما أن يجد شيئا سريعا يقوله ، ويتفق مع مزاج المستمع اليه أو اتجاه تفكيره — مهما يكن موضوع الحديث — وان كان بوسعه — فى ذات الوقت — أن يكون وقحا متغطرسا اذا أساء هذا المستمع اليه . وكان — حتى حين يتكلم فى جدية تامة عن كتاب أو صورة — يشعر فى شيء من اللذة الماكرة بأنه شريك فى مؤامرة ، مع دجال شريف .. هو مؤلف الكتاب أو راسم الصورة .

لذلك راح يرقب — فى تلذذ — آلام ألبينوس ، الذى كان يعتقد أنه أبله ، ساذج العاطفة ، وان كان يتمتع بمعرفة راسخة فى فن الرسم . وكان يقول فى نفسه — فى توقع جذل ان ذلك الرجل المسكين يحسب انه قد لمس اعمق اغوار الألم البشرى ، فى حين انه لم يبلغ سوى الفصل الأول من كوميدية صاخبة ، احتفظ هو — ريكس — فيها بمقعد فى المقصورة الخاصة لمدير المسرح . **ولم يكن مدير المسرح فى هذه الكوميدية هو الله ، ولم يكن هو الشيطان ، فقد كان الأول وقورا لا يحب المهازل ، وكان الثانى قد أتخمته آثام الآخرين حتى ضاق بنفسه وبالآخرين** ، فكان كئيبا كالمطر المتساقط عند الفجر فى ساحة السجن ، حيث ينفذون حكم الاعدام فى أحمق مسكين قتل جدته .. وانما كان مدير المسرح — الذى يتمثله ريكس — هو « بروتس » سحرى فى قصة خيالية ، يتذبذب كأنه شبح مشعوذ على ستارة متألقة .. او هذا —

على اى حال ـ ماكان يتخيله ريكس فى اللحظات النادرة التى يفكر خلالها تفكيرا فلسفيا .

كان يأخذ الحياة باستهانة واستخفاف ، وكان الشعور الانسانى الوحيد الذى راوده هو شغفه الشديد بمارجوت .. ذلك الشغف الذى كان يحاول أن يرده فى نفسه الى تكوين جسدها ، وشذى بشرتها ، وملمس شفتيها ، وحرارة الشهوة النابعة منها . الا أن هذا كله لم يكن هو علة هيامه بها ، وانما كانت العلة الحقيقية لتلك العاطفة ـ التى يتبادلانها ـ أنها كانت تقوم على تجانس عميق بين روحيهما ، برغم أن مارجوت كانت فتاة برلينية سوقية ، بينما كان هو فنانا عالميا !

وحين جاء ريكس ، فى ذلك اليوم بالذات ، قال لها ـ وهو يعاونها فى ارتداء معطفها ـ انه استأجر حجرة يلتقيان فيها بعيداً عن الرقباء . فرشقته بنظرة غاضبة ، لأن البينوس كان واقفا يربت جيوبه على بعد عشر خطوات فقط منها .. فاطلق ريكس ضحكة مكبوتة ، واسترسل قائلا ـ دون أن يخفض صوته ـ أنه سينتظرها هناك كل يوم فى ساعة معينة .. **وقال لألبينوس فى تلطف ، وهما ينزلان السلم : « أننى أدعو مارجوت الى موعد ، ولكنها لاتريد أن تأتى ! »** . فابتسم البينوس ـ وهو يقرص خد مارجوت فى هيام ـ قائلا : « دعها فقط تحاول ! » . ثم أضاف وهو يلبس قفازه : « سنرى الآن كم أنت بارعة فى التمثيل ، ياعزيزتى » .

وقال ريكس : « غدا الساعة الخامسة يا مارجوت .. ما رأيك ؟ » . فقال البينوس : « غدا ستنتقى الطفلة لنفسها سيارة خاصة ، ولذلك فلن يمكنها ان تأتى اليك » . فأجاب ريكس قائلا : « أن لديها فى الصباح متسع من الوقت لتختار .. فهل ميعاد الساعة الخامسة مناسب لك يا مارجوت ؟

.. أم نقول السادسة؟» . وهنا ثارت مارجوت فجأة وقالت وهى تجز على أسنانها : « ياله من مزاح سخيف ! » .. فضحك الرجلان وتبادلا نظرات جذلة .

وكان البواب يتحدث مع عامل البريد فى الخارج ، فنظر اليهم فى استغراب وهم يمرون ، حتى اذا ابتعدوا بحيث لا يسمعونه قال : «**لايمكن تصديق ذلك .. لقد ماتت أبنة هذا السيد منذ اسبوعين !**» . فتساءل عامل البريد : «ومن هو السيد الآخر ؟ » . فأجاب البواب قائلا : لاتسألنى .. **أنه عاشق أصافى فيما أعتقد** . والحق اننى خجل من أن يرى السكان الآخرون هذا كله .. ومع ذلك فهو رجل غنى وكريم ، وأنا اقول فى نفسى دائما انه اذا كان لابد أن يتخذ له عشيقة ، فكان ينبغى أن يختار واحدة اكبر من هذه حجما وأكثر امتلاء ! » .. فقال عامل البريد وهو مستغرق فى التفكير : « الحب أعمى ! »

الفصل الثالث والعشرون

كان « الفيلم » معدا للعرض فى قاعة صغيرة ، ليشاهده عشرون من الممثلين والضيوف .. وأحست مارجوت برجفة من السعادة تسرى فى ظهرها . **ولمحت غير بعيد ، مخرج «الأفلام» الذى شعرت فى مكتبه ذات مرة أنها موضع سخرية واستهزاء ، وقد تقدم نحو البينوس ، فقدمه هذا اليها ..** وكانت تعلو جفن عينه اليمنى « زبيبة » صفراء كبيرة .. وغاظ مارجوت انه لم يتذكرها ، فقالت فى خبث ، «لقد جرى حديث بيننا منذ سنتين مضتا » ، فأجاب بابتسامة مؤدبة قائلا : « حقا .. أننى لأتذكر ذلك تماما ! » .. وما كان — فى الحقيقة — يتذكرها البتة !

وما ان انطفئت الأنوار ، حتى بدأ ريكس - وكان يجلس بين مارجوت وألبينوس - يبحث بيده فى الظلام عن يدها . فلما عثر عليها ، راح يضغطها .. وأمامهما كانت «دوريانا كارنينا» فى ثوبها الفرو الفاخر - برغم حرارة الجو - تجلس بين مخرج الفيلم والمخرج الآخر ذى الزبيبة ، الذى كانت تحاول جهدها أن تبدى له غاية التلطف والظرف .

وبدأ العرض فظهر على الشاشة عنوان الفيلم ، ثم أسماء الممثلين ، تتراقص فى رجفة خجول . وكانت آلة العرض ترسل طنينا خافتا مطردا ، كأنها آلة تنظيف بعيدة ، ولم يكن ثمة موسيقى .. ثم ظهرت مارجوت على الشاشة فى أول منظر ، وكانت تقرأ كتابا ، ثم أطبقته ، واتجهت - وهى تتخلع فى مشيتها - الى النافذة ، حيث كان خطيبها يمر بعربته .

وانتاب مارجوت الجزع ، حتى لقد سحبت يدها من يد ريكس .. فمن هى تلك المخلوقة الشوهاء الصفراء كالموتى ؟ .. كانت الفتاة التى على الشاشة فظة غليظة ، قبيحة الصورة ، ذات فم منتفخ ، ملتو بشكل عجيب ، أسود اللون .. وكان الحاجبان فى غير موضعهما ، والثوب متغضن بصورة منفرة .. وكانت تحدق امامها فى شراسة ، ثم اتكأت ببطنها على حافة النافذة ، مولية ردفيها نحو المتفرجين .. ودفعت مارجوت يد ريكس المتلصصة ، وهى تبغى أن تعض شخصا ما ، أو أن تلقى بنفسها على الأرض وتروح تركل الهواء بقدميها ! .. لم تكن هذه الخلقة الشائهة - التى بدت على الشاشة - تمت اليها بأية صلة .. كانت فظيعة ، فظيعة !.. كانت فى الحقيقة تشبه أمها ، زوجة البواب ، فى صورة زفافها !

وقالت لنفسها فى تعاسة : «لعلها ستتحسن بعد ذلك !» .

ومال عليها ألبينوس ، وقد كاد يعانق ريكس وهو يفعل ذلك ، وهمس فى رقة قائلا : «بديعة ، رائعة ! .. لم أكن أظن ..» .

كان حقا مفتونا ، فقد تذكر ـ بطريقة ما ـ سينما «آرجوس» الصغيرة ، حيث التقيا أول مرة ، وقد مس مشاعره أن يرى مارجوت وهى تمثل .. ومع أن تمثيلها كان شنيعا ، الا أنها ـ فى حماستها الصبيانية البهيجة ـ كانت تبدو كتلميذة تلقى قصيدة من الشعر فى عيد ميلاد .

وكان ريكس مسرورا كذلك ، فلم يكن لديه شك أبدا فى أن مارجوت ستفشل على الشاشة ، كما أنه كان موقنا من انها ستنتقم لنفسها من ألبينوس من أجل هذا الفشل ! .. كانت ـ بحكم رد الفعل ـ خليقة بأن توافيه غدا ، فى الساعة الخامسة تماما . فكل شيء اذن ، كان يسير على مايرام . وراحت يده تتلصص مرة أخرى ، بيد ان مارجوت مالبثت فجأة ان قرصته قرصة موجعة !

وبعد غيبة قصيرة ، ظهرت مرة أخرى على الشاشة : وكانت تتلصص خلسة أمام واجهات البيوت ، وهى تتحسس الجدران بيدها وتتطلع من فوق كتفها .. ومع ان حركاتها كانت غريبة بما فيه الكفاية ، الا أنها لم تثر أية دهشة لدى المارة فى الطريق .. وما لبثت أن دلفت الى مقهى هنالك ، حيث اوحت اليها روح طيبة بأنها قد تجد حبيبها فى صحبة امرأة رقيعة .. هى دوريانا كارنينا . فدخلت وقد بدا ظهرها مكتزا غليظا **.. وهنا قالت مارجوت فى نفسها : « دقيقة أخرى ثم انفجر صارخة ! »**

بيد أن صورتها ـ لحسن الحظ ـ اختفت من الشاشة حينذاك ، وظهرت مائدة صغيرة فى المقهى ، وعليها زجاجة فى دلو مملوء بالثلج . وقد بدا البطل يقدم سيجارة لدوريانا ثم يشعلها لها ـ وهى اشارة ترمز لدى كل المخرجين الى الحب الجديد ـ فطوحت دوريانا رأسها الى الخلف ، ونفثت الدخان ، وهى تبتسم بجانب واحد من فمها ..وهنا بدا

شخص ما فى القاعة يصفق ، فتبعه الآخرون .. ثم ظهرت مارجوت ، فانقطع التصفيق .. وفتحت مارجوت فمها - وكأنها لم تفتحه يوما فى الحياة الحقيقية - ثم عادت الى الشارع مرة أخرى ، برأس منكس وذراعين متراخيتين .

وهنا استدارت دوريانا - دوريانا الحقيقية التى كانت تجلس أمامها - وقد تألقت عيناها فى الظلام الخافت بعاطفة متلطفة ، وقالت بصوتها الاجش : « برافو . برافو . أيتها الفتاة الصغيرة » . فودت مارجوت لو خمشت وجهها بأظافرها وقد أصبحت تفزع من كل مرة تظهر فيها على الشاشة ، حتى لقد أحست بأنه توشك أن تفقد رشدها ، ولم تعد تقوى على قرص ريكس أو دفع يده المتشبثة الملحة . وما لبث أن شعر بأنفاسها الحارة فى أذنه وهى تزفر قائلة فى استرخاء : « حسبك من فضلك ، والا سأنتقل من مقعدى ! » .. فربت على ساقها وسحب يده .

* * *

وعادت العشيقة المهجورة - فى الفيلم - مرة أخرى . وكانت كل لحظة من لحظات ظهورها عذابا لمارجوت ، وقد شعرت بنفسها كأنما هى روح فى الجحيم والشياطين يعرضون أمامها شريطا مصورا على الارض . وقد ذكرتها هذه الحركات الفظة السمجة الحادة - التى كانت تعترى وجهها المنتفخ - بصورة أمها حين كانت تحاول ان تبدو مؤدبة نحو مستأجر من اصحاب النفوذ .

وهمس البينوس وهو يميل ناحيتها مرة اخرى قائلا : « هذا منظر ناجح جدا ! » . ولكن ريكس بدأ يتضايق من جلوسه فى الظلام ، يشاهد فيلما رديئا ، ورجلا ضخما يميل فوقه ، فأغمض عينيه وراح يتخيل الصور الكاريكاتورية

الصغيرة التى اعتاد أن يرسمها أخيرا لألبينوس ، ويفكر فى المشكلة المقلقة - برغم بساطتها - مشكلة الكيفية التى يمكنه بها أن يقتنص مبلغا آخر منه !

وكانت « الدراما » تقترب من نهايتها ، والبطل - بعد أن هجرته المرأة الرقيعة - يمشى تحت مطر سينمائى بارع ، ذاهبا الى صيدلية ليشترى لنفسه جرعة من السم . الا أنه تذكر أمه العجوز ، فاتجه - بدلا من ذلك - الى المزرعة التى يقيم بها أهله .. وهناك ، بين الدجاج والخنازير ، كانت حبيبته الأولى تلعب مع طفلهما غير الشرعى - وأن كان لم يعد غير شرعى الآن ، اذا حكمنا بالطريقة التى تطلع بها أبوه اليه من فوق السياج - وكان هذا أفضل منظر مثلته مارجوت . ولكن فجأة - وبينما كان الطفل يحبو نحوها - رفعت ثوبها الى أسفل بظهر يدها - على غير قصد - كما لو كانت تمسح يدها . فنظر الطفل شزرا اليها .. **وهنا رنت ضحكة فى القاعة ، فلم تحتمل مارجوت أكثر من ذلك ، وانفجرت باكية بصوت خافت !**

وبمجرد أن أضيئت الأنوار ، غادرت مقعدها وانطلقت تهرول مسرعة نحو باب الخروج .. وأسرع البينوس خلفها ، وهو ينظر اليها فزعا ، متوقعا الشر .. أما ريكس ، فقد وقف باسطا قوامه . فلمست دوريانا ذراعه - وكانت تقف بجانب الرجل ذو الزبيبة وهو يتثاءب - وقالت وهى تغمز بعينها : **« انه الفشل .. فيا للصبية الصغيرة المسكينة ! »** . فقال لها ريكس فى تساؤل متطلع : « وهل أنت راضية عن تمثيلك ؟ » . فقالت دوريانا ضاحكة : « هذا سر أقوله لك : أن الممثلة الحقيقية لا يمكن أن ترضى قط عن تمثيلها ! »

وقال ريكس فى هدوء : « .. ولا الجمهور أحيانا » ..

ثم أردف قائلا : « بهذه المناسبة ، قولى لى يا عزيزتى ، كيف اهتديت الى اسمك المسرحى ؟ .. اننى أفكر فى ذلك ! » . فقالت : « هذه قصة طويلة .. ولوانك أتيت لتناول الشاى معى ذات يوم ، فربما قلت لك المزيد عن ذلك .. أن الفتى الذى اقترح هذا الأسم قد انتحر ! » . فقال : « آوه ، لاعجب .. ولكن الذى أردت ان أعرفه .. قولى لى ، هل قرأت لتولستوى ؟ »

فرددت متسائلة : « دولزتوى ؟ .. كلا ، لم افعل .. لماذا ؟ »

الفصل الرابع والعشرون

كان ثمة منظر عاصف – فى البيت – وبكاء ، وعويل ، وتشنجات هستيرية ، وقد راحت مارجوت تلقى بنفسها فوق الأريكة ، وفوق السرير ، وفوق الأرض ، وعيناها تبرقان فى هياج وغضب ، بينما تدلى أحد جوربيها الى أسفل ، وغرق العالم كله فى الدموع .. وكان البينوس – وهو يحاول أن يسرى عنها – يستعمل بلا وعى ذات الكلمات التى استعملها ذات مرة ليسرى عن ايرما حين اصابها كدم ، بيد أن هذه الكلمات أصبحت – بعد أن ماتت ايرما – كلمات جوفاء !

وصبت مارجوت جام غضبها – أول الأمر – على البينوس ، ثم راحت بعد ذلك تشتم دوريانا بالفاظ شنيعة ، ثم هاجمت المخرج .. وفى عنفوان سخطها ، رمت جروسمان – الرجل العجوز ذا الزبيبة – باهانة ، خلال ذلك ، برغم انه لم يكن ذا شأن بالأمر كله .. وقال البينوس أخيرا : « حسنا .. سأفعل كل ما فى أمكانى من اجلك ، ولكني لا أرى أنه كان فشلا ، فى الحقيقة ، بل

لقد كان تمثيلك – فى كثير من المناظر – بديعا جدا .. ففى ذلك المنظر الأول مثلا – كما تعلمين – حين .. » . ولكنها صرخت وهى ترميه ببرتقالة : « امسك لسانك ! »

وعاد يقول : « ولكن ، انصتى لى ياحبيبتى .. أننى مستعد لأن أفعل اى شيء كى اجعل حبيبتى سعيدة .. والآن فلنأخذ منديلا نظيفا ونجفف دموعنا ، ولسوف أقول لك ما سأفعله .. **فالفيلم ملك لى ، وقددفعت ثمن هذا الهراء .. أقصد الهراء الذى صنعه شوارتز منه .. وسأرفض السماح بعرضه فى اى مكان ، وسأحتفظ به تذكارا لنفسى » .**

وقالت باكية : « كلا ، بل احرقه » . فقال : « حسنا جدا ، سأحرقه .. ويمكننى أن أؤكد لك ان دوريانا لن يسرها ذلك .. والآن ، هل نحن راضون ؟ » .. بيد أنها أستمرت تبكى ، ولكن فى خفوت . فقال لها : « هيا . هيا . كفى عن البكاء يا حبيبتى .. وغدا ستذهبين وتختارين لنفسك شيئا ما .. هل أقول لك ما هو ؟ .. أنه شيء كبير على أربع عجلات .. أنسيت ذلك ؟ .. ستشيرين الى السيارة التى تعجبك ، وربما .. » . وهنا ابتسم ورفع حاجبيه وهو يضغط فى مكر على كلمة ربما ، ثم أردف قائلا : « **وربما اشتريها لك ، ثم ننطلق بها اميالا واميالا .. ولسوف ترين الربيع فى الجنوب .. أليس ذلك بديعا يا مارجوت ؟ »**

فقالت عابسة : « ليس هذا هو المهم » .. فقال : « المهم أن تكونى سعيدة ، وستكونين سعيدة .. حتى اذا عدنا فى الخريف ، ستتلقين مزيدا من الدروس فى التمثيل السينمائى ، وسأبحث لك عن مخرج بارع حقا .. جروسمان مثلا » . فغمغمت قائلة فى رعشة : « كلا . ليس هذا » . فقال : « حسنا .. فليكن شخصا آخر اذن .. والآن ،

كونى طفلة عاقلة ، وجففى دموعك ، وهيا نخرج للعشاء .. ارجوك يا صغيرتى » .

وقالت وهى ترسل زفرة عميقة : « لن أكون سعيدة حتى تحصل على الطلاق ، فأننى أخاف أن تهجرنى الآن وقد رأيتنى فى ذلك الفيلم الفظيع .. أوه ، لو أن رجلا آخر فى مكانك نلطم وجوههم اذ جعلونى أبدو هكذا بشعة شنيعة ! .. كلا ، لن أجعلك تقبلنى ، حتى تقول لى هل فعلت شيئا بخصوص الطلاق ، أو تراك أهملت الأمر كله ؟ » . فراح ألبينوس يدمدم : « حسنا .. كلا .. أنت ترين .. الأمر هكذا .. أوه يا مارجوت ، أننا .. أقصد أن أقول أنها .. هى على الخصوص .. باختصار .. موت البنت جعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لى » . فصرخت مارجوت وقد وقفت على قدميها : « ما هذا الذى تقول ؟ .. أهى لاتعرف بعد أنك تريدها أن تطلقك ؟ »

وقال ألبينوس متلعثما : « كلا . لا أعنى ذلك ، فهى طبعا تشعر .. أقصد أن أقول انها تعلم .. اوبالأحرى .. » . وكانت مارجوت فى هذه الأثناء تبسط جسدها شيئا فشيئا الى أعلى ، كأنها الحية حين تنساب .. وقال البينوس اخيرا ، وكانت أول مرة فى حياته يكذب فيها عن اليزابيث : « الحقيقة أنها لن تطلقنى ! » . فصاحت مارجوت : « هل الأمر هكذا ؟ » .. وكانت فى تلك الاثناء تقترب منه ، حتى قال فى نفسه : « أنها ستضربنى » .

بيد أن مارجوت التصقت به .. وفى بطء وضعت ذراعيها حول عنقه ، وقالت وهى تريح خدها على صدره : « لا يمكننى أن أظل هكذا عشيقتك فقط .. لا يمكننى أبدا .. فأرجوك أن تفعل شيئا .. قل لنفسك غدا : أننى سأفعل ذلك من اجل حبيبتى الصغيرة ! .. فهناك محامون ،

ومن الممكن تدبير الأمر كله » . فقال لها : « سأفعل ذلك فى الخريف ! » . وتأوهت بصوت خافت ، ثم سارت الى المرآة فتأملت صورتها فى تراخ ، بينما كان ألبينوس يقول لنفسه : « الطلاق ؟ .. كلا ، كلا .. هذا خارج عن الموضوع ! »

الفصل الخامس والعشرون

حـول « ريكس » الحجرة التى استأجرها لمقابلاته مع « مارجوت » الى « أستوديو » ، وكانت كلما جاءته وجدته يعمل ، وهو ما يفتأ - أثناء الرسم - يصفر بفمه جذلا طروبا .. وكلما تطلعت الى خديه الناصعين - فى بياض الطباشير - وشفتيه الغليظتين القرمزيتين وقد تحولتا ، وهو يصفر ، الى حلقة مستديرة ، **تشعر بأن هذا الرجل يعنى كل شىء بالنسبة اليها** .. وكان يرتدى قميصا حريريا ذا ياقة مفتوحة ، وسروالا قديما من الصوف الناعم ، وهو يصنع العجائب بالحبر الهندى .

وراحا يلتقيان فى هذا المكان كل مساء تقريبا .. وقد ظلت « مارجوت » تؤجل يوم السفر ، بالرغم من شراء السيارة ، ومن حلول الربيع .

وقال ريكس لألبينوس ذات يوم : « لماذا تكلف نفسك عناء استخدام سائق لرحلتك ؟ .. اننى بارع فى قيادة السيارات كما تعلم » . فأجاب ألبينوس فى تردد : « هذا عطف عظيم منك ، ولكنى أخشى أن آخذك بعيدا عن عملك .. فنحن نعتزم أن نقوم برحلة بعيدة » . فقال ريكس . « أوه ! .. لاتشغل بالك بشأنى ، فانى أود التمتع بعطلة على أية حال .. بالشمس المشرقة ، بالعادات العتيقة العجيبة ، بالجولات الرائعة فى البقاع الغريبة ! »

اذ ذاك قال ألبينوس : «فى هذه الحالة سيسرنا ذلك» .. ثم راح ينظر الى مارجوت متسائلا فى قلق عن رأيها فى ذلك .. الا أن مارجوت - بعد تردد قليل - أبدت موافقتها قائلة : « حسنا ، فليأت معنا ! .. **انني أحبه حقا ، وان كان قد اعتاد مغازلتى بعبارات الغرام والتدله ، وهو يتأوه كأنما الأمر حقيقى .. وقد أتعبنى بذلك بعض الشىء ! »**

وفى اليوم السابق لرحيلهم ، أسرعت مارجوت - وهى فى طريقها من الحوانيت الى البيت - لمقابلة «ريكس» . وهنالك ذكرها منظر علبة الالوان ، والاقلام ، وشعاع الشمس الذى يخترق فضاء الغرفة - مثقلا بذرات الغبار - بالوقت الذى كانت تقف فيه عارية .. وقال لها ريكس فى استرخاء وهى تصبغ بالاحمر شفتيها : « لماذا أنت مستعجلة هكذا ؟ .. ان هذه آخر مرة ، ولا أدرى كيف سنتصرف أثناء الرحلة؟» . فأجابته وهى تضحك قائلة : « كلانا ذكى بما فيه الكفاية!»

* * *

وأسرعت الى الشارع ، ووقفت تجيل بصرها باحثة عن عربة ، ولكن الطريق المشمس كان خاليا ، فسارت على قدميها الى الميدان .. وراحت تفكر - كما كانت تفعل دائما وهى عائدة من غرفة ريكس الى المنزل - قائلة فى نفسها : « هل احيد الى اليمين ، ثم أعبر الحديقة ، ثم التزم اليمين مرة أخرى ؟ » .. فقد كان هنالك الشارع الذى عاشت فيه أيام طفولتها . **وأخيرا قالت فى نفسها : « ان الماضى آمن فى عشه ، فلماذ لا ألقى نظرة ؟ »**

ولم يكن قد تغير فى الشارع شىء : فها هو ذا الخباز عند المنحنى ، وها هو ذا حانوت الجزار - بلافتته التى رسم عليها رأس ثور مموه بالذهب - وقد ربط خارجه كلب

« البولدوج » الذى تملكه أرملة الضابط الساكنة فى المنزل رقم ١٥ .. الا أن المكتبة ـ التى كانت فى الشارع ـ تحولت الى حانوت حلاق . وكانت بائعة الصحف العجوز تجلس فى مكانها المعهود ، والحانة التى اعتاد « أوتو » أن يرتادها لا تزال على حالها .. وآخيراً كان هنالك البيت الذى ولدت فيه .. وكانت تجرى به أصلاحات تدل عليها «السقالات» المشدودة اليه ..

ولكنها لم تشـــأ ان تقترب أكثر من ذلك .. حتى اذا استدارت لتعود ، ناداها صوت مألوف لديها .. صــوت كاسبار ـ صـديق اخيها ـ وقد امتطى دراجة ذات اطار بنفسجى ، وعلق سلة أمامه على مقبضها .. وقال باسما فى قليل من الخجل : « أهلا بك يا مارجوت ! » ، ثم سار فى حذاء الطوار بجانبها .. لقد كان ـ حين رأته آخر مرة ـ ممتلئا ثقة واعتدادا .. بيد أنه كان يومئذ ضمن جمـاعة ، أو منظمة ، أو بالاحرى عصابة .. أما الآن وهو وحده فلم يكن سوى صديق قديم .

وتطلع اليهـــا قائلا : « كيف الحال يا مارجوت ؟ » . فأجابت ضاحكة : « بديع .. وكيف حالك أنت؟ » ..وكان جوابه : « أوه .. ليس فى حياتى الا انها تمضى . ولكن هل تعلمين أن أهلك قد انتقلوا من هنا ؟.. انهم يعيشون الآن فى شمال برلين .. يجب أن تزوريهم ذات يوم يا مارجوت. فان والدك لن يعيش طويلا ! » . فتساءلت : « وأين شقيقى العزيز ؟ » .. فأجابها : « لقد سافر .. وأعتقد أنه يعمل فى فيليفلد » .

وقالت عابسة ، وهى تسير على حافة الافريز : « انك تعرف كم كانوا يحبوننى فى المنزل .. ثم بعد ذلك هــل اقلقهم غيابى ؟ .. هل اهتموا بما حدث لى ؟ » . فسعل

كاسبار ، ثم قال : « انهم اهلك يا مارجوت ، على اية حال .. بيد ان امك اعتادت على هذا المكان ، فهى لاتحب المكان الجديد » .

وسألته وهى تتطلع اليه : «وماذايقول الناس عنى هنا؟». فقال : « أوه ، كثيرا من الهراء .. ولا عجب فقد تعودوا على الاغتياب .. لقد كنت دائما أقول ان للفتاة الحق فى أن تفعل ما تشاء بحياتها .. وهل تسير الامور سيرا حسنا مع صديقك ؟ » . فأجابته : « نعم ، ولسوف يتزوجنى قريبا على اية حال ! »

وقال كاسبار : « جميل ، وانى لمسرور جدا من أجلك .. غير أنه مؤسف حقا أن يغدو مستحيلا التمتع معك بأى لهو ، كما كان عهدنا فى الايام الغابرة .. ان ذلك مؤسف حقا ! » . فسألته مبتسمة : « الم تجد لك حبيبة ؟ » . وكان جوابه : « كلا ، ليس بعد .. فالحياة قاسية حدا أحيانا يا مارجوت ، وانا الآن أعمل فى محل حلوانى ، وأود ان يكون لى يوما ما محل أملكه » .. **فقالت مارجوت ساهمة : « نعم .. الحياة أحيانا قاسية ! »**

وبعد فترة سكوت ، نادت مارجوت سيارة ، بينما كان كاسبار يقول : « ربما يوما ما .. » . ولكنه لم يكمل عبارته ، فقد انتهى الامر ، ولن يقدر لهما ــ مرة أخرى ــ أن يستحما فى تلك البحيرة قط ! .. وقال لنفسه وهو يراها تجلس فى السيارة : « انها ذاهبة الى الكلاب .. وكان الاحرى بها أن تتزوج رجلا بسيطا طيبا .. **ومع ذلك فانا لا أقبلها زوجة .. ان الانسان لايمكنه ان يعرف أبدا اين كان .. »**

وقفز على الدراجة ، وانطلق بها مسرعا جلف السيارة الى منحنى الشارع التالى .. وراحت مارجوت تلوح له بيدها وهو يميل فى خفة الى شارع جانبى

الفصل السادس والعشرون

راحت السيارة تطوى طرقات محفوفة بأشجار التفاح ، ثم طرقات محفوفة بأشجار الخوخ ، وهى منطلقة الى غير نهاية .. وكان الجو بديعا ، وقد أفعمت القضبان الامامية لخزان السيارة بالنمل الميت والفراشات واليعاسيب .. وريكس يتولى القيادة ببراعة رائعــة ، وهو جالس ـ فى استرخاء ـ على المقعد الامامى ، ويده على عجلة القيــادة يمسها مسا رقيقا حالما .. وكان ثمة قرد معلق ـ فى النافذة الخلفية ـ من النسيج المخملى ، شاخص نحو الشمال ، من حيث كانوا منطلقين فى سرعة خاطفة .

وفى فرنســا : كان شجر الحور على طول الطرقات .. ولم تكن الخادمات فى الفنادق يفهمن كلام مارجوت ، فكان ذلك يثيرها .. وكان مقررا أن يقضوا الربيع فى (الريفييرا)، ثم ينطلقون الى البحيرات الايطاليــة .. وكان آخر مكان يتوقفون فيه ـ قبل أن يصلوا الى الشاطىء بقليل ـ هو بلدة (روجينار) . وقد وصلوا إلى هنالك عند الغروب.. فاذا سحابة برتقالية اللون تنتشر على صفحة الســماء الضاربة الى الخضرة ، فوق الجبال التى لفها الظلام .. والاضواء تتلألأ فى المقاهى ، والاشــجار المبثوثة على طول الطرقات قد تسربلت بسواد الليل .

وكانت مارجوت متعبة مهتاجة الاعصاب ، كما صار دأبها دائما فى تلك الايام حين يقترب المساء . فقد مرت عليهــا فى تلك الرحلة ثلاثة أسابيع كاملة لم يتسن لها خلالهــا أن تنفرد بريكس .. حتى اذا كانوا متجهين الى روجينار ـ وكان البينوس يستحفه الطرب بمنظر التلال الارجوانية ـ

غمغمت مارجوت مزمجرة وهى تصر على أسنانها قائلة لريكس ، وهى توشك أن تبكى : « أسرع ، أسرع ! »

واتجهوا الى فندق كبير . واذ ذهب ألبينوس ليسأل عن غرفتين لهم ، قالت مارجوت دون أن تنظر الى ريكس: « سأفقد عقلى اذا استمر الامر أكثر من هذا » . **فقال ريكس : « أعطه جرعة منومة .. سأجىء لك بواحدة من الصيدلية ! »** .. ولكنها قالت : « لقد حاولت بالفعل .. ولكن المنوم لم يكن مجديا ! »

وهنا عاد ألبينوس مضطربا بعض الشىء ، وقال : «لافائدة..يا له من أمر متعب !.. أنا آسف ياحبيبتى».. واتجهوا بعد ذلك الى ثلاثة فنادق أخرى ، على التوالى ، ولكنها كانت مكتظة جميعا .. ورفضت مارجوت – رفضا باتا – أن يذهبوا الى المدينة التالية ، قائلة ان منحنيات الطريق تسبب لها غثيانا ، وقد تولتها حالة عصبية جعلت ألبينوس يخاف من النظر اليها ..

وأخيرا ، وجدوا غرفتين خاليتين فى الفندق الخامس ، فصعدوا ليروهما .. وفى المصعد ، وقف خادم زيتونى اللون يتطلع اليهم بوجهه الجميل ، فغمز ريكس بعينه ينبه ألبينوس ، ووكزه بمرفقه قائلا : « أنظر الى هذه الجفون». فقالت مارجوت فجأة : « كفا عن هذا السخف ! » .

ودخلوا الغرفة ذات السريرين ، فلم تكن رديئة على الاطلاق ، ولكن مارجوت راحت تدق الأرض بقدمها قائلة بصوت خافت متذمر : « لن أبقى هنا .. لن أبقى هنا ! » . فقال لها البينوس متوسلا : « ولكنها حقا ملائمة لليلة واحدة » .

وفى تلك اللحظة ، فتح الخادم بابا يؤدى الى الحمام ، واجتازه ثم فتح بابا آخر – فى الجانب الآخر من الحمام –

يؤدى الى غرفة نوم ثانية .. **وفجأة تبادل ريكس ومارجوت النظرات !** .. فقال ألبينوس : « لا أدرى اذا كان يضيرك أن تقتسم الحمام معنا يا ريكس ؟ **ان مارجوت كثيرة العبث فى الحمام ، وهى تطيل المكوث فيه!»**.. فقال ريكس ضاحكا: « لا بأس .. سنتصرف على أى وجه ! »

واستدار ألبينوس الى الخادم قائلا : « هل أنت متأكد انه ليس لديكم حجرة اخرى مفردة » .. ولكن مارجوت تدخلت فى سرعـــة قائلة : « لا بأس .. واننى لأرفض أن أذهب للبحث أكثر من ذلك ! » . واتجهت الى النـافذة ، بينما كان الخدم يدخلون الامتعة . وكان ثمة نجم كبـير يتلألأ فى السماء ، وقد اصطبغ بلون الخوخ ، وغرقت قمم الاشجار المعتمة فى السكون المطبق ، وانطلقت العصـافير تشقشق .. ولكن مارجوت لم تر أو تسمع شيئا من هذا .

* * *

وبدأ ألبينوس يخرج أدوات الحمام ، فقالت وهى تخلع ملابسها فى سرعة : « سأستحم أولا » .. فقال فى مرح : « اذهبى .. وسأحلق ذقنى .. ولكن لا تطيلى البقــاء فى الحمام ، اذ لا بد لنا من تناول عشاءنا » .

وفى المرآة ، رأى ملابسها تطـير قطعـة بعـد أخـرى فى الهواء : الثوب ، ثم « السوتيـــان » ، ثم .. ثم .. حتى أصبحت عارية ، فغمغم وهو يغطى ذقنه بالصابون قائلا : « يا لها من فاجرة صغيرة ! » .. وسمع البـــاب يغلق ، والمزلاج يقعقع ، والماء يتدفق فى الداخل بصوت مرتفـع ، فصاح ضاحكا وهو يشد خده بأصبعه : « لا حاجة بك لأن تغلقى باب الحمام من الداخل ، فلن أخرجك منه ! »

واستمر تدفق الماء خلف الباب المغلق ، وصوته ما يفتأ

يرتفع ويرتفع .. وراح البينوس يكشط لحيته فى حذر بآلة «جيليت» ، وهو يسائل نفسه عما اذا كان سيجد فى الفندق « جمبرى » على الطريقة الامريكية .. وازداد الماء تدفقا واشتد صوته ارتفاعا ، وأدار آلة الحلاقة فى زاوية أخرى كى يمكنه أن يتكلم .. وكان على وشك أن يصل الى حبث « تفاحة آدم » من رقبته ـ حيث كانت بضع شعرات قصيرة تأبى أن تزول ـ حين لاحظ فجأة ، وقد تملكته الدهشة ، أن تيار ماء ينساب من تحت باب الحمام ، وقد اتخذ عجيج التدفق فى الداخل نغمة ظافرة ! .. فغمغم وهو يجرى الى الباب : « لا يمكن بالتأكيد ان تكون قد غرقت ! »

وطرق الباب صائحا : « يا حبيبتى ، هل أنت بخير ؟ .. انك تغرقين الغرفة بالماء ! » .. ولكنه لم يتلق جوابا ، فراح يصيح : « مارجوت ، مارجوت ! » ، وهو يدق على مقبض الباب ، غير دار بالدور الغريب الذى تلعبه الابواب فى حياتهما!

وانسلت مارجوت من غرفة ريكس الى الحمام ـ وكان قد امتلأ بالبخار والماء الساخن ـ فسارعت الى الصنابير وأغلقتها ، ثم صاحت من خلف الباب قائلة : « كدت أنام فى الحمام ! » . فقال : « أانت مجنونة ؟ .. لكم افزعتنى ! »

وما لبثت النهيرات التى بللت البساط الرمادى وأحدثت فيه مساحات غامقة ، ان انقطعت شيئا فشيئا ثم توقفت..

وعاد البينوس الى المرآة ، فوضع الصابون على رقبته مرة أخرى .. وبعد دقائق قليلة خرجت مارجوت نضيرة متألقة ، وراحت تنثر على جسمها « بودرة التلك » !

ودخل البينوس بدوره ليستحم ، وكان المكان غارقا فى البلل وممتلئا بالبخار ، فقرع باب غرفة ريكس صائحا : « لن أدعك تنتظر طويلا .. وسأخلى لك الحمام بعد لحظة » . فصاح ريكس قائلا فى مرح : « اوه ، خذ دورك !»

وعلى العشاء ، كانت مارجوت تتـــدفق سرورا ومرحا ، وقد جلسوا فى الشرفة .. واخذت فراشة بيضـاء ترفرف حول المصباح ، ثم سقطت على مفرش المـائدة . وما لبثت مارجوت أن قالت : « سنبقى هنا وقتا طويلا جدا جدا .. اننى أحب هذا المكان حبا هائلا ! »

الفصل السابع والعشرون

ومر أسبوع .. ثم أسبوع ثان . وكانت الايام صافية ، والزهور فى كل مكان ، والاجـانب يملأون البلدة . ولم يكن المرء يحتاج لاكثر من ساعة في السيارة كي يصل الى شاطىء رملى ينام فى حضن صخور قانية الحمرة ، تحف بالبحـر الزاهى الزرقة .. وكانت التلال المكسوة بأشجار الصنوبر تحيط بفندقهم ، وهو بناء جميل على الطراز المراكشى ..

وكاد ألبينوس يطير من فرط السعادة .. وكانت مارجوت سعيدة هى الاخرى ، وكذلك كان ريكس !

وكان بين من أعجبوا بمارجوت ــ أشـــد الاعجاب ــ صاحب مصانع للحرير فى ليون ، ورجـــل انجليزى هادىء الطبع ــ كان يجمع الجعارين ــ والشـــبان الذين كانوا يلعبون معها « التنس » .. ولكن ألبينوس لم يعد يضـيق بأن ينظر اليها هذا أو يراقصـها ذاك .. ما كان لشىء من ذلك أن يبعث الغيرة فى قلبه ، بل لقد كانت تتملكه الدهشة اذ يتذكر غصص الالم التى كان يعانيها فى (ســولفى) .. **شيئا واحدا لم يفطن اليه فى غمرة ثقته هذه : انها لم تعد راغبة قط فى ارضاء الغير .. فقد كانت تحتاج لرجل واحد فقط ، وهو ريكس .. وقد كان ريكس هو ظل ألبينوس !**

وذات يوم ، ذهب ثلاثتهم فى جولة طويلة بين الجبال ، وهنالك ضلوا الطريق ، ووصلوا – آخر الأمر – الى درب صخرى وعر ، قادهم الى الاتجاه الخاطىء .. واذ لم تكن مارجوت معتادة على المشى ، فقد أصيبت قدماها بقروح مؤلمة . وراح الرجلان يحملانها بالتناوب وهما ينوءان بحملها ، وان يكن غير ثقيل جداً . وفى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، وصلوا الى قرية صغيرة تغمرها الشمس ، وهنالك وجدوا حافلة « أوتوبيس » على أهبة الرحيل الى (روجينار) ، وكانت تقف فى ميدان مستدير ، يلعب فيه بعض الشبان كرة القدم .

ودخل ريكس ومارجوت الحافلة . وكان البينوس على وشك أن يلحق بهما ، لولا انه لاحظ أن السائق لم يجلس بعد فى مقعده وانما راح يعاون فلاحا مسنا على ادخال قفصين كبيرين فى السيارة ، فنقر البينوس على زجاج نافذة العربة المجاورة لمارجوت ، وقال لها انه سينتهز هذه الفرصة ويذهب ليشرب كأسا فى حانة صغيرة عند طرف الميدان ..

واذ كان يدخل الحانة ، اصدم برجل رقيق الحاشية ، صغير الجسم ، فى بزة من الصوف الابيض ، كان يدفع حسابه فى عجلة .

ونظر كل منهما الى الاخر ، ثم صاح البينوس قائلا : « أنت هنا يا آدو ؟ .. انها لفرحة غير متوقعة ! » .. فقال آدو كونراد : « غير متوقعة أبدا .. لقد أصبحت أصلع **قليلا ، أيها الكهل ! .. هل أنت هنا مع عائلتك ؟ » . وأجاب** البينوس متلعثما : « حسنا .. كلا .. أنت ترى .. أنا اقيم فى روجينار ، و .. » . فقال كونراد : « وانا كذلك .. بالسماء ! لقد تحركت الحافلة ، فاسرع ! » . فأخذ البينوس يجرع بقية كأسه ، بينما جرى كونراد فلحق بالسيارة .

وارتفع صوت البوق ، فأخذ ألبينوس يبحث عن النقود الفرنسية فى جيبه متعجلا ، وهى تفلت منه .. وعندئذ قال الساقى ، وهو رجل كئيب ، ذو شارب أسود متهدل : « أن العربة ستدور حول القرية أولا ثم تعود فتقف هنا مرة أخرى قبل أن تواصل رحلتها » . فقال ألبينوس : « اذن سآخذ كأسا أخرى ! »

ورأى - خلال الباب - السيارة المستطيلة الصفراء اللون ، تنطلق مسرعة فى الطريق الذى تحف به أشجار الدلب ، وتلقى عليه مساحات من الظلال .. وقال ألبينوس فى نفسه : « انه لامر لطيف أن أقابل آدو ، وقد وخط الشيب لحيته ، كأنما ذلك فى مقابل فقدانى شعر رأسى .. ولكن متى تقابلنا آخر مرة ؟ .. لقد كان ذلك منذ ست سنوات .. وقد كنت أظنه يعيش فى (سان ريمو) .. انه لرجل غريب ، رقيق الجسم ، ولكنه رهيب .. وليس هو بالسعيد جدا ، فقد اجتمعت عليه العزوبة ، والربو ، وكراهيته للقطط ولطقطقة الساعات .. ولكنه كاتب بديع ، كاتب رائع .. ومن الطريف انه ليس لديه أى فكرة عن التغيير الذى طرأ على حياتى .. ومن الطريف كذلك وقوفى هنا ، فى هذا المكان الصغير الحار المشبع بالرطوبة ، الذى لم تطأه قدماى من قبل ، والذى قد لا آتى اليه بعد ذلك أبدا .. **ترى ماذا تفعل اليزابيث الآن ؟.. ثوب أسود ، ويدان متخاذلتان .. الافضل ألا أفكر فى ذلك ! »**

وما لبث أن سأل بلغته الفرنسية ، التى ينطقها فى حذر قائلا : « كم من الوقت تستغرقه السيارة فى الدوران حول القرية ؟ » .. فقال الساقى فى وجوم : « دقيقتان » .

وراح ألبينوس يحدث نفسه من جديد وهو يتأمل لعبة من ألعاب الحظ : « ليس واضحا جدا ما يفعلون بهذه

الكرات الخشبية .. ولكن هل هى خشبية ، أو أنهـــا من معدن ما ؟ .. ان المرء يقبض عليها فى باطن كفه ، ثم يدفع بها الى الامام ، فتتدحرج ، ثم تقف .. **يا للحرج لو حدث أن تكلم « آدو » مع الفتاة الصـــغيرة فى الطريق ، وراحت هى تثرثر بكل شىء قبـــل أن أخبره بالامر !** .. هل تراها تفعل ؟ ومع ذلك ، فليس ثمة فرصة لان يتحدثا معا ، فان الطفلة المسكينة غير سعيدة ، وستجلس ساكنة تماما » .. ثم قال بصوت مرتفع : « يبدو انها قرية كبيرة ، اذا راعينا الوقت الذى تستغرقه السيارة فى الدوران حولها » . فقال كهل يدخن فى غليون من الفخار ، ويجلس فى المائدة المواجهة له: « انها لا تدور حولها ! » .. وأردف حين عارضه الســـاقى « **لقد كانت تفعل ذلك حتى يوم الاحد الماضى ، ولكنها الان تسير فى طريقها مباشرة !** » . فقال الساقى: «حسنا . . انها ليست غلطتى ، أليس كذلك ؟ » .. وهنا صاح البينوس فى قنوط : « ولكن ماذا أفعل الان ؟ » . فقال الكهل فى رزانة :

« عليك بالسيارة التالية ! »

واخيرا وصل الى المنزل فوجد مارجوت مضطجعـــة على مقعد طويل فى الشرفة ، تأكل حبات من الكرز .. وأمامها ريكس ، يجلس على السياج الابيض فى لباس الســـباحة ، وظهره الاسمر الغزير الشعر نحو الشمس .. وهمـــا فى منتهى السعادة . فقال ضاحكا : « لقد فاتتنى السيارة ! » . فقالت مارجوت : « حقا ؟ » .. وعاد يقول : « حـــدثانى ، هل لاحظتما رجلا صغير الجسم ، يرتدى بذلة بيضـــاء ، وله لحية ذهبية ؟ » . فأجاب ريكس : « نعم . لقـــد كان يجلس امامنا . فما حكايته ؟ » .. وهنا قال البينـــوس : « لا شىء .. وانما كنت اعرفه فى يوم من الايام » .

الفصل الثامن والعشرون

فى الصباح التالى ، راح البينوس يسأل باهتمــام عن « آدو كونراد » فى مكتب السياح ، ثم فى فندق المـانى ، ولكن احدا لم يستطع أن يدله على مكـانه .. فقـال فى نفسه : « على كل حال ، ليس لدينا الكثير ليقوله كل منـا للاخر .. وربما بحثت عنه مرة ثانية ، اذا بقينا فترة أخرى هنا .. فاذا لم نفعل فلا يهم ذلك كثيراً ! »

وبعد أيام قلائل ، استيقظ مبكرا – قبل موعده المعتاد – ففتح مصراعى النافذة الخشبيين ، وابتسم للسماء ذات الزرقة الرقيقة ، والمنحدرات ذات الخضرة الناعمة ، التى كانت تبدو متألقة ولكنها – مع ذلك – ملتفة فى غشاء غائم ، كأنها الصورة المشرقة على وجه كتاب ، وقد غطاها غـلاف من الورق غير الشفاف .. وشـعر البينوس بحنين طاغ لان يتسلق المرتفعات ، ويستنشق الهواء المتضوع بشذا الصعتر .

واســتيقظت مارجوت قائلة ، وما زال النـوم يثقـل جفنيها : « لا يزال الوقت مبكـرا جدا ! » .. فاقترح عليها أن يرتديا ثيابهما سريعا ، ويخرجا ليقضـيا اليوم بطوله – هما الاثنان فقط – ولكنهـا غمغمت قائلة : « اذهب وحدك ! » ، ثم انقلبت الى الناحية الاخـرى .. فقال البينوس فى اسف : « اواه منك ايتها الكسول ! »

وكانت الساعة قد قاربت الثامنة ، فانطلق بخطـوات سريعة عبر الشوارع الضيقة ، وقد تقاسمها النور والظل بالطول . حتى اذا تجاوزها ، بدأ فى الصعود .. واذ كان يمر بجانب « فيللا » صغيرة ، مطلية بلون قرنفلى فاقع ، سمع قرقعة آلة تجز شيئا ما ، ثم رأى « آدو كونراد » يشذب أغصان الحديقة الصغيرة النابتة فى الصخر .. فقال

فى مرح ! « وجدتك أخيرا ! » .. والتفت الاخر ، ولكنه لم يبتسم ، بل قال بجفاء : « اوه .. لم اتوقع أن اراك ثانية ! »

كانت العزلة قد أورثته حدة خلق الاعزب .. فاقترب البينوس قائلا : « لا تكن احمق يا ادو .. فانت تعلم جيدا اننى لم اتعمد ان تفوتني الحافلة فى ذلك اليوم، وانما ظننتها ستدور حول القرية ثم تعود مرة اخرى ! » .. فقال كونراد ، وقد لانت اساريره قليلا : « لا اهمية لذلك .. فكثيرا ما يحدث ان يقابل المرء صديقا له بعد مدة طويلة ، ثم يشعر برغبة مفاجئة فى ان يفلت منه .. ولقد فسرت الامر بانك نفرت من فكرة الثرثرة عن الماضى فى ذلك السجن المتحرك الممثل فى السيارة ، فتجنبت ذلك ببراعة ! »

وضحك البينوس قائلا : « اننى فى الحقيقة كنت أجد فى البحث عنك فى هذه الايام القليلة الماضية .. ويبدو أن احدا لا يعرف مكانك بالضبط » . فقال كونراد : « نعم ، فقد استأجرت هذه « الفيللا » منذ ايام قلائل فقط .. وأين تقيم أنت ؟ » . فأجابه قائلا : « فى فندق بريتانيا .. واننى لمسرور حقا بان أراك يا آدو .. الا حدثنى بكل شىء عن نفسك ! » . فقال كونراد بلهجة غامضة : « هل نذهب لنتمشى قليلا ؟ .. حسنا ، سأستبدل حذاءى اولا ! »

وعاد بعد لحظة ، وانطلقا مصعدين فى طريق ظليل رطب يتعرج بين حوائط صخرية تكسوها فروع الاعناب ، وارضه الزرقاء لم تمسها بعد شمس الصباح .. وما لبث كونراد أن سأل قائلا : « وكيف حال اسرتك ؟ » . فتردد البينوس هنيهة ثم قال : « الافضل ألا تسأل يا آدو ، فان أمورا مزعجة وقعت لى فى الايام الاخيرة .. لقد انفصلت فى العام الماضى

عن اليزابيث ، ثم ماتت ابنتى الصغيرة ايرما على اثر التهاب رئوى .. بيد ان الافضل ألا أتحدث عن هذه الامور ، اذا كان هذا لايضيرك؟ » .. فقال كونراد : «انه لامر محزن حقا !» .

وغرقا فى الصمت .. فراح البينوس يسائل نفسه : ألا يكون أمرا مشوقا ومثيرا أن يتحدث عن قصة غرامه المشبوب مع هذا الصديق القديم ، الذى كان يعرفه على الدوام شخصا خجولا ، بعيدا عن الجموح أو المغامرات ؟ ولكنه ما لبث ان استبعد هذه الفكرة .. بينما كان كونراد - من ناحيته - يقول فى نفسه انه أخطأ فى الواقع اذ خرج يتمشى معه ، فقد كان يفضل أن يكون الناس حين يصحبونه سعداء ، لا يشغلهم هم ، ولا تحيط بهم أحزان !

وأخيرا قال البينوس : « لم أكن اعلم انك فى فرنسا .. وانما كنت اعتقد انك تفضل على الدوام بلاد موسولينى » . فسأله كونراد فى عبوس عجيب : « من هو موسولينى ؟ » . واذ ذاك ضحك البينوس قائلا : « آه .. أنت على الدوام كما أنت .. **لا تفزع ، فلن أتكلم فى السياسة .. حدثنى عن عملك لو سمحت .. لقد كان كتابك الاخير رائعا ! »**

ولكن « آدو » قال : « أخشى ألا يكون وطننا فى المستوى الذى يتيح له تقدير أعمالى » .. فقال البينوس : « رويدك ، رويدك .. هناك كثيرون يحبون كتبك ! » . فقال كونراد : « ليس كما أحبها أنا .. وما زال ثمة فى الواقع وقت طويل - ربما قرن باكمله - حتى أجد التقدير الواجب لقيمتى .. ما لم يكن فن الكتابة والقراءة قد طواه النسيان يومذاك ! .. بل اننى لأخشى ان يكون قد طواه بالفعل - فى المانيا - فى هذا النصف الأخير من القرن » .

وتساءل البينوس : « كيف ذلك ؟ » . فأجاب كونراد : **« ان الادب حين يقتصر على خدمة الحياة والاحياء ، فمعنى**

ذلك انه يموت ! .. واننى لأطيل التفكير فى كتب فروديان ، وفى الكتب المتعلقة بالريف الهادىء .. قد تقول فى معرض الجدل أن الادب الشعبى ليس هو المهم ، وانما المهم هو انتاج ذينك الكاتبين أو الثلاثة الذين يقبعون بعيدا ، دون أن يشعر بهم معاصروهم من العظماء ذوى النفوذ .. بيد ان الامرين سيان ، واننى لأتميز غيظا اذ أرى تلك الكتب التى أخذها الناس مأخذا جديا ! »

وقال البينوس يجادله : « كلا ، لست على الاطلاق من رايك .. فاذا كان عصرنا مهتما بالمشاكل الاجتماعية ، فلماذا لا يحاول المؤلفون العباقرة ان يمدوا يد العون ؟ .. ان الحرب ، أو القلق الذى جاء فى أعقاب الحرب .. » . وقاطعه كونراد بأنين خافت ، قائلا : « حسبك ! »

واغرقا فى الصمت مرة اخرى ، وقد بلغ بهما الطريق المتعرج الى أيكة من ايكات الصنوبر ، كانت الفراشات فيها ترسل طنينا يحكى أزيز الدمى الآلية .. وكان ثمة غدير ينساب فوق سطح من الصخور الملساء ــ التى كانت تبدو وكأنها ترتجف تحت الامواج المتكسرة ــ فجلسا فوق العشب الجاف المتضوع بالشذا . وتطلع البينوس الى قمم أشجار الصنوبر التى كانت تبدو كأنها عشب البحر الاخضر يطفو على صفحة ماء أزرق ، وسأل صديقه قائلا : « ولكن ألا تشعر بأنك أشبه بالشريد ، اذ تعيش على الدوام فى الخارج ؟ .. أولا تحن الى رنين الاصوات الالمانية ؟ » .

فقال كونراد : « اننى اصادف بعض المواطنين من حين الى اخر .. وأحيانا يكون الامر مسليا جدا ، فقد لاحظت ــ مثلا ــ أن السياح الالمان يميلون الى الاعتقاد بانه ما من أحد يمكنه أن يفهم لغتهم » .. فاضطجع البينوس على ظهره قائلا : « اننى لا احتمل ابدا ان اعيش فى الخارج » .

واضطجع كونراد كذلك ، وقال وهو يشبك ذراعيه تحت رأسه : « لقد مرت بى - في ذلك اليوم الذى التقينا فيه - تجربة طريفة مع صديقيك اللذين كانا فى السيارة.. أنت تعرفهما ، أليس كذلك ؟ » .. فأجاب البينوس ، مرسلا ضحكة صغيرة : « نعم ، قليلا » ..

وهنا قال كونراد : « لقد حدست هذا ، اذ رأيت مرحهما حين تخلفت عن الركوب » . فقال ألبينوس فى نفسه بحنان : « يا للفتاة الصغيرة الماكرة !.. هل أخبره بكل شيء عنها ؟.. كلا .. »

ومضى كونراد يقول : « لقد قضيت وقتا ممتعا أنصت أحديثهما ، ولكننى لا أشعر حقا بالحنين الى الوطن .. وانه لشيء غريب ، فكلما فكرت فى ذلك ازددت يقينا بأن الفنان يمر بحياته وقت يصبح عنده فى غير حاجة الى وطنه .. كتلك المخلوقات - كما تعرف - التى تعيش أولا فى الماء ، ثم تتعود الحياة بعد ذلك على اليابسة » . فقال البينوس : « لابد أن فى طبيعتى شيئا يتوق الى برودة الماء .. وبهذه المناسبة ، أذكر قطعة بالغة الجمال وجدتها فى مقدمة كتاب « بوم » الجديد : « اكتشاف التابيرونا » ، ومؤداها أن رحالة صينيا ، كان - منذ اجيال مضت - يطوف حول (جوبا) والهند .. وبينما كان واقفا أمام تمثال ضخم لبوذا ، فى معبد فوق اكمة من اكمات سيلان ، اذا به يرى تاجرا يقدم هدية صينية .. مروحة حريرية بيضاء ، و.. » .

وهنا قاطعه كونراد قائلا : « واستولى عليه عندئذ سام مفاجيء من غربته الطويلة .. أنا أعرف مثل هذه الاشياء .. وان كنت لم أقرأ الكتاب الاخير لذلك الاحمق المأفون ، ولن اقرأه ابدا ! »

وخيم عليهما الصمت مرة أخرى ، وقد شعر كلاهما بضيق شديد .. وبعد أن تأملا أشجار الصنوبر وما كان يبدو خلالها من زرقة السماء ، لبضع دقائق ، نهض كونراد قائلا : « انني آسف أيها الصديق الحميم ، فهل يضيرك كثيرا أن نعود الآن ؟ .. ان أمامى بضع صفحات يجب أن أكتبها قبل انتصاف النهار » . فقال البينوس وهو ينهض بدوره : « لا مانع ، فانني الآخر يجب أن أعود ! »

الفصل التاسع والعشرون

عرج البينوس على حانوت – وهو فى طريقه الى الفندق – ليشترى بعض السجائر . واذ كان يزيح بظهر يده الستار القضفاضة المجلجلة المصنوعة من الغاب والخرز ، اصطدم بالكولونيل الفرنسى المتقاعد ، الذى كان جارهم فى الايام الاخيرة على مائدة الطعام . وتراجع البينوس الى الخلف فوق الطوار الضيق ، فاعتذر الكولونيل – وكان شخصا ظريفا – قائلا : « عفوا .. انه لصباح جميل ، أليس كذلك؟» .

فقال البينوس : « نعم .. جميل جدا » .

وتساءل الكولونيل : « وأين العاشقان اليوم ؟ » .

فسأله البينوس فى دهشة قائلا : « ماذا تعنى ؟ » . فأجاب الكولونيل وفى عينيه الزرقاوين بلون الخزف نظرة نافذة ، قائلا : **« ذانك اللذان يتعانقان فى كل ركن .. ألا يسمونهما كذلك ؟ »** . ثم أضاف قائلا : « أن كل ما يعنينى ألا يفعلا ما يفعلانه فى الحديقة تحت نافذتى مباشرة .. ان ذلك يجعل رجلا عجوزا مثلى يمتلىء غيرة وحسدا » .

وعاد البينوس يقول : « ماذا تعنى ؟ » . فضحك الكولونيل قائلا : « لاأعتقد أننى أستطيع ان اقول كل ذلك

مرة اخرى بالالمانية .. نعمت صباحا يا سيدى العزيز!» . ثم انصرف . ودخل البينوس الحانوت ، وهو يغمغم لنفسه: « ماهذا الهراء ؟ » .. وراح يحدق تحديقا شديدا فى السيدة الجالسة على مقعد صغير خلف صندوق النقود ، فسألته قائلة : « ماذا يا سيدى ؟ » .. فقال مرة أخرى : « ماهذا الهراء المحض ؟ » .. وظل واقفا ، عابسا ، فى طريق الداخلين والخارجين ، **وقد انتابه شعور غامض بأن كل شىء كان يسير فى عكس اتجاهه الحقيقى ، ثم يرتد فجأة الى الوراء .. ومن ثم كان عليه أن يتأمله من الاول ـ مرة أخرى ـ اذا كان يريد أن يفهم ! !** .. شعور كان مجردا من اى ألم أو دهشة ، وكأنما هو شىء مظلم ـ ولا صوت له ـ يلوح أمام عينيه من بعيد ، ثم يقترب منه شيئا فشيئا .. فوقف وقد تولاه نوع من الذهول العاجز المتبلد ، غير محاول حتى أن يتفادى وقع تلك الصدمة الرهيبة ، وكأنها ظاهرة عجيبة لن تمسه بسوء ما دام هذا الذهول مستمرا !

وأخيرا، قال فجأة : « مستحيل ! » . وانبثقت أمامه فكرة غريبة مرفرفة ـ كأنها الخفاش يخرج من الظلام ـ وهو يحدق فيها كأنها شىء خليق بأن يدرسه ، لا ان يفزع منه .. واستدار على عقبه .. وعاد مسرعا فى الطريق الذى جاء منه لتوه .

وكان كونراد يكتب فى الحديقة ، وقد احتاج الى مفكرة ، فذهب ليأتى بها من حجرة مكتبه ، فى الطابق الارضى من الفيللا . وكان يبحث عنها فوق المنضدة بقرب النافذة ، حين راى وجه البينوس يلوح له فى الخارج ، فغمغم فى حنق قائلا : « ياللرجل المضجر ، الا يريد أن يتركنى فى سلام ؟ .. أما يفتأ هكذا يطلع لى من تحت الارض ؟ » ..

وقال ألبينوس فى صوت غريب مخبول : « **اسمع يا آدو .. نسيت أن أسألك عن شىء .. ماذا كانا يقولان فى السيارة؟** »

وتساءل كونراد : « ماذا ؟ » . ثم اردف : « آه ، اجل .. لقد كانت فعلا تجربة طريقة من وجهة ما .. وقد اردت ان اعطيك مثالا عن الكيفية التى يتصرف بها الالمان ، اذ يظنون ان أحداً لا يفهم كلامهم .. ! » .. واستطرد يقول : « **حسنا .. لقد كان أرخص وأقذر كلام غرامي بصوت مرتفع سمعته فى حياتى .. لقد تكلم صديقاك هذان عن حبهما فى حرية وكأنهما وحدهما فى الفردوس !** »

وقال ألبينوس : « آدو .. هل تقسم على ما تقول؟» . وسأله الرجل فى دهشة : « ماذا تعنى ؟ » . فقال : « هل أنت متأكد تماما ، تماما ، مما تقول ؟ » . فقال : « نعم . ولكن ماذا تقصد ؟ .. انتظر قليلا ، فسآتى اليك فى الحديقة ، اذ أننى لا أستطيع سماع كلمة واحدة من هذه النافذة » . ووجد مفكرته وخرج . وفى الحديقة صاح قائلا : « هاللو .. أين أنت ؟ » . ولكن ألبينوس اختفى .. وبحث عنه فى الدرب المؤدى الى الباب ، ولكن كلا .. لقد ذهب الرجل !

الفصل الثلاثون

نزل ألبينوس الى المدينة ، واجتاز شوارعها ــ فى غير تعجل ، وفى خطوة ثابتة ــ حتى بلغ الفندق ، وصعد الى غرفته ــ أو بالاحرى غرفتهما ــ فاذا بها خالية ، والفراش غير مرتب ، وبعض القهوة مسكوب على الارض ، وملعقة صغيرة تلمع فوق البساط الابيض . وراح وقد احنى رأسه يحدق فى ذلك الشىء اللامع .. **وفى هذه اللحظة انبعثت من الحديقة ضحكة مارجوت الرنانة ، فأطل من النافذة ..**

وهنالك رآها تسير بجانب شاب يرتدى سروالا قصيرا أبيض اللون . وكان مضرب الكرة – الذى راحت تلوح به وهى تتحدث – يومض تحت اشعة الشمس ..

ولمح رفيقها ألبينوس فى نافذة الطابق الثالث ، ومالبثت مارجوت أن تطلعت الى أعلى ثم توقفت . فطوح ألبينوس ذراعه ، وكأنه يضم بها شيئا الى صدره ، قاصدا أن يقول لها بهذه الإشارة : « أصعدى ! » . وفهمت مارجوت ماأراد ، فأومأت برأسها ، ثم سارت فى بطء عبر الممر – المرصوف بالحصباء – نحو شجيرات الورد التى تحف بالمدخل .

وتراجع ألبينوس عن النافذة ، وأقعى لدى حقيبة ملابسه ، ومد يده ليفتحها . ولكنه ما لبث أن تذكر ان الشىء الذى يبحث عنه كان فى مكان آخر ، فانتصب واتجه الى خزانة الملابس ، ودفع يده فى جيب معطفه المصنوع من وبر الجمل ، ثم راح بسرعة يفحص الشىء الذى أخرجه ليتأكد من انه معبأ ، ثم وقف متأهبا فى مواجهة الباب : **بمجرد أن تفتح الباب سيطلق عليها النار ، ولن يكلف نفسه عناء سؤالها عن شىء ، فالامر كله واضح وضوح الموت ..** لقد تبلجت فى ذهنه الحقيقة كلها الآن فى هدوء خفى .. لقد كانا يخدعانه باستمرار ، وبدهاء .. يجب ان يقتلها !

وراح عقله – وهو ينتظرها لدى الباب – يتابع سيرها : فلابد أنها الآن قد دخلت الفندق ، ثم لابد أنها الآن ترتفع فى المصعد . وارهف اذنيه لصوت كعبيها وهى تعبر الردهة ، ولكن لابد أن مخيلته قد سبقتها . فقد ظل كل شىء هادئا ، ولم يسمع صوتا .. اذن فليبدأ من جديد ! .. وكان ممسكا بالمسدس « الاوتوماتيكى » ، وقد بدا كأنه امتداد طبيعى ليده التى كانت متوترة وتواقة لأن تفرغ ما فيها .. بل لقد

كان يستشعر تلذذا طاغيا فى فكرة الضغط على ذلك الزناد . وتأهب لان يطلق النار فى اتجاه الباب الابيض المغلق ، حين سمع الوقع الخافت لحذاءيها المطاطين .. فقد كانت تلبس حذاءى « التنس » ، ولم يكن بهما كعبان يدقان الارض .. **والآن ، فليطلق النار ! .. ولكن ـ فى هذه اللحظة ـ ارتفع صوت خطوات شخص آخر ..** وسمع صوتا يقول بالفرنسية خارج الباب : « هل تسمح لى سيدتى بأن آخذ الآنية ؟ » . ثم دخلت مارجوت ومعها الخادم ، فدس المسدس فى جيبه .

وقالت مارجوت : « ماذا تريد ؟ .. اما كان الاجدر بك أن تنزل بدلا من أن تدعونى ـ بطريقة نابية ـ الى الصعود ؟ » .. ولم يحر جوابا ، وانما ظل منتظرا ـ وقد نكس رأسه ـ حتى جمعت الخادم الآنية ، والتقطت الملعقة الصغيرة ، وابتسمت ثم خرجت .. فاغلق الباب خلفها ، وعندئذ قالت مارجوت : « ماذا حدث يا البير ؟ »

فانزل يده الى جيبه ، بينما ألقت مارجوت بنفسها ـ فى اختلاجة ألم ـ على مقعد بجانب السرير ، وأحنت جيدها الذى لوحته الشمس ، وبدأت تفك بسرعة رباط حذاءيها الابيضين . فراح يحدق فى شعرها الحريرى الناعم ، والظل المائل الى الزرقة فى الموضع المحلوق من عنقها .. كان مستحيلا أن يطلق رصاص المسدس عليها وهى تخلع حذاءيها . وكان ثمة جرح فى قدمها ، لوث جوربها الابيض بالدم . فقالت : « اننى لأزيد الجرح تهتكا كلما حككته بيدى ! » . **ثم رفعت رأسها فرأت المسدس الاسود فى يده ، فقالت فى هدوء شديد : « لا تلعب بهذا الشىء أيها الاحمق ! » .**

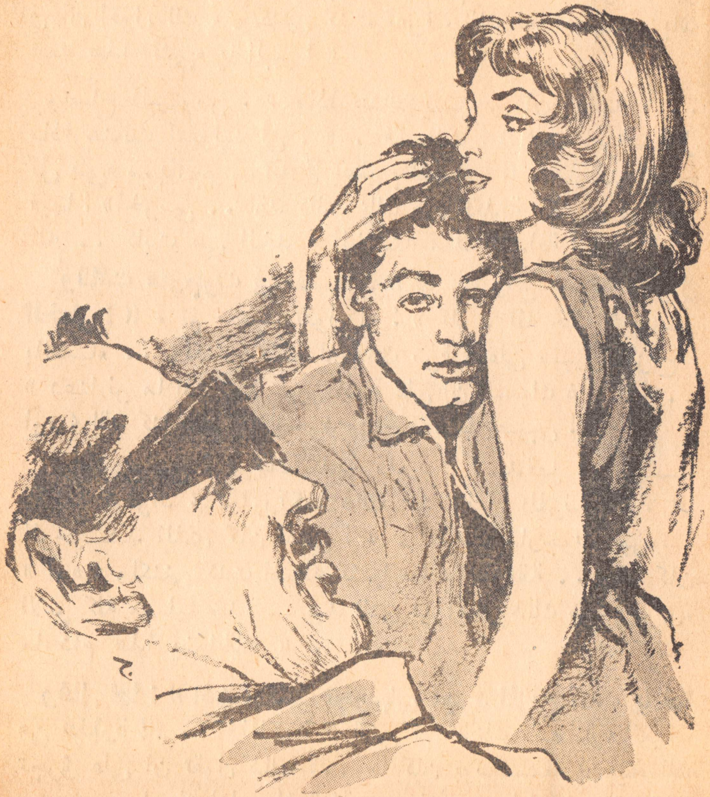
وقبض البينوس على رسغها ، وهمس قائلا : « قفى ! » . فقالت وهى تخلع الجورب بيدها الاخرى : « لن اقف .

أطلق بدى .. انظر ، لقد التصق الجرح بالجورب ! » . وأخذ يهزها في عنف حتى قعقع المقعد تحتها ، فتشبثت بحافة السرير ، وبدأت تضحك قائلة : « أرجو أن تطلق على الرصاص ، فلسوف يكون ذلك شبيها بما حدث فى الرواية التى شاهدناها .. وأنا بريئة مثل بطلتها تماما » .

فزمجر البينوس قائلا : « أنت كاذبة .. أنت وذلك الوغد .. ولاشىء من ورائكما غير الخيانة ، والخداع ، و .. » . وارتعشت شفته السفلى ، وهو يغالب لعثمته ، فصاحت : « أرجو أن تبعد هذا الشىء عنى ، فلن أتكلم اليك ما لم تبعده عنى .. اننى لا أعرف ما الذى حدث ، ولا اريد أن اعرف .. كل ما أعرفه هو اننى مخلصة لك ! »

وقال البينوس بصوت أجش : « حسنا ، يمكنك أن تقولى ما تشائين .. ولكنك ستموتين بعد ذلك ! » . فقالت له : « لا حاجة بك الى قتلى .. أؤكد لك ألا حاجة بك الى ذلك ياحبيبى » . فقال لها : « استمرى .. تكلمى ! » .. وقالت فى نفسها : « لو أمكننى أن أندفع نحو الباب ، لصرخت ، ولجاء الناس مسرعين .. ولكن كل شىء يكون قد ضاع .. كل شىء ! » . ثم خاطبته قائلة : « لن أستطيع ان أتكلم وأنت ممسك بهذا الشىء هكذا .. ارجوك ان تبعده جانبا ! » .. وكانت تواصل حديثها لنفسها : « .. أو ربما يمكنني أن أسقط المسدس من يده ! »

وقال البينوس : « كلا .. يجب أن تعترفى قبل كل شىء .. ان عندى معلومات ، اننى أعرف كل شىء .. أعرف كل شىء » .. وراح يكرر هذه العبارة بصوت محطم ، وهو يروح ويجىء فى الغرفة ويضرب الاثاث بحافة يده ، ثم استطرد قائلا : « لقد جلس أمامكما فى تلك الحافلة (الاتوبيس) ،



وعلى قدر ما ازدادت حدة سمع ألبينوس،جرأة ريكسى ومارجوت،
وقد أطمأنا الى ستار الامن الذى تمثل فى عماه ..

(ص ٢٠٣)

وقد تصرفتما أمامه كعشيقين .. أوه ، اننى بالتأكيد سأقتلك ! » . فقالت مارجوت : « نعم .. لقد فكرت كثيرا فى أن أقول لك ، ولكننى كنت أعرف أنك لن تفهم .. بالله أبعد هذا الشىء يا ألبير ! »

وصاح ألبينوس : « ماذا هناك يستحق أن أفهمه ؟ .. ماذا هنالك لتقوليه لى ؟ » . فقالت : « **أنت تعرف أول كل شىء – ياألبير – انه لا يهتم بالنساء !** » .. ولكنه صرخ فيها : « آخرسى .. لقد كانت تلك هى الكذبة الكبرى فى الامر كله .. كانت هى الخدعة الخبيثة منذ البداية ! » .

وقالت مارجوت فى نفسها : « لو أنه رفع صوته ، لزال الخطر ! » . ثم مضت تقول له : « كلا . انه حقا لا يهتم بالنساء .. ولكننى قلت له ذات مرة ، على سبيل المزاح : « دعنا نر ما اذا كنت غير قادرة على أن أنسيك غلمانك! » .. أوه ، لقد كنا نعلم انه مجرد مزاح .. يا حبيبى ! »

وعاد يصيح : « تلك كذبة قذرة لا أصدقها .. لقد رآكما كونراد ، كما رآكما ذلك الكولونيل الفرنسى .. أنا الوحيد الذى كان أعمى ! » . فقالت مارجوت ببرود : « أوه ، ولكننى كنت أغيظه كثيرا بهذه الطريقة .. وقد كان الامر كله مسليا جدا .. بيد اننى لن أفعل ذلك مرة اخرى ، ما دام هذا يضايقك » .

وقال لها : « اذن ، كنت تخوننى لمجرد المزاح ؟ .. يا لها من قذارة !» .. فقالت : « اننى لم أخنك طبعا ، فكيف تجرؤ على أن تقول ذلك ؟ .. ما كان بوسعه أن يخونك معى .. ولم نتبادل ولا قبلة .. فحتى هذا كان بغيضا الى كل منا ! » . فتساءل فى وعيد : « واذا استجوبته فى غير حضورك .. بالطبع فى غير حضورك ؟ » . فأجابت

قائلة : « استجوبه بكل تأكيد ، فلسوف يقول لك ما قلته انا .. وكل ما ستفعله انك ستجعل من نفسك اضحوكة ! »

***

واستمرا يتكلمان هكذا ساعة كاملة ، أخذت مارجوت خلالها تسترد سيطرتها على الموقف شيئا فشيئا .. ولكنها ـ اخيرا ـ لم تستطع أن تحتمل أكثر مما احتملت ، فاستولت عليها نوبة هستيرية والقت بنفسها فوق السرير فى ثوب « التنس » الابيض ، واحدى قدميها عارية .. حتى اذا هدأت بعد برهة ، راحت تبكى وتبلل الوسادة بدموعها .

أما البينوس ، فجلس فى مقعد بجوار النافذة . وراح يستعرض كل صغيرة منذ تعرفه بريكس ، فبدت له الحوادث محفوفة بضوء قوى غمر كل كيانه .. وما لبث أن شعر بشىء ما يتحطم فى داخله الى الابد .. فبالرغم من الطريقة القوية الاقناع ـ التى حاولت مارجوت أن تبرهن بها على أنها كانت مخلصة له ـ أحس بأن رائحة الشك المسممة ستتصاعد من كل شىء بعد اليوم ..

واخيرا ، نهض واقفا . وسار نحو السرير ، ونظر الى كعب قدمها القرنفلى ، الذى الصقت عليه قطعة من شريط أسود . وحدق فى بشرة ساقها السمراء الذهبية ، الرشيقة الممتلئة . وقال فى نفسه انه كان بوسعه ان يقتلها ، ولكنه ما كان ليقوى على أن يهجرها .. وما لبث أن قال بصوت حزين : « حسنا ، يا مارجوت ، اننى أصدقك .. ولكن عليك أن تنهضى فورا وتغيرى ملابسك ، فسوف نحزم أشياءنا فى الحال ، ونغادر هذا المكان ، لاننى لا اجد فى نفسى القدرة على ان اقابله بعد الان .. لا لاننى أعتقد انك خنتينى معه ..

لا ، ليس لهذا .. ولكن لاننى لا استطيع ذلك فحسب .. فقد جسمت لنفسى الامر كله تجسيما قاسيا ، و .. ولكن لا أهمية لذلك ، فهيـــا ، انهضى ! »

وقالت مارجوت بصوت ناعم : « قبلنى » . فأجابهـــا « لا ، ليس الان .. اننى أريد أن أخـــرج من هنا باسرع ما يمكن .. لقد كنت موشكا أن أقتلك فى هـــذه الغرفة . ولسوف اقتلك بالتأكيد إذا لم نحزم امتعتنا فورا ! »

وبسرعة ـ وفى سكون ، ودون أن ينظر احـــدهما الى الآخر ـ حزما أمتعتهما ، ثم جاء البواب واخذها .. وكان ريكس يلعب البوكر فى الشرفة مع اثنين من الامريكيين وأحد الروس ، فى ظل شجرة كافور ضخمة . وكان الحظ ضده فى ذلك الصـــباح . ومن ثم راح يفكر فى خدعة صغيرة يستخدمها فى الدور التالى .. وفجأة رأى ـ وراء شجيرات المانوليا ـ سـيارة البينوس تتحرك فى الطريق القريب من « الجراج » ، وقد استدارت فى حركة جنونية ، ثم اختفت .. فتمتم ريكس : « ترى ماذا هنالك ؟ .. من الذى يقود هذه السيارة ؟ »

ودفع ما عليه ، ثم ذهب يبحث عن مارجوت ، فلم يجدها فى ملعب « التنس » ، ولم يجدها فى الحديقة . واذ صعد ، وجد باب البينوس مفتوحا ، والحجرة ساكنة ، وخـــزانة الملابس مفتوحة وخالية ، والرف الزجاجى ـ الذى يعلو حوض الغســيل ـ خاليا كذلك .. فمط شفته السفلى ، وهبط ليتأكد من أنهما ـ على الاقل ـ قد دفعا أجر غرفته .

الفصل الواحد والثلاثون

كثير من الناس يستطيعون – دون ان يكون لديهم الخبرة الفنية – أن يقوموا باصلاح أسلاك الكهرباء بعد انقطاع النور ، أو اصلاح ساعة توقفت عن الدوران بواسطة مبراة وجعلها تدور ثانية ، أو حتى عند الضرورة تقديد شريحة من اللحم . **ولكن البينوس لم يكن واحدا من هؤلاء . فلم يكن بوسعه أن يعقد رباط عنقه ، أو ان يقص اظافر يده اليمنى ، أو ان يحزم لفافة ..** ولم يكن يملك أن ينزع سدادة زجاجة دون أن يفتت نصف السدادة ، ثم يسحب نصفها الاخر . وفى طفولته ، لم يعتد قط أن يبنى أى شىء مما يبنيه الاطفال الاخرون . كما أنه لم يفكر يوما – فى شبابه – فى أن يفكك أجزاء دراجته ، او ان يفعل بها اى شىء ، اللهم الا ان يركبها . وكان – اذا تعبت احدى عجلتيها – يدفع بها ، وهى عاجزة تزحف كخف قديم ، الى اقرب محل لاصلاح الدراجات . وعندما تعلم تجديد اللوحات الزيتية – فيما بعد – كان يخاف على الدوام ان يلمس النسيج بنفسه . وقد اشتهر خلال الحرب بالعجز المدهش عن أن يفعل بيده أى شىء على الاطلاق . **لذلك ، لم يكن ثمة عجب يذكر ، من انه لم يكن يحسن قيادة السيارة !**

واذ غادر (روجينار) – ذات الشوارع الضيقة المزدحمة بالناس والعربات : حيث كان عليه ان يستعمل البوق وان يتوقف ، بين الحظة واخرى ، باهتزاز عنيف ، او يحيد مضطربا مترنحا – اخذ يقود السيارة فى سهولة ويسر عبر الطريق المتسعة الخالية .. **واذ ذاك بدأت الافكار السوداء تهاجم عقله فى تباين واختلاط :** فخطر بباله ان الطريق سريعا ما سيزداد ارتفاعا وتصعيدا فى الجبال ، وان الريح

سريعا ما ستبدأ تهب هبوبا عنيفا خطرا ، وان زر قميص ريكس قد علق ذات مرة فى ثوب مارجوت ، وأن قلبه لم يكن مثقلا ومبلبلا من قبل كما هو الان !

وفجأة ، لاحت له حافلة كبيرة مقبلة من بعيد ، فداس على آلة التوقف فى عنف ، فصاحت مارجوت قائلة : « ماذا تفعل يا البير ؟ الزم يمينك .. هذا كل ما عليك أن تفعله!» .. ومرت السيارة الكبيرة فى ضجيج ـ وكانت مملوءة بالسياح ـ وانطلق البينوس مرة اخرى . وبدأ الطريق يدورحول الجبل .

وقال فى نفسه : « هل يهمنى أين نحن ذاهبان ؟ ..اننى فى اى مكان ذهبنا ، لن أستطيع ان اهرب من هذا الالم .. لقد وصف حديثهما بانه : « ارخص واقذر كلام مرتفع سمعته » .. اننى ساجن ! » . وراحت مارجوت تستحلفه ان يلزم الحذر ، وتلحف فى السؤال عن مقصدهما ..

وعندئذ سألها البينوس فى صوت واهن قائلا : « هل تقسمين لى أنه لم يكن هنالك شىء ؟ » .. ثم شعر بالدموع الساخنة تغشى بصره ، فراح يحملق حتى وضح الطريق امامه مرة آخرى ، بينما قالت مارجوت : « اقسم لك .. لقد تعبت من كثرة ما اقسمت لك ، فاقتلنى ، ولكن لا تعذبنى اكثر من ذلك ! » . ثم قالت : « إننى أشعر بالحر خانقا ، وسأخلع معطفى » . فداس على أداة التوقف .. وضحكت مارجوت قائلة : « ما الحاجة للوقوف من أجل هذا ؟ .. أوه يا حبيبى ، يا حبيبى ! »

وراح يعاونها فى خلع معطفها الذى غطاه التراب . وفيما هو يفعل ذلك ، تذكر ـ بقوة طاغية ـ كيف انه لاحظ لاول مرة ، وهما فى مقهى صغير متواضع ـ منذ وقت طويل مضى ـ الطريقة التى تحرك بها ذراعيها وتحنى عنقها البديع وهى تتخلص من كميها .. وعندئذ تساقطت الدموع من

عينيه وانسابت على وجنتيه دون أن يستطيع لها ضبطا. فطوقته مارجوت بذراعيها وألصقت خدها بجبينه المطأطىء !

وكانت سيارتهما واقفة بالقرب من سياج الطريق ، وهو حائط من الحجر الضخم يرتفع قدما واحدة ، وتقع خلفه هوة سحيقة يحف بها نبات العليق ويتدلى منحدرا فيها ، ويمكن للاذن أن تسمع فى أعماقها البعيدة هسيس وخرير مياه غدير سريع الجريان . وعلى الجانب الايسر من الطريق كان يقوم مرتفع صخرى ضارب الى الحمرة ، وقد اكتست قمته بأشجار الصنوبر .. وكانت الشمس قد اشتد اوارها ..

وقال ألبينوس لمارجوت وهو يئن ويتأوه : « أحبك حبا جنونيا .. حبا جنونيا ! » . وراح يلاطفها ويربت يديها بحركة ثائرة ، فضحكت فى نعومة ضحكة راضية .. وما لبث ان انطلق بالسيارة ، وقد بدا له الان انها طيعة وسهلة القيادة اكثر من ذى قبل . ولم يعد يقبض على عجلة القيادة بانفعال شديد كما كان يفعل منذ حين . الا أن المنحنيات بدأت تكثر شيئا فشيئا . وكان يرتفع على أحد الجانبين جرف الجبل ، وتهوى على الجانب الآخر وهدة سحيقة ، والشمس تسطع فى عينيه ، ومؤشر السرعة يهتز ويرتفع .. **وما لبث ان ظهر انحناء حاد فى الطريق ، فتأهب ألبينوس لان يجتازه بقدر خاص من المهارة** . وكانت فى اعلى الطريق امرأة عجوز تجمع الاعشاب ، فرأت عن يمين الجرف هذه السيارة الصغيرة الزرقاء تسرع نحو المنحنى الذى فى الجهة الاخرى منه .. ورأت اثنين من راكبى الدراجات ، منحنيين على مقبض دراجتيهما ، مقبلين بسرعة ..

الفصل الثانى والثلاثون

رأت المرأة العجوز ـ التى كانت تجمع الاعشاب على جانب الجرف ـ السيارة مقبلة ، وراكبى الدراجتين منطلقين نحو المنحنى الحاد ، من اتجاهين متقابلين .. ومن طائرة للبريد ـ كانت تتجه نحو الساحل ، فى اديم السماء الازرق المشرق ـ كان بوسع الطيار ان يرى منحنيات الطريق ، وجناحا طائرته ، يلقيان ظلالهما على المنحدرات المشمسة .. وكان بوسعه أن يرى كذلك قريتين تبعد احداهما عن الاخرى اثنى عشر ميلا ، ولعله لو ارتفع اكثر من ذلك قليلا ، لاستطاع أن يرى كذلك جبال (بروفنس) ، ومدينة بعيدة فى بلاد أخرى ، هى (برلين) ، حيث كان الجو حاراً كذلك ، لانه فى ذلك اليوم بالذات كانت وجنة الارض من (جبل طارق) الى (ستوكهولم) مصطبغة بضياء الشمس الدافئة .. ولقد بيعت فى برلين ـ فى ذلك اليوم ـ كمية هائلة من المثلجات . ولطالما كانت ايرما تقف متطلعة ـ بفضول الطفولة ـ الى بائع «الآيس كريم» ، وهو يملأ قرطاسا من « البسكويت » الرقيق بالحلوى المتجمدة التى تجعل لسان المرء يرقص حين يذوقها ، وتدغدغ اسنانه الامامية بخدر لذيذ .. **لذلك فحين خرجت اليزابيث الى الشرفة ، ووقعت عينها على بائع ((الآيس كريم)) ، بدا لها أمرا غريبا أن ملابسه كانت كلها بيضاء ، وان ملابسها كانت كلها سوداء !**

كانت قد استيقظت من نومها ـ فى ذلك الصباح ـ متعبة جدا ، وقد تحققت فى توجس شديد ، انها أفاقت لاول مرة من حالة التبلد التام التى استسلمت لها فى الايام الاخيرة .. ولم تستطع أن تفهم السر فى شعورها بضيق خانق ! .. وتمهلت بعض الوقت فى الشرفة ، تفكر فى احداث اليوم

السابق ، الذى لم يقع فيه أى شىء ذو بال ، اللهم الا الذهاب الى فناء الكنيسة – كعادتها – ومنظر النحل يحط هنالك على الزهور ، وبريق السياج الرطب المحيط بالقبر، والتراب الناعم ، والسكون .. **وقالت فى نفسها : « ترى ماذا هناك ؟ .. لماذا أشعر باضطراب فى أعماقى ؟ »**

وكانت الشمس تلقى ضوءها الباهر على قرميد الاسطح فى برلين ، وفى بروكسل ، وفى باريس ، وفيما بعدها نحو الجنوب .. وكانت طائرة البريد تتجه الى (سان كاسيان) . اما المرأة العجوز التى كانت تجمع الاعشاب على المنحدر الصخرى ، فستظل عاما كاملا – على الاقل – تروى للناس كيف رأت .. ما رأت !

الفصل الثالث والثلاثون

لم يكن « ألبينوس » يدرى متى ولا كيف عرف هذه الاشياء: كم مضى من الوقت منذ انطلاقه نحو ذلك المنحنى حتى الآن ؟ .. مضى اسبوعان ! .. واين هو فى الوقت الحاضر ؟ كان بمستشفى فى (جراس) .. واية عملية جراحية اجريت له ؟ .. كانت عملية تربنة .. وما علة فقده للوعى كل هذه المدة الطويلة ؟ .. كان ذلك بسبب تدفق الدم فى المخ .. بيد انه جاءت لحظة تجمعت فيها كل هذه الأمور فى أمر واحد : **وذلك انه على قيد الحياة ، وانه فى كامل وعيه ، وقد أدرك ان مارجوت والممرضة قريبتان منه ، وانه كان ينام نوما عميقا ، وقد استيقظ لتوه ! ..**

ولكن ترى كم كان الوقت ؟ .. لم يكن يعلم .. ربما لم يزل فى الصباح المبكر !

وكان يغطى جبينه وعينيه رباط ناعم سميك ، ولكن

اعلى راسه لم يكن مغطى بشىء ، وقد ادهشه ان تحس اصابعه جذور شعر جديد نابت فى راسه . وكان يحتفظ فى ذاكرته بصورة تحكى — فى قوة بريقها وتألق ألوانها — صورة فوتوغرافية ملونة ، على لوح من البلور ، وقد بدا فيها انحناء الطريق الازرق المصقول ، وعن يساره الجبل الاحمر المكسو بالخضرة ، وعن يمينه السياج الممتد ، وامامه راكبا الدراجتين يقتربان ، كقردين قذرين فى قميصين بلون البرتقال .. ثم **الدفعة المنيفة لعجلة القيادة لتلافيهما .. واندفاع العربة مرتقية كوما من الصخور على اليمين ، ثم عامود اسلاك البرق — فى الجانب الآخر — يلوح امام زجاج السيارة** .. ثم ينطفىء النور !

ولقد أكملت مارجوت هذه الذكرى له ، فقد قالت له ، أو بالاحرى قال له صوتها بالامس ، او اول امس ، او ربما قبل ذلك .. ولكن لماذا صوتها فقط ؟ .. لماذا لم يرها منذ وقت طويل ؟ .. انها تلك العصابة على عينيه .. وقد يرفعونها قريبا .. ماذا قال له صوت مارجوت ؟ .. قال له : « .. لولا عامود البرق لكانت السيارة قد قذفت بنا من فوق السياج ، وسقطنا فى الهوة السحيقة .. لقد كان شيئا مروعا ، وما زال بى أثر كدم شديد فى فخذى .. وقد انقلبت السيارة ثم تهشمت كأنها البيضة » .. ثم راحت تقلد كلام الممرضة الفرنسية قائلة : « انها تساوى الف .. آلافا كثيرة من الماركات » ، واذ عجزت عن التعبير سألته قائلة : « ألبير .. كيف يقولون الفين بالفرنسية ؟ » . فأجابها : « أوه ، وماذا يهم .. مادمت انت قد نجوت ! »

وقالت : « لقد كان راكبا الدراجتين ظريفين جدا .. ساعدانى فى جمع كل الاشياء .. ولكنهما لم يتمكنا من العثور على مضرب التنس » .. مضرب التنس ؟ ! .. انه

ليذكر الشمس تلمع على مضرب التنس .. لماذا كان هذا مزعجا جدا ؟ .. آه ، نعم .. انه ذلك الامر الذى يشبه الكابوس فى (روجينار) .. هو والمسدس فى يده ، وهى قادمة بحذاءين من المطاط .. هراء كل ذلك .. لقد زالت غمته ، وكل شىء على ما يرام .. كم الساعة الان ؟ .. متى يرفعون الرباط ؟ .. متى يمكنه أن يغادر الفراش؟.. وهل نشر الحادث فى الصحف .. فى الصحف الالمانية ؟

وأدار رأسه الى هذه الناحية ، ثم الى تلك ، والرباط يضايقه ، كما كان يضايقه ذلك التعارض بين حواسه . فقد كانت أذناه تلتقطان أصوات أشياء كثيرة ، بينما لا ترى عيناه شيئا .. ولم يكن يدرى شكل الغرفة ، ولا الممرضة، ولا الطبيب .. والوقت ؟ هل هو الصباح ؟ .. لقد نام نوما طويلا طيبا .. ولربما كانت النافذة مفتوحة ، لانه كان يسمع وقع حوافر جواد فى الخارج ، وصوت خرير ماء ، وقعقعة دلو .. ولربما كان ثمة فناء به بئر ، ويظلله شجر « الدلب » فى الصباح الرطيب !

* * *

وظل مستلقيا بعض الوقت بلا حراك ، محاولا أن يوفق بين الاصوات المختلفة ليجعل منها صورا فى مخيلته .. وسمع صوت « مارجوت » وهى تضحك ، ثم ضحكت بعدها الممرضة ! .. وبدا له انهما تجلسان فى الغرفة المجاورة . وكانت الممرضة تعلم « مارجوت » كيف تنطق لفظا فرنسيا نطقا صحيحا ، فراحت مارجوت تكرره عدة مرات ، ثم ضحكا معا ضحكا رقيقا !

وبدأ « ألبينوس » ـ وهو يشعر بأنه يفعل شيئا ممنوعا منعا باتا ـ يرفع العصابة عن عينيه فى حذر ، وينظر خلسة

من ورائها .. **ولكن الغرفة ظلت مظلمة ، وقد عجز عن أن يرى حتى ذلك البصيص الذى كان ينساب خلال النافذة ، أو تلك الرقع الخافتة من الضوء التى تلوح على الجدران فى الليل ..** اذن فقد كان الوقت ليلا . ولم يأت الصباح بعد. فكم يمكن ان تكون الأصوات خادعة ؟ !

ومن الغرفة المجاورة جاء صوت ارتطام اقداح قهـوة أو شاى ، فراح ألبينوس يتحسس بيده المنضدة المجـاورة للفراش ، حتى عثر على المصباح الكهربائى الصغير ، فضغط زره مرة ، ثم مرة أخرى .. **ولكن الظلمـة ظلت كما هى ، وكأنهـا أثقل من ان تتحرك !..** لعل التيار مقطوع اذن !.. وراح يبحث بأصابعه عن علبة الثقاب حتى وجدها ، وكان بها عود واحد ، فأشعله ، وسمع أزيزه الخفيف الدال على انه أشتعل .. **ولكنه لم ير اى لهب فى الظلام !** .. وألقى بالثقاب بعيدا ، وقـد صـعدت الى أنفه رائحة الكبريت المحترق .. ثم صاح فجأة : « مارجوت .. مارجوت ! »

وارتفع صوت خطوات تقترب ، وباب يفتح ، ولكن شيئا لم يتغير .. كيف يمكن أن يكون البهو المقابل للباب مظلما ، وقد كانتا تشربان القهوة هناك ؟ ! .. وقال محنقا :«أضيئى النور .. أرجوك ، النور ! » .. فقال صوت مارجوت ، وهو يشعر بها تقترب بخفة خلال الظلمة المطبقة : « أنت ولد شقى .. يجب الا تمس هذه العصابة ! »

وقال مغمغما : « مـاذا تعنين ؟ .. يبدو انك ترينني ، فكيف يمكنك أن ترينني فى الظلام ؟ .. أضيئى النور توا .. أسامعة انت ؟ ! » .. فقال صوت المرضة : «اهدأ .. لاتعرض نفسك للانفعال ! »

وبدت له هذه الاصوات ، وهذه الخطوات ، كأنها تحدث فى عالم آخر .. **فهو هنا ، وهما فى مكان آخر ، ولكنهما**

مع ذلك - بطريقة لا يمكن تعليلها - قريبتان منه جدا ، وفى متناول يده .. كأن بينهما وبين الليل الذى يكتنفه جدار لا سبيل الى اختراقه .. وراح يفرك مقلتيه ، وأدار رأسه يمنة ثم يسرة ، وأخذ يهز نفسه ، ولكن .. أستحال عليه أن يشق لنفسه طريقا خلال تلك الظلمة الصلبة ..

وصاح « ألبينوس » فى انتفاضة يأس : « لسوف أجن ، افتحى النافذة ! .. افعلى شيئا ! » ، فقالت متلطفة : « ان النافذة مفتوحة » . وعاد يقول : « ربما تكون الشمس غير طالعة يا مارجوت .. ربما أستطيع أن أرى شيئا من الشمس الساطعة ، ولو أقل بصيص .. أو ربما بالنظارة!» ..

فقالت له : « اهدأ يا حبيبى .. فالشمس مشرقة ، وانه لصباح رائع .. انك تؤلمنى يا ألبير ! » . وتمتم مذعورا : « أنا .. أنا .. ! »

ثم راح يعب أنفاسا عميقة ، وكأنما صدره كرة عظيمة يقصف فى جوانبها هدير عاصف ، يطلقه فيها بقوة وعنف ، حتى اذا فرغ ما بها ، راح يملأها من جديد !

الفصل الرابع والثلاثون

وما لبثت جروحه وكدماته أن شفيت ، ونما شعره مرة أخرى . **الا ان ذلك الشعور المروع - شعوره بأن جدارا أسود أصم يقوم أمامه - ظل راسخا لا يتغير ..** وبعد تلك النوبات من الرعب القاتل ، التى كانت تنتابه ، فيصرخ ويولول ويندفع محاولا - فى جنون - أن يمزق شيئا ما عن عينيه ، أخذ يستسلم لحالة نصف الوعى التى كانت ترين عليه . بيد أنه كان لا يلبث أن يحس - مرة أخرى - بذلك الجبل الراسخ من الضيق يجثم على صدره ،

وبذلك الرعب الذى يشبه رعب الذى يستيقظ فجأة فيجد نفسه فى قبره !

الا أن هذه النوبات بدأت تقل بالتدريج .. وفى النهاية، أصبح يستلقى على ظهره ساعات طويلة ساكنا بلا حراك، ينصت الى الاصوات المنبعثة أثناء النهار .. تلك الاصوات التى كانت تبدو له وكأنها معرضة عنه، مقبلة على سواه! .. **وكان لا يلبث أن يتذكر ذلك الصباح فى (روجبنار)، الذى كان بداية الامر كله .. ثم يروح يئن ويتأوه من جديد ..** كان يتخيل السماء، والآفاق الزرقاء، والظلال والاضواء، والمناظر الطبيعية الحبيبة الحالمة، التى قليلا ما تطلع اليها — وا أسفاه ! — قبل أن يفقد نور عينيه ..

وكان لا يزال فى ذلك المستشفى حين قرأت له مارجوت بصوت مرتفع خطابا من ريكس، جاء فيه :

« لا أدرى — يا عزيزى ألبينوس — ما الذى صدمنى وكان أكثر ايلاما لى : **أهو الخطأ الذى ارتكبته نحوى بر حيلك المفاجىء، البعيد كل البعد عن اللياقة أو اللباقة، أم هى الكارثة التى حلت بك ؟ !** .. بيد أننى — برغم أنك جرحتنى جرحا عميقا — استشعر نحوك العطف من صميم قلبى فى بلواك، لا سيما حين اذكر شغفك بالرسوم والصور وروائع الالوان .. تلك التى تجعل من البصر أمير حواسنا جميعا!

« اننى راحل اليوم عن باريس الى انجلترا، ومنها الى نيويورك .. ولسوف يمضى وقت طويل قبل أن أعود الى المانيا مرة أخرى، فأرجو أن تبلغ تحياتى الرقيقة الى صاحبتك، **التى كانت طبيعتها الهوائية المتلافة — فيما يبدو — هى السبب فى غدرك بى .. انها مع الاسف غير وفية الا لنفسها !** .. ولكنها ككثيرات غيرها من النساء، تشغف بأن تكون موضع الاعجاب والتدله من الآخرين، مما قد ينقلب الى حقد

وضغينة ، حين يكون الرجل المقصود ـ بسبب صراحته ومظهره القبيح وميوله الشاذة ـ غير قادر الا على أن يثير هزءها ونفورها !

« صدقنى يا ألبينوس ، اننى أحبك جدا .. أكثر كثيرا مما أبديت لك . ولو انك انبأتنى صراحة بأن وجودى قد أصبح ثقيلا عليكما ، لكنت قد قدرت صراحتك كل التقدير ، ولظلت ذكرياتنا بعيدة عن أن يخيم عليها ظل فراقك الغادر !»

وقال ألبينوس : « نعم ، هذا خطاب رجل مصاب بشذوذ جنسى .. ولكن لا بأس ، فأنا مسرور لأنه رحل .. **ولعل الله قد عاقبنى يامارجوت بسبب ريبتى فى اخلاصك .. الا انه ويل لك اذا .. ! »**

وغرق مرة اخرى فى الصمت ، ثم بدأ يصدر عنه ذلك الصوت المكتوم ، الذى يجمع بين الانين والهدير ، والذى كانت تبدأ به دائما نوبات الرعب التى تنتابه ، اذا ما بدأت دياجير الليل المروع تطبق عليه .. حتى اذا هدأت نفسه ، قالت له مارجوت انها ذاهبة الى ادارة المواصلات ، وطبعت قبلة على خده ثم خرجت تسير فى رشاقة ، ملتزمة الجانب الظليل من الشارع .. **وسرعان ما دخلت مطعما صغيرا رطبا ، وأخذت مكانها بجانب ريكس .. وكان يشرب نبيذا أبيض !**

وسألها ريكس : « حسنا ، ماذا قال الشحاذ الأبله عن الخطاب ؟ .. ألم أكتبه بمهارة ؟ » . فقالت : « نعم ، لقد كان وافيا بالغرض .. لسوف نرحل يوم الخميس الى (زيوريخ) ، لعرضه على ذلك الاخصائى ، فأرجو أن تشترى بطاقات السفر ، على أن تختار مقعدك فى عربة أخرى .. فهذا اسلم ! » . ولكن ريكس قال فى غير اكتراث : « اشك فى أنهم سيعطوننى البطاقات بلا مقابل » .

فابتسمت مارجوت ابتسامة ناعمة ، وراحت تخرج النقود من حقيبة يدها . واذ ذاك ، أردف قائلا : « ولعل الأمر يكون أكثر بساطة ، اذا ما كنت أنا الذى يتولى الانفاق دائما ! »

الفصل الخامس والثلاثون

بالرغم من أن البينوس ، كان قد مشى قبل ذلك - وان يكن فى تردد يبعث على الاشفاق - فى دروب حديقة المستشفى المفروشة برمال تخشخش تحت القدمين ، الا أنه أثبت عجزه التام عن احتمال الرحلة الى (زيوريخ) .. ففى محطة السكة الحديد ، بدا رأسه يدور .. **وليس ثمة أكثر احساسا بالعجز لدى الاعمى من ان يدور راسه ، فقد كانت الاصوات التى تنبعث حواليه تهز كيانه هزا ..** كلام الناس ، ووقع خطواتهم ، وقعقعة العجلات وصليل الاشياء الصلبة .. كل هذه كانت تزعجه . وكان يخيل اليه أن كل شيء حوله يندفع نحوه ، ويكاد أن يدهمه .. كانت كل لحظة من اللحظات معبأة بالخوف من أن يصطدم بشىء ما ، بالرغم من أن مارجوت كانت تقوده .

وفى القطار ، شعر بغثيان فى حلقه ، اذ عجز عن أن يوفق - فى ذهنه وحسه - بين اهتزاز العربة وقعقعتها ، وبين سرعة اندفاعها .. وكم من مرة حاول جاهدا أن يتخيل المنظر الطبيعى الذى كان ينطوى مسرعا أثناء سير القطار .. ثم كان عليه مرة أخرى - فى زيوريخ - أن يشق طريقه بين الاشخاص والاشياء ، وهو - فى الظلام الذى كان يكتنفه - يرتطم بكل ما يعترض سبيله ، حتى لقد قالت له مارجوت فى حدة : « أوه ، سر معى ، ولا تكن خائفا

هكذا ! .. اننى اقودك .. والآن قف ، فنحن موشكان ان نركب السيارة .. هيا ، ارفع رجلك ! .. الا يمكنك ان تكون أقل تهيبا ؟.. كأنى بك فى الثانية من عمرك ! »

وقام « البروفيسور » — وهو طبيب عيون مشهور — بفحص كامل لعينى البينوس .. وكان ذا صوت رقيق وقور ، حتى لقد تصوره البينوس شيخا ذا وجه حليق يشبه وجه القسيس . بيد أنه كان — فى الواقع — فى أوسط العمر ، ذا شارب كث . وقد قال ما كان البينوس يعرف أغلبه بالفعل : ان أعصاب البصر قد تلفت عند نقطة التقائها بالمخ ، ومن المحتمل ان تشفى من هذا العطب ، كما انه من المحتمل أن ينتهى الامر بضمورها ضمورا كاملا .. كل من الاحتمالين يعادل الآخر .. وعلى أية حال ، فان أهم شىء بالنسبة للمريض فى حالته الراهنة ، هو الراحة .. ولعل اقامته فى مصح فى الجبل تتيح ذلك .. وختم البروفيسور كلامه قائلا : « وسنرى ما يمكن ، بعد ذلك » .. فردد البينوس عبارته بابتسامة حزينة قائلا : « سترى ؟ »

ولم ترق فكرة المصحة لمارجوت ، فعرض عليها زوجان ايرلنديان — قابلاهما فى الفندق — أن يتركا لهما « الشاليه » الصغير الذى كانا يمتلكانه فى منتجع جديد فى أعلى الجبل .. واستشارت « ريكس » ، ثم تركت « البينوس » مع ممرضة استأجرتها لذلك ، وسافرت فى صحبة « ريكس » لترى المكان .. وكان مسكنا جميلا ، يتمثل فى منزل صغير ذى طابقين ، وبه عدد من الحجرات الصغيرة النظيفة ..

ووجد « ريكس » المنزل موافقا لهواه : فقد كان منفردا تماما ، يقوم على قمة منحدر بين أشجار « التنوب » الكثيفة الظليلة .. وعلى مسيرة ربع ساعة منه فقط ، كانت القرية

والفنادق .. وقد اختار « ريكس » لنفسه أكثر الغرف نصيبا من الشمس فى الطابق الاعلى ، وقال الطاهية :

ـ اننا نمنحك هذا الاجر المرتفع لأنك ستكونين فى خدمة رجل أصيب بالعمى نتيجة صدمة عقلية عنيفة .. **وأنا الطبيب الذى يعالجه ، الا أنه نظرا لحالته العقلية ينبغى ألا يعرف أن ثمة طبيبا يعيش فى البيت معه ومع ابنة أخيه!..** ومن ثم فلو صدرت عنك اقل اشارة ـ مباشرة أو غير مباشرة ـ تنم عن وجودى ، كأن تخاطبيننى على مسمع منه ، فسوف تكونين مسئولة ـ فى نظر القانون ـ عن كل عواقب عرقلتك لتقدمه فى طريق الشفاء ، وأعتقد أن ثمة عقابا فى سويسرا عن مثل هذا التصرف ، فضلا عن إننى انصحك بألا تقتربى من مريضى ، أو تدخلى معه فى حديث من أى نوع ، لأنه معرض لأعنف نوبات الجنون .. وقد يعنيك أن تعرفى أنه قد سبق أن أوقع ضررا بالغا بامرأة عجوز ـ لها شبه كبير منك ، وان تكن غير جذابة مثلك ـ اذ لطمها لطمة مروعة على وجهها .. وانا لا يعنينى ـ على اية حال ـ ان يتكرر هذا الامر مرة أخرى معك.. **وأهم كل شىء انك اذا ثرثرت لأهل القرية عن أى شىء يثير فضولهم ، فان مريضى ـ فى حالته الراهنة ـ قد يحطم كل شىء فى البيت ، مبتدئا برأسك أنت .. فهل فهمت ؟**

وذعرت المرأة الى درجة انها رفضت هذا العمل برغم أن اجره كان فوق كل مستوى مألوف .. ولم تفكر فى العدول عن رفضها الا حين أكد لها « ريكس » أنها لن ترى الرجل الاعمى ، لان ابنة اخيه تخدمه .. والا حين اقسم لها بأنه يكون مسالما جدا ، ما لم يضايقه احد .. كذلك اتفق معها على الا تسمح لأية غسالة او صبى جزار بدخول البيت ..

وفى نحو الساعة الخامسة كان يتطلع خلال منظار مقرب، فرأى سيارة ـ فى أسفل المنحدر ـ تسعى الى البيت . وما لبثت مارجوت ـ وهى فى ثوب فاقع الحمرة ـ أن قفزت منهـا ، بمجرد توقفها ، وعاونت البينوس على النزول . وكان بمنكبيه المقوسين ، ونظارته السوداء ، يبدو كأنه « البومة » .. وما لبثت « مارجوت » أن امسكت بذراع الرجل الوديع المضطرب ، فسار معها فى درب الحديقة وعصاه أمامه .. واختفيا خلف بعض أشجار « التنوب » ، ثم ظهرا ثانية ، ثم اختفيا مرة أخرى ، وأخيرا ظهرا أمام الشرفة الصغيرة .

وفى الوقت ذاته ، كان «ريكس» يطل من النافذة ، ويحيى مارجوت بحركات مضحكة ، وهو لا يفتأ يضغط قلبه بيده ، ثم يبسط ذراعيه فى ضراعة مصطنعة . وكان ذلك كله ـ بطبيعة الحال ـ فى مشهد صامت ، وان كان خليقا بأن يتحول الى مشهد ناطق ، بل صارخ ، لو أن الظروف كانت مواتية . وابتسمت مارجوت لعشيقها ، ثم دلفت الى الداخل ، وهى بعد ممسكة بذراع البينوس ، الذى قال لها : « خذينى فى الغرف جميعا ، وصفى لى كل شىء ! »

* * *

وراحت مارجوت تصف له كل شىء ، وهى تقـوده فى الطابق الارضى قائلة : « هذه غرفة طعام صغيرة .. وهـذه غرفة جلوس صغيرة .. وهذه غرفة مكتب صغيرة». وراح البينوس يلمس الاثاث ، ويربت الاشياء المختلفـة وكأنها رؤوس أطفال غرباء ، محاولا أن يتلمس طريقه بينها جميعا . وقال وهو يشير فى ثقة الى حائط أصم : « اذن فالنـافذة هنا ؟ » .. ثم اصطدم اصطداما مؤلما بحافة منضـدة ،

فحــاول أن يتظاهر بأنه انما فعــل ذلك متعمدا ، وراح يتحسسها بيديه وكأنه يريد ان يقيسها ..

ثم صعدا – جنبا الى جنب – درجات السلم الخشبى وهى تئز فى صريف تحت أقدامهما .. **وكان ريكس جالسا فى أعلى السلم ، يهتز فى سرور صامت ، فلوحت له مارجوت بأصبعهـــا ، فانتصب على قدميه فى حذر ، ثم تراجع الى الخلف على اطراف اصابعــه** .. وكان ذلك فى الواقع أمرا يتجاوز الحد ، لأن السلم ارسل – فى تلك الاثناء – صريفا حادا .. وبلغ البينوس ومارجوت الردهـــة ، فدلفا فيهـــا . وراح ريكس – وقد وقف عند باب غرفته – يقعى ثم ينتصب عدة مرات ، وهو يضغط فمه بيده ، فهزت مارجوت رأسها فى غضب ، اذ كانت تلك لعبة خطرة ..

وقالت مارجوت لالبينوس : « هذه غرفة نومى ، وهذه غرفة نومك » . فسألها فى اهتمام : « ولماذا غرفتان ؟ » . فهتفت : « أواه يا البير .. انت تعلم ماذا قال الدكتور ! »

واذ طافت به الغرف جميعا – فيما عدا غرفة ريكس طبعا – راح البينوس يحاول أن يســـير فى المنزل بدون مساعدتها ، لا لشىء الا ليريها أنها وفقت بشكل رائع فى أن تصف له كل شىء . ولكنه ضل طريقه فى الحال ، فجرى نحو الحائط . **وابتسم معتذرا ، اذ كاد أن يحطم حوض الغسيل . كما أنه ضل طريقه الى الغرفة التى فى نهـاية الردهة ، والتى احتلهـا ريكس** .. فصــاحت مارجوت : « خذ حذرك ، فهذه غرفة للمهملات ! .. إنك ستحطم رأسك .. والآن ، عد على عقبيك ، وحاول أن تسير رأسا الى الفراش .. والحقيقة اننى اخشى ان يكون لكل هـــذا السير والتخبط اثر سىء .. لا تتصـور اننى سأتركك تستمر فى التجول هكذا ، بعد اليوم ! »

والواقع أنه شعر فعلا بإرهاق شديد ، فمضت به مارجوت الى غرفة الطعام وجاءت له بالعشاء .. **حتى اذا ذهب بعد ذلك لينام ، ذهبت هى الى « ريكس » ..** ولما كانا غير خبيرين بعد بمدى سريان الاصوات فى المنزل ، راحا يتكلمان فى همس .. ولو أنهما تحدثا بصوت مرتفع ، لما سمعهما « البينوس » ، فقد كانت غرفته بعيدة .

الفصل السادس والثلاثون

لم يلبث ذلك الستار الحديدى الاسود — الذى كان البينوس يعيش فى داخله — أن أصبح مشربا بمزيج من الاسى ونبل المشاعر والافكار . فقد فصلت الظلمة بينه وبين تلك الحياة السابقة ، التى انطفأت فجأة فى أدق منحنياتها ، **ولم يعد له الا أن يستعيد مشاهدها الماضية على مسرح عقله** : فها هى ذى مارجوت فى مئزر محلى بالرسوم تزيح بيدها ستاراً أرجوانيا يحن اليوم الى لونه الكابى .. وهاهى ذى تحت المظلة الزاهية الالوان ، تخطر بين الغدران القرمزية .. ثم ها هى ذى عارية أمام المرآة فى غرفة النوم ، تقضم فاكهة كهرمانية .. وها هى ذى فى لباس البحر المتألق ، تلقى الكرة بيديها .. ثم هاهى ذى فى ثوب المساء الفضى ، بكتفيها المصطبغتين بلفحة الشمس القانية .

وكان لا يلبث أن ينقلب الى التفكير فى زوجته ، وقد أصبحت حياته معها تتراءى له من وراء غشاوة من ضباب لا ينفذ اليها سوى شعاع واهن ، فلم يكن يبين له الا لمحات خاطفة : شعرها الاشقر فى ضوء المصباح ، او النور ينعكس على اطار صورة ، او « ايرما » تلعب بقطع من البلور تنعكس

من كل منها الوان قوس قزح .. ثم لا يلبث الضباب أن يدلهم ويتكاثف مرة أخرى !

كل شىء فى حياته السابقة ـ حتى أسوأ الاشياء وأدعاها للخزى والخجل ـ اصبح يبدو له مموها بسحر الالوان الخلابة ! .. ولكم راعه أن يدرك الآن كم كان مقترا فى استخدام عينيه ، فقد كانت هذه الالوان تتراءى فى صور شديدة الابهام ، وقد اختلطت معالمها بشكل عجيب ، الى درجة أنه أصبح اذا تذكر ـ مثلا ـ منظرا طبيعيا عاش بين أحضانه ذات مرة ، لا يستطيع الآن يميز من نبات هذا المنظر سوى الازهار واشجار السنديان ، ومن طيوره سوى العصافير والغربان .. بل ان هذه أيضا كانت تتراءى فى ذهنه أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة .. واصبح يدرك انه لم يكن يختلف أى اختلاف عن اى شخص من أولئك الذين ينحصر تخصصهم فى نطاق ضيق ، والذين اعتاد ان يستخف بهم وان يسخر منهم ، كذلك العامل الذى لايعرف من دنياه شيئا غير آلاته وأدواته ، وذلك الموسيقار الذى هو جزء من آلته الموسيقية ، وان صيغ من لحم ! ولقد كانت الصفة المميزة لالبينوس هى عشقه للفن ، وكانت أروع اكتشافاته هى « مارجوت » .. **أما الان فكل ما بقى منها أصبح مجرد صوت ، وحفيف ثوب ، وشذا عطر ..**

الا أن « البينوس » لم يكن يستطيع دائما أن يسرى عن نفسه بالتفكير فيما يتصل بالادب ، او بالجمال والفن .. ولم يكن يستطيع دائما أن يفلح فى اقناع نفسه بأن العمى الجسدى هو الابصار الروحى .. وعبثا حاول ان يخدع نفسه بزعم ان حياته مع مارجوت ، قد اصبحت أسعد واعمق واكثر براءة وطهرا .. وعبثا حاول ان يحصر كل تفكيره فى حبها العميق الاثر فى النفس .. فما من شك فى

ان هذا الحب كان عميق الاثر حقا ، وما من شك فى ان مارجوت كانت افضل من اكثر الزوجات اخلاصا .. مارجوت هذه التى اصبحت غير مرئية له ، وهذه الرقة الملائكية التى تفيض منها ، وهذا الصوت الحنون الذى كان لا يفتأ يرجوه ألا يغضب أو يثور .. الا أنه كان إذا امسك يدها في الظلام الذى اصبح يعيش فيه ، اضطرم فى اعماقه اشتياق عارم لان يراها .. ومن ثم يذوب فى التو كل ما كان غارقا فيه من أفكار وأوهام !

***

وكان ريكس مولعا اشد الولع بأن يجلس فى الغرفة معه، يراقب حركاته . وكانت مارجوت تترامى بين ذراعى الرجل الاعمى ، وتضغط جسمها بصدره .. ثم ترفع عينيها نحو السقف معبرة تعبيرا هزليا عن استسلامها ، او تخرج له لسانها ، فكان هذا يثير الضحك اذا قورن بالتعبير الرقيق الساذج المرتسم على وجه الرجل الاعمى .. ثم تفلت منه بحركة بارعة وتتجه الى ريكس ، وقد جلس على حافة النافذة فى سرواله الابيض ، وقدماه ـ بأصابعهما الطويلة ـ وبقية جسمه عارية .. فقد كان يحب تعريض ظهره للشمس . وكان البينوس يستلقى على مقعد مستطيل ذى مسندين لليدين ، فى « بيجامة » ـ ومن فوقها « الروب دى شامبر » ـ وقد غطى الشعر الكث وجهه ، وبدت ندبة قرنفلية اللون على جبينه .. وكأنه سجين مرسل اللحية!

وكان لا يفتأ يبسط ذراعيه فى توسل قائلا : « مارجوت .. تعالى الى ! » . وكان ريكس المولع بالمجازفة ، يقترب ـ من آن لآخر ـ اقترابا شديدا ، على اطراف اصابع قدميه الحافيتين ، ويلمس البينوس لمسا خفيفا جدا .. فكان هذا

يهمهم فى هيام ، ويمد ذراعيه محاولا أن يطوق ذلك الشبح، وهو يعتقد انه مارجوت .. وعندئذ كان ريكس يسارع بالابتعاد ، فكان البينوس يزفر قائلا : « ياحبيبتى تعالى الى ! » .. ويهم من مقعده مندفعا نحوها ، فينكمش ريكس فوق حافة النافذة ضاما قدميه ، وتصيح « مارجوت » فى ألبينوس قائلة له انها ستهجره فى الحال ، تاركة اياه مع ممرضة ، اذا لم يفعل ما تمليه عليه .. فكان يعود ـ خائب الرجاء ـ الى مقعده ، وعلى فمه ابتسامة تنم عن الشعور بالذنب .. ثم يقول لها وهو يتأوه : « حسنا ، حسنا .. اقرئى لى شيئا بصوت مرتفع .. اقرئى لى الصحيفة ! » ..

وكان ريكس يجلس فى حذر على الاريكة ، وياخذمارجوت على ركبتيه ، وهى تفتح الصحيفة ، وتنعم النظر فيها ، ثم تبدأ القراءة بصوت مرتفع .. والبينوس يهز راسه ـ من حين لاخر ـ وهو يأكل فى بطء حبات من الكرز لا يراها ، ثم يلفظ البذر فى كفه ، بينما يكون ريكس منهمكا فى تقليد حركات مارجوت ، فيمط شفتيه ، ثم يضمهما مرة اخرى ـ كما كانت تفعل وهى تقرأ ـ او يتظاهر بانه سيتركها تقع .. فكان صوتها يختلج فجأة ، وتروح تبحث ـ بعد ذلك ـ عن تتمة الجملة التى وقفت عندها .

وكان البينوس يقول فى نفسه : « نعم ، ربما كان الامر كله خيرا .. فان حبنا الآن اكثر طهرا وتساميا ، وما دامت مارجوت قد بقيت معى ، فمعنى هذا أنها تحبنى حقا .. ان هذا افضل .. هذا افضل ! » . وفجأة ، يشرع فى البكاء بصوت مرتفع ، ثم يعصر يديه متوسلا اليها ان تذهب به الى اخصائى آخر ، وثالث ، ورابع .. فهو مستعد لأية جراحة .. لأى عذاب .. لأى شىء قد يعيد اليه بصره .. فيتثاءب ريكس ، ثم يخرج الى الحديقة .

وكان ريكس ومارجوت - خلال الايام الاولى من حياتهما معا فى ذلك المكان - يلتزمان كل الحذر ، وان سمحا لنفسيهما ببعض الهزل المأمون العاقبة .. وقد وضع ريكس أمام الباب المؤدى من غرفته الى الردهة حاجزا من الصناديق والحقائب ، تحوطا للطوارىء .. فكانت مارجوت تقفز فوق هذا الحاجز ، حين توافيه بالليل .. بيد أن البينوس - بعد جولته الاولى فى المنزل - لم يعد يهتم بأرجائه ، وانما اقتصرت اقامته على غرفة نومه ، وغرفة المكتب .. وقد وصفت له مارجوت كل الالوان ، من ورق الحائط الازرق الى الستائر الصفراء . الا انها - بتحريض من ريكس - لم تذكر له لونا واحدا على حقيقته .. فقد كان من بواعث المسرة العظمى لدى ريكس ان يضطر الرجل الاعمى لان يتصور عالمه الصغير بالالوان التى وضعها هو !

وكان البينوس يحس على الدوام - وهو فى حجرته الخاصة - أن بوسعه ان يرى الاثاث والاشياء المختلفة .. وقد منحه ذلك احساسا بالطمأنينة والأمن . اما حين كان يجلس فى الحديقة ، فقد كان يشعر بانه محوط بعالم واسع مجهول ، اذ كان كل شىء يمتد أمامه صاخبا بالاصوات ، حتى ليعجز عن تكوين صورة له فى مخيلته . وكان يحاول أن يرهف سمعه وان يتكهن بالحركة من الصوت .. وسرعان ما اصبح من الصعب على ريكس ان يدخل او يخرج دون ان يشعر به البينوس . فقد كان هذا يدير راسه فى الحال نحوه ، مهما يجتهد فى تكتم حركته ، ويسأل قائلا : ((أهذه أنت يا حبيبتى ؟)) .. ثم يشعر بالاسى حين يتبين أنه أخطأ التقدير ، اذ تجيبه مارجوت من اتجاه آخر بعيد ،

* * *

ومرت الايام .. وعلى قدر ما ازدادت حدة سمع البينوس ، ازدادت جرأة ريكس ومارجوت ، وقد اطمأنا الى ستار الأمان الذى تمثل فى عماه .. وأصبح ريكس يجلس الى المائدة مع البينوس ومارجوت ، ويأكل فى سكون تام ، يحرص عليه فى حذق ، فلم يكن يلمس طبقه قط بأية شوكة او سكين .. وكان يمضغ الطعام كما لو كان يمثل فى فيلم صامت ، وهو يراقب حركة فم البينوس ، ونبرات صوت مارجوت ، التى كانت تتعمد الكلام بصوت مرتفع جدا ، بينما الرجلان يلوكان الطعام ويبتلعانه ..

وحدث - ذات مرة - ان غص حلق ريكس بما كان فيه ، فما لبث البينوس - وكانت مارجوت تصب له القهوة فى قدحه ، اذ ذاك - أن سمع فى الناحية الاخرى من المائدة صوتا غامضا غريبا .. وبادرت مارجوت تثرثر ، رافعة صوتها . ولكنه قاطعها وهو يرفع يده قائلا : « ما هذا ؟ ما هذا ؟ » . فحمل ريكس طبقه ، وابتعد على أطراف أصابعه رافعا المنشفة الى فمه . ولكنه - وهو ينسل من الباب - سقطت منه الشوكة ، فاستدار البينوس سريعا فى مقعده وصاح قائلا : « ما هذ ؟ من هناك ؟ » . فقالت مارجوت : « آه ، انها اميليا ! .. لماذا تقفز هكذا ؟ » ..

وقال البينوس : « اعتقد ان اذنى قد بدأتا تصابان بالخلل .. فبالامس - مثلا - توهمت تماما ان شخصا حافى القدمين يسترق الخطى فى الردهة ! » .. فقالت مارجوت فى جفاء : « ان عقلك سيذهب ان لم تكن حريصا! »

وبعد الظهر ، كانت تذهب - اثناء غفوة البينوس المعتادة - فى جولة مع ريكس ، وكانا يأتيان بالخطابات والصحف من مكتب البريد او يصعدان الى مساقط المياه .. وقال لها

يوما ، وهما عائدان الى المنزل : « انصحك بألا تلحى عليه بشأن الزواج ، فانى اخاف من ذلك كل الخوف ، لانه - وقد هجر زوجته - اصبح ينظر اليها الان كقديسة موقرة مرسومة على زجاج فى كنيسة .. وهو لن يجرؤ على ان يحطم نافذة الكنيسة هذه ! .. فالافضل - والاكثر بساطة - ان نستولى على ثروته شيئا فشيئا ! »

وقالت مارجوت : « حسنا ، لقد حصلنا على الجزء الاكبر منها .. اليس كذلك ؟ » . فمضي ريكس يقول لها : « يجب ان تدفعيه الى ان يبيع تلك الارض التى يملكها فى (بوميرانيا) ، وان يبيع صوره ، او يبيع احد منازله فى برلين .. اننا - بشىء من الدهاء - نستطيع ان ندبر الامر ! .. أما - فى الوقت الحاضر - فان دفتر « الشيكات » يؤدى المهمة على خير وجه .. انه يوقع على كل شىء كأنه الآلة ، ولكن حسابه فى البنك لن يلبث ان ينفد ، فيجب ان نسرع نحن ايضا ! .. ولسوف يكون بديعا ان نتركه فى الشتاء .. وقبل ان نذهب ، سنشترى له كلبا ، كتذكار صغير لعرفاننا بالجميل ! »

وقالت مارجوت : « لا تتكلم بصوت مرتفع هكذا .. فقد بلغنا الصخرة » .. كانت هذه الصخرة كتلة كبيرة ، رمادية اللون ، مغطاة بالنباتات المتسلقة ، وتبدو كأنها شاة رابضة .. وقد جعلا هذه الصخرة علامة للحد الذى بعده يكون من الخطر الكلام .. ومن ثم سارا صامتين . وبعد بضع دقائق ، اصبحا بالقرب من باب الحديقة ، فما لبثت مارجوت ان ضحكت فجأة ، واشارت الى سنجاب يجرى ، فتناول ريكس حجرا وقذفه به ، ولكنه أخطأه . فقالت مارجوت هامسة : « اقتله .. فهو يسبب ضررا كبيرا

للاشجار ! » .. وهنا ارتفع صوت يقول : « من الذى يسبب ضررا للاشجار ؟ » .. وكان ذلك هو صوت البينوس .. كان واقفا - يترنح قليلا - بين شجيرات « السيرنج » ، على عتبة حجريه صغيرة ..

وعاد يقول : « مارجوت .. من الذى تكلمينه هناك ؟ » . ثم تعثر فجأة ، وسقطت منه عصاه ، فانحط جالسا على العتبة . فقالت له مارجوت وهى تمسكه فى عنف : « كيف جرؤت على أن تذهب بعيدا الى هذا الحد وحدك ؟ » . ثم عاونته على الوقوف ، وقد التصقت بيده حبات صغيرة من الحصى ، وراح ينفضها كما يفعل الطفل .

وقالت مارجوت ، وهى تدفع بالعصى فى يده : « كنت أريد أن امسك سنجابا .. ماذا كنت تظننى أفعل ؟ » . فقال البينوس : « ظننت .. ! » . ثم صاح بحدة : « من هناك ؟ » .. وكاد أن يفقد توازنه مرة اخرى ، وهو ينحرف الى ناحية ريكس الذى كان يسير فى حذر عبر الفناء .. فقالت مارجوت وقد اوشك صبرها أن ينفد : « ليس ثمة احد هنا .. اننى وحدى ، فلماذا انت فى هذه الحالة ؟ »

وقال وهو يبكى : « عودى بى الى المنزل ، فهنا أصوات كثيرة جدا .. اشجار ، ورياح ، وسناجب ، واشياء لا اعرفها .. اننى لا اعرف ماذا يجرى حولى .. ان كل شىء يضج بالاصوات » .

***

وكالعادة ، غابت الشمس خلف القمة المجاورة .. وكالعادة كذلك ، جلس ريكس ومارجوت جنبا الى جنب ، على الاريكة ، وراحا يدخنان . وعلى بعد بضع أقدام منهما ، جلس البينوس فى مقعده الجلدى المستطيل ، يحدجهما

بنظرة ثابتة من عينيه الصافيتى الزرقة ، غير المبصرتين .. ثم صعد الى غرفته ، لينام مبكرا .

وفى جوف الليل ، استيقظ . فوضع يده على ساعة بجانبه لا زجاج لها ، وظل يتحسسها بأصابعه حتى عرف موضع العقربين ، فاذا بها الساعة الواحدة والنصف .. **وكان يشعر باضطراب عجيب ، وقد منعه شيء ما عن أن يركز فكره فى تلك المعانى الجميلة السامية التى كانت وحدها قادرة على ان تحميه من أهوال الظلام الذى يكتنفه ..** وعاد الى الاضطجاع ، وهو يفكر قائلا فى نفسه : « ترى ما الذى يكربنى ؟ .. أهي اليزابيث ؟ .. كلا ، فانها نائية جدا .. نائية جدا ، فى مكان ما عند سفح الجبل .. هذا الطيف العزيز الواهن الحزين ، لا ينبغى لى ابدا ان أزعجه .. فماذا اذن يا ترى ؟ »

وبدون أن يدرى ما كان يبتغى ، انسل من الفراش ، وراح يتحسس طريقه الى باب مارجوت .. ولم يكن لغرفته باب آخر غيره يخرج منه ، وقد كان يعلم انها تغلقه دائما بالليل .. فقال فى نفسه فى حنان : « ما احكمها ! » . **ثم وضع أذنه على ثقب المفتاح عسى ان يسمع تنفسها وهى نائمة ، ولكنه لم يسمع شيئا ..** فهمس قائلا : « انها لهادئة كفأر صغير .. لو امكننى فقط ان اربت على رأسها ثم ابتعد ! .. ربما تكون قد نسيت ان تغلق الباب ! » .. وراح يضغط أكرة الباب .. كلا ، انها لم تنس ..

وتذكر — فجأة — كيف انه ذات ليلة من ليالى الصيف حارة — حين كان شابا طائشا — تسلل على الافريز الخارجى لحائط منزل على (الراين) ، من غرفته الى غرفة الخادمة .. ولكنه لم يجد الخادم فى فراشها وحيدة .. الا انه كان فى ذلك الوقت رشيقا خفيف الحركة ، ثم انه كان — فى ذلك

الحين – مبصرا .. بيد انه قال فى نفسه فى جرأة جنونية: « ولماذا لا احاول الان ؟ هبنى سقطت ودق عنقى ، فهل يهم ذلك ؟ »

وراح يبحث اولا عن عصاه حتى وجدها ، ثم اتجه الى النافذة واعتلى حافتها ، ثم مد عصاه نحو اليسار الى النافذة المجاورة ، فسمع وقع العصا على الزجاج ، وادرك انها مفتوحة .. وقال فى نفسه : « انها تنام نوما عميقا ، ولا عجب فهى مرهقة ، اذ انها تهتم بامرى طول النهار ! »

حتى اذا جذب العصا ، تعلقت فى شىء ما ، ثم افلتت من يده وسقطت على ارض الحديقة ، فصدر عنها صوت خافت .. وعندئذ امسك البينوس باطار النافذة ، وهبط الى الافريز الخارجى البارز من الجدار .. واصطدم – الى اليسار – بشىء ظنه أنبوبة المياه ، فتشبث به ، ومر فوقه ، ممسكا بيده اطار نافذة الحجرة المجاورة ، وقد اصبحت الان أمامه . فتمتم فى زهو : « ما ابسط هذا ! » . ثم همس قائلا : « هاللو مارجوت ! » ، وهو يحاول ان ينسل خلال النافذة المفتوحة الى الداخل ، فأفلتت يده وكاد ان يسقط الى الخلف فى الحديقة .. وراح قلبه يدق دقا عنيفا ، بيد انه ظل يتلوى ملقيا بجسمه على حافة النافذة حتى تخطاها . وهنالك اصطدمت يده بشىء ثقيل سقط على الارض محدثا صوتا .

ووقف داخل الغرفة ساكنا ، وقد اكتسى وجهه بالعرق . وشعر على يده بشىء لزج ، لم يلبث ان عرف انه من مادة « الراتنج » المتحلبة من خشب الصنوبر الذى بنى به المنزل .. وقال فى فرح : « مارجوت ، يا حبيبتى ! » .. ولكنه لم يسمع صوتا .. وراح يتحسس الفراش ، فاذا هو مرتب .. اذن لم تكن مارجوت قد نامت بعد ..

وجلس البينوس على حافة الفراش ، وراح يفكر : لو ان الفراش كان مشوشا ودافئا ، لكان من السهل أن يفهم انها ستعود بعد لحظة ، ولكنه لم يكن كذلك ! .. **وظل بضع لحظات بلا حراك ، ثم تحسس طريقه الى الردهة ، وقد اربكه كثيرا عدم وجود عصاه معه . وراح ينصت ..** وتوهم انه سمع - فى مكان ما - صوتا خافتا مكتوما ، يتراوح بين الصريف والحفيف ، فراح ينادى قائلا : « مارجوت ، اين انت ؟ »

وظل كل شيء ساكنا برهة ، ثم فتح باب .. فصاح مرة اخرى ، وهو يتحسس الطريق بيديه فى الردهة : « مارجوت .. مارجوت ! » . وعندئذ سمع صوتها يجيبه فى هدوء : « نعم ، نعم .. ها أنذى ! » . فقال لها : « ماذا حدث يا مارجوت ؟ .. لماذا لم تأو الى الفراش ؟ » . **وهنا اصطدمت به فى الردهة المظلمة ، فما ان مسها حتى أحس بأنها عارية ..** واجابته قائلة : « كنت مستلقية فى الشمس ، كما افعل دائما فى الصباح » .

وقال وهو يتنفس بصعوبة : « ولكننا الآن فى الليل ! » .. ثم أردف قائلا : « لا أستطيع أن أفهم .. ان ثمة خطأ فى مكان ما .. فقد تحسست بيدى عقربى الساعة ، فاذا هي الواحدة والنصف » . فقالت : « هراء .. أنها السادسة والنصف ، وانه لصباح مشمس جميل .. لابد أن ساعتك مخطئة ، لأنك تتحسس العقربين كثيرا .. ولكن قل لى ، كيف خرجت من غرفتك ؟ » . ولكنه عاد يقول : « مارجوت .. هل حقا نحن الآن فى الصباح ؟ »

***

وفجأة ، ألتصقت به ، وطوقت عنقه بذراعيها ، وهى واقفة على اطراف اصابعها ، كما كانت تفعل فى الايام الخالية .

وقالت بصوت ناعم : « بالرغم من أنه الصباح .. فأنني اذا أحببت .. اذا أحببت ياحبيبى .. وكاستثناء عظيم .. »

ولم تكن تميل ابدا لان تفعل ذلك ، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة .. ولم يعد ألبينوس بملك أن يدرك ان الجو لايزال باردا ، وأنه ما من طيور هنالك تغرد .. **اذ لم يعد يحس بغير شيء واحد فقط ، هو السعادة العنيفة ، الملتهبة التى هزت كيانه ..** ثم استلقى فى رقاد عميق ، ونام حتى الظهيرة .. واذ استيقظ بعد ذلك ، عنفته مارجوت على تسلقه للنافذة . **وكانت ما تزال متمتزة غيظا ، حين رأته يبتسم ابتسامة حزينة ، فصفعته على وجهه !**

بيد ان ألبينوس استلقى طول النهار على مقعده فى غرفة الجلوس مفكرا فى ذلك الصباح السعيد ، وهو يسائل نفسه : ترى كم يوما عساه بمر قبل أن تتكرر هذه الساعات ؟ !

وفجأة ، سمع – بشعور غريزى محض – شخصا ما يسعل سعالا خافتا مكبوتا ، فتولته الدهشة . فما كان من الممكن أن يكون هذا الشخص هو مارجوت .. ثم انه كان يعلم انها فى المطبخ .. ومن ثم صاح قائلا : « من هناك ؟ » .. ولكن احدا لم يجبه . فقال فى ضيق : « انها لأوهام .. مرة أخرى ! » .. **ثم أدرك – بغتة – ذلك الشيء الذى ضايقه كثيرا فى الليل .. نعم ، نعم .. انه تلك الاصوات الغريبة التى كان يسمعها احيانا !**

وقال لمارجوت حين عادت : « قولى لى يا مارجوت .. أليس هناك شخص آخر فى المنزل غير أميليا ؟ .. هل انت متأكدة تماما ؟ » . فأجابته فى فظاظة : « يالك من مجنون ! »

ولكن الشك اذ ثار فى نفسه ، ابى ان يتيح له – بعد ذلك – اية راحة أو طمأنينة .. فجلس طول النهار ينصت فى وجوم .. وكان ذلك موضع تسلية عظيمة لريكس ، فانه

- برغم أن مارجوت توسلت اليه أن يكون أكثر رزانة وحذراً - لم يكترث بتحذيرها ، بل ازداد جراة وطيشا ، **حتى لقد حدث - ذات مرة - أن كان يجلس على بعد قدمين من البينوس ، واذا به يشرع فى الصفير ، مقلدا - فى مهارة عظيمة - تغريد العصفور** . فلم يسع مارجوت الا ان تبادر قائلة ان طائرا قد حط على حافة النافذة !

وقال لها البينوس بعد ذلك ببضعة أيام : « اننى اود ان اتحدث قليلا مع أميليا ، فاننى أحب فطائرها » . فأجابته قائلة : « لا جدوى من ذلك ، فانها صماء تماما ، ثم انها تخافك الى درجة الموت » .. واجهد ألبينوس فكره لبضع دقائق ، ثم قال ببط : « مستحيل ! » . فتساءلت مارجوت : « وما المستحيل يا البير ؟ » .. فتمتم : « اوه ، لاشيء ! »

على انه لم يلبث ان قال بعد قليل : « انا بحاجة قصوى لان احلق لحيتى .. فابعثى فى طلب حلاق من القرية » . فاجابته : « لا لزوم لذلك .. فان اللحية تناسبك جدا » .. وخيل لالبينوس ان شخصا ما - ليس مارجوت ، وانما شخص بجانبها - ارسل ضحكا مكتوما !

الفصل السابع والثلاثون

كان بول فى مكتبه ، حين اطلعه احدهم على صحيفة « البرلينر زايتونج » ، وقد ورد بها ملخص للحادث ، فعاد الى منزله فى الحال ، خشية ان تكون اليزابيث قد اطلعت على الصحيفة هى الاخرى . بيد انها لم تكن قد قرأتها ، فمع ان هذه الصحيفة كانت تصل اليهم كل يوم ، الا انهم كانوا - فى العادة - لا يقرأونها . وفى ذات اليوم ، ابرق بول الى مخفر الشرطة فى (جراس) ، **ثم اتصل آخر الامر**

بالمستشفى ، فأنباه الطبيب هناك بأن البينوس قد نجا من الخطر ، ولكنه أصبح اعمى تماما ! .. وبمهارة ، استطاع بول أن ينهى النبأ الى « اليزابيث » متلطفا .

واذ كان يودع أمواله فى ذات المصرف الذى يعامله زوج شقيقته ، فقد استطاع أن يعرف عنوان البينوس فى سويسرا . وكان مدير المصرف صديقا قديما له فى العمل ، فأطلعه على « الشيكات » التى كانت تنهال من هناك بشكل سريع مطرد . وقد دهش « بول » من ضخامة المبالغ التى كان البينوس يسحبها .. وكان التوقيع الذى يذيل « الشيكات » صحيحا ، وان كانت حروفه مهتزة ، ومرتبكة بصورة تبعث على الاسى والاشفاق .. ولكن الارقام كانت مكتوبة بخط شخص آخر .. شخص متهور ، جسور . وكانت رائحة التزوير تفوح منها ، بكيفية ما ! .. وحدس بول ان الرجل الاعمى انما كان يوقع على ما يقال له ، وليس على ما يراه . وكانت ضخامة المبالغ التى يطلبها من بواعث الدهشة . فكانه — هو او الشخص الاخر — فى عجلة جنونية للاستيلاء على اكبر قدر ممكن من النقود . ثم أخيرا ، جاء « شيك » لم يبق من المال ما يفى بقيمته ..

وقال بول فى نفسه : « ان ثمة عملية قذرة تحدث .. اننى أحس بها فى عظامى ، ولكن ما هى تماما ؟ » .. وخيل اليه أن البينوس وحيد مع عشيقته الخطرة ، واقع تحت رحمتها تماما ، فى سجن عماه المظلم .

ومرت بضعة أيام كان بول خلالها يحش بأشد الضيق .. لم يكن الامر مجرد ان الرجل كان يوقع « شيكات » لم يكن بوسعه ان يراها ، فقد كان المال — على كل حال — ماله ، ومن حقه أن يبدده كيف شاء ، وسواء كان يدرى او لايدرى ، لا سيما ان اليزابيث لم تكن تحتاج لهذا المال ، ولم تعد

« إيرما » موجودة ليفكر فى مصلحتها .. انما الذى كان يحز فى نفسه هو فكرة وجود الرجل وحيدا ، معزولا ، وعاجزا تماما ، وبغير معين فى ذلك العالم الشرير الذى ألقى فيه بنفسه !

وفى ذات مساء ، عاد بول الى المنزل ، فوجد اليزابيث تجهز حقيبة السفر .. وتولاه العجب إذ رآها تبدو أكثر سعادة مما كانت منذ شهور عديدة ، فسألها قائلا : « ماذا هنالك ؟ أراحلة انت الى مكان ما ؟ » .. فقالت ببطء : « بل أنت الراحل ! »

الفصل الثامن والثلاثون

وفى اليوم التالى رحل بول الى سويسرا . فلما بلغ (بريجور) ، استأجر سيارة .. وبعد أكثر من ساعة ، وصل الى المدينة الصغيرة الواقعة فى سفح الجبل الذى كان مسكن البينوس فوقه .. وتوقف بول بسيارته امام مكتب البريد ، حيث دلته فتاة ثرثارة تعمل بالمكتب ، على الطريق المؤدى الى « الشاليه » ، قائلة ان البينوس يقيم هناك مع ابنة اخيه ومع دكتور .. فانطلق بول بالعربة فى الحال ، وقد عرف من هى ابنة الاخ ، ولكنه دهش من وجود الدكتور ، وخطر له ان البينوس ربما كان موضع عناية أكبر مما كان يقدر .

ومن ثم فقد قال فى نفسه : « لعلنى جئت هنا فى مهمة لا داعى لهـا ، ولعله راض كل الرضا بما هو فيه ! » . ثم أردف قائلا : « على اننى . ما دمت قد جئت ـ خليق بأن اتكلم ، على اية حال ـ مع ذلك الدكتور .. يالألبينوس من

مسكين ، ويا لها من حياة محطمة !.. من كان يظن ان ذلك يحدث ؟ »

وفى ذلك الصباح ، كانت مارجوت ذاهبة الى القرية مع اميليا ، فلم تلق بالا الى سيارة بول ، لولا أن قيل لها – فى مكتب البريد – ان رجلا بدينا قد سأل فى التو عن ألبينوس، وانه قد انطلق بالسيارة ليراه ..

وفى هذه اللحظة بالذات ، كان ألبينوس وريكس يجلسان متقابلين فى حجرة الجلوس الصغيرة ، التى كانت الشمس تسطع فيها خلال بابها الزجاجى المؤدى الى الشرفة .. وكان ريكس يجلس عاريا تماما !.. وقد كان من نتيجة حمامات الشمس – التى اعتاد أن يحظى بها يوميا – أن بدا جسده المقوس القوى ، ذو الشعر الاسود الكث على صدره، أشبه بصقر متمدد ، وقد صبغته الشمس بحمرة قانية.. وكان يمسك بين شفتيه المتلئتين عودا من القش ، وقد عقد ساقيه الكثيفتى الشعر احداهما فوق الاخرى ، ووضع ذقنه بين يديه فى هيئة تمثال المفكر لروبين ، وراح يتطلع الى ألبينوس الذى كان بدوره يحدق فى اتجاهه بامعان .

وكان الرجل الاعمى يلبس ثوبا رماديا فضفاضا ، وقد ارتسم على وجهه الملتحى تعبير ينبىء عما كان بنفسه من توتر شديد ، وكان ينصت .. فما كان يفعل فى الايام الاخيرة غير أن ينصت !.. وكان ريكس يعرف هذا ، فكان لا ينفك يرقب الرجل ليرى كيف ترتسم أفكاره على وجهه ، وكأنما قد أصبح هذا الوجه عينا كبيرة بعد أن فقد صاحبه عينيه الحقيقيتين .. واراد ان يعابثه بلعبة صغيرة تكتمل بها المهزلة التى كان يجد فيها متعته : فاقترب منه ولطم ركبته

لطمة خفيفة .. وكان ألبينوس ـ فى هذه اللحظة ـ واضعا يده على جبينه ، فظل رافعا اياها ولم ينزلها .. ومن ثم اقترب منه ريكس ثانية ومس جبينه ـ مسا خفيفا ـ بالطرف المزهر لعود القش الذى كان يلوكه بين شفتيه .. فندت عن ألبينوس آهة غريبة ، وراح يطوح يده ليبعد ما ظنه ذبابة حطت على جبينه .. واحدث ريكس صوتا بشفتيه ، فصدرت عن الاعمى تلك الحركة العاجزة التى كان يجد فيها ريكس ملهاة طيبة له !

وفجأة ، رفع ألبينوس رأسه فى حدة ، كما استدار ريكس بدوره .. ومن خلال الباب الزجاجى ، رأى رجلا بدينا ذا قبعة مخططة ، وقد تذكر وجهه الاحمر فى الحال .. وكان الخادم واقفا فى الشرفة ، يتطلع الى أعلى فى حيرة . فوضع ريكس اصبعه على شفتيه ، وأتى باشارة يوحى بها اليه بأنه آت اليه فى لحظة . بيد ان هذا دفع الباب ودخل الغرفة . ووقف ريثما يسترد أنفاسه ، وهو يحملق فى ذلك الرجل العريان ، الذى ظل رافعا أصبعه الى شفتيه وهو يبتسم ابتسامة كالحة . **وما لبث بول ان قال له : « طبعا أنا اعرفك .. ان اسمك ريكس ! »**

اذ ذاك انتصب ألبينوس واقفا ، وقد فاض اللون الاحمر من الندبة التى فى جبينه ، فغمر كل وجهه .. ثم راح ـ فجأة ـ يصيح ويصرخ ، وقد احتبست الكلمات فى فمه ، فما فتىء يصارعها وينتزعها انتزاعا ، حتى نطق أخيرا قائلا : « بول .. اننى هنا وحيد .. قل اننى هنا وحيد .. ان ذلك الرجل فى أمريكا ، وليس هنا .. بربك يا بول ، اننى أتوسل اليك .. اننى أعمى .. اعمى تماما ! » . فقال ريكس : « تبا لك ، لقد أفسدت كل شىء .. » ، ثم جرى الى الخارج وبدأ يصعد السلم .. **واختطف بول عصا**

الرجل الاعمى واندفع خلف ريكس ، الذى استدار على عقبيه رافعا يديه ليحمى نفسه ! .. وراح ذلك الرجل الطيب القلب ، الذى لم يحدث أن ضرب كائنا حيا – طيلة عمره – ينهال فى عنف على الرجل العارى ، ويهوى بالعصا على رأسه . فوثب هذا الى الخلف وابتسامته السمجة لاصقة بوجهه ، وفجأة حدث شىء عجيب .. **وكما فعل آدم بعد زلته ، أنزل ريكس يده فى هذه اللحظة – وهو منحن بجانب الحائط الابيض ، شاحب الوجه – وغطى عورته!**

واندفع بول مرة أخرى نحوه ، ولكنه راغ منه ، واندفع يصعد السلم ناجيا بنفسه .. وفى هذه اللحظة ، شعر بول بشخص يلقى بنفسه عليه من الخلف .. وكان ذلك هو ألبينوس ، وقد تشبث به وراح ينشج باكيا ، وقد أمسك فى يده بكتلة رخامية من أدوات المكتب قائلا فى حشرجة : « بول ، بول .. لقد فهمت كل شىء .. أعطنى معطفى بسرعة ، انه معلق هنالك فى المشجب ! » .. فقال بول وهو يتنفس بصعوبة : « **أيها تريد ؟ المعطف الاصفر ؟** »

***

وقدمه اليه .. وفى الحال وجد ألبينوس ما يريده فى جيبه .. ووقف وقد انفطر من فرط البكاء ، فقال له بول: « سآخذك من هذا المكان على الفور ، فاخلع رداءك ، والبس هذا المعطف ! .. هيا ، أسرع .. سأساعدك !.. والآن خذ قبعتى ، وليس من المهم انك لا تلبس فى قدميك سوى خفى حجرة النوم .. هيا نخرج يا ألبير !.. لقد جئت بسيارة أمام الباب .. ان أول ما ينبغى عمله ، هو اخراجك من هذا المكان اللعين !» . فقال البينوس : «**انتظر قليلا .. يجب ان اكلمها اولا .. انها ستعود بعد لحظة ، ولابد من**

ان أكلمها .. يجب يابول .. لن يستغرق ذلك وقتا طويلا».

ولكن بول دفعه خارجا الى الحديقة ثم صاح مشيرا الى سائق السيارة ، فعاد البينوس يقول : « يجب أن أكلمها .. عن قرب .. بالله يا بول نبئنى حين تعود ، فهى لن تتأخر كثيرا .. الها ستعود الآن ! » . ولكن بول قال : «كلا ، يجب أن نذهب ، وليس هنا سوى ذلك الوغد العارى يطل من النافذة .. هيا يا ألبير ، هيا ! » .. فقال الاعمى « سنذهب ، على أن تقول لى اذا رأيتها .. قد تراها ونحن فى الطريق ، وعندئذ يجب أن أكلمها .. عن قرب .. عن قرب!»

وسارا فى درب الحديقة. ولكن البينوس لم يلبث ـ بعد بضع خطوات ـ أن فتح ذراعيه بفتة ، وسقط الى الخلف مغمى عليه .. فجاء سائق السيارة مسرعا ، وعاون بول على رفعه ونقله الى السيارة ، وقد بقى أحد خفيه فى الدرب .. وفى اللحظة ذاتها ، وصلت سيارة قفزت منها مارجوت ، وجرت نحوهم صائحة بشىء ما .. ولكن سيارتهم كانت قد تحركت بالفعل ، وكادت أن تصدمها وهى تدور حول الطريق ، ثم اندفعت الى الامام واختفت خلف منعطف !

الفصل التاسع والثلاثون

فى يوم الثلاثاء ، تلقت اليزابيث برقية .. وفى حوالى الساعة الثامنة من مساء الاربعاء ، سمعت صوت بول فى بهو مسكنها ، ووقع عصا على الارض .. وما لبث الباب أن فتح ، ودخل بول يقود زوجها الذى بدا حليقا ، وعلى عينيه نظارة سوداء ، وثمة ندبة فى جبينه الشاحب .. وسترته الارجوانية الغريبة اللون ـ التى لايمكن أن يكون قد اختارها بنفسه ـ متهدلة عليه .

وقال بول فى صوت خافت : ها هو ذا ! » .. **فشرعت اليزابيث تنتحب ، وهى تضغط فمها بمنديلها .. وانحنى ألبينوس بسكون فى اتجاه صوت البكاء المكتوم .** فقال بول وهو يقوده ببطء : « هيا فلنغسل أيدينا ! »

وجلس ثلاثتهم فى غرفة الطعام ، يتناولون العشاء .. ووجدت اليزابيث عناء فى أن تعود عينيها النظر الى زوجها ، وقد كان يخيل اليها أنه يحس بنظراتها .. وكانت حركاته البطيئة الحزينة تملأ قلبها بشفقة عظيمة صامتة .. **اما بول فقد راح يتكلم معه كما لو كان طفلا ، ويقطع له اللحم فى طبقه الى قطع صغيرة .**

وأفردت له الغرفة التى كانت مخصصة لايرما .. وقد دهشت اليزابيث اذ وجدت أنه قد سهل عليها أن تعكر سكون هذه الغرفة الصغيرة ، من أجل خاطر هذا الغريب الصامت ، وأن تغير وتبدل كل محتوياتها لتجعلها ملائمة لاحتياجات الرجل الاعمى ..

وظل البينوس لا يقول شيئا .. ففى أول الامر ــ حين كان مع بول فى سويسرا ــ توسل اليه كثيرا وفى الحاح عنيف ، أن يطلب الى مارجوت أن تأتى وتقابله ، مقسما له أن هذا اللقاء الاخير لن يستمر أكثر من دقيقة واحدة .. **وان كان الامر ــ فى الواقع ــ يقتضى وقتا طويلا لان يتحسس فى الظلمة حتى يمسكها بقوة باحدى يديه ، ثم يفرغ المسدس فى اتجاهها ، مغرقا جسدها بسيل الرصاص ..** بيد أن بول رفض بتشبث أن يجيبه الى طلبه ، فلاذ البينوس ــ بعد ذلك ــ بصمت تام .. رحل عن سويسرا فى صمت ، ووصل الى برلين فى صمت ، وظل صامتا فى الايام الثلاثة التالية .. فلم تسمع اليزابيث صوته ابدا ، حتى خيل اليها أنه أبكم ، كما كان أعمى ! .. بينما ظل ذلك الشىء الثقيل الاسود ــ

الذى كان يضم فى خزانته سبع ميتات فظيعة - ملفوفا بمنديل حريرى ، ومستلقيا فى جيب معطفه .. حتى اذا استقر فى غرفته ، نقله الى درج من أدراج صوان بجانب فراشه ، واحتفظ بالمفتاح فى جيب ردائه ، وكان يضعه بالليل تحت وسادته .. وقد لوحظ مرة أو مرتين يتحسس شيئا ما فى يده ، ولكن احدا لم يعلق على ذلك بكلمة .. كان ملمس هذا المفتاح فى يده ، وثقله فى جيبه ، يشعرانه بالطمأنينة ، وكأنما هو طلسم كفيل بأن يعيد له - فى يوم من الايام - نور عينيه !

وبقى صامتا .. واصبحت اليزابيث تتكلم الى الخدم والى بول فى صوت هامس ، وتسير فى خطوات حذرة خفيفة، كأنما ثمة فى البيت مريض فى خطر . ومن ثم فقد راحت تبدو له طيفا رقيقا ، كذلك الطيف الذى ظل يحتفظ به لها فى مخيلته .. تلك الذكرى الصامتة التى كانت تمر بخياله فى هدوء ممتزجة بأثر خفيف من شذا عطرها .. كان هذا هو كل ما بقى له منها .. **أما المخلوقة الاخرى ، الشرسة ، القوية ، اللدنة ، الشبيهة بالافعى الكبيرة ، التى كان يتوق لأن يهوى عليها ويحطمها دون توان ، فقد كانت فى مكان آخر** .. ولكن اين ؟.. انه لم يعد يعرف ، وان ظلت تتألق فى خياله - بقوة عارمة - صورة مارجوت وريكس ، منهمكين فى حزم الامتعة بعد رحيله ، وعينا كل منهما مخيفتان ، محملقتان ، تقدحان شررا .. ثم كان لا يلبث أن يتمثل مارجوت تدلل ريكس وتعانقه وتربت جسده العارى .. ثم يتمثلهما يمضيان .. ولكن الى اين ، الى اين؟..ما من بصيص من النور كان يلوح له فى الظلام.. ولكن طريقهما المتعرج كان يشتعل فيه ، تاركا أثرا كالذى تتركه الحشرة السامة وهى تزحف على بشرة الانسان !

***

ومرت ثلاثة أيام صامتة .. وفى اليوم الرابع ، حدث أن كان ألبينوس فى الصباح الباكر وحيداً — اذ كان بول قد ذهب لتوه الى مقر الشرطة كى يوضح بعض الامور ، وكانت الخادمة فى غرفة خلفيــة ، ولم تكن اليزابيث قد استيقظت بعد اذ قضت ليلة مسهدة .. فراح ألبينوس — وقد ثقل عليه الكرب — يتنقل من مكان الى مكان ، وهـو يتحسس بأصابعه الاثاث والابواب .. وفى هذه الاثناء دوى رنين جرس التليفون فى غرفة المكتب ، فأوحى اليـه بانـه يستطيع بهذه الوسيلة أن يحصل على معلومات ، اذ قد يعثر على من ينبئه بما اذا كان الفنان ريكس قد عاد الى برلين .. ولكنه لم يستطع أن يتذكر رقم تليفون أى شخص يجد عنده أنباء ، فضلا عن انه كان يعرف انه لن يقوى على النطق بهذا الاسم رغم قصره .. واذ استمر رنين التليفون فى أصرار ، تلمس ألبينوس طريقه الى المنضدة ، وأمسـك بالمسماع .. واذا صوت — بدا له مألوفا — يسأله عن الهر « هو شدارت » .. أى بول . فأجاب ألبينوس قائلا : « انه فى الخارج » .

وتردد الصوت هنيهة .. وفجأة ، قال فى وضوح : « هل هذا أنت يا هر ألبينوس ؟ » . فأجاب : « نعم . ومن أنت ؟ » .

فأجاب قائلا : « شيفر ميللر .. لقد حاولت لتوى الاتصال بالهر هو شدارت ، ولكنه لم يصل بعد الى مكتبه .. ومن ثم خطر لى أننى قد أجده بالمنزل . كم أنا سعيد اذ وجدتك يا هر ألبينوس ؟ »

وتساءل ألبينوس : « ماذا حدث ؟ » . فقال : « حسنا .. قد لا يكون فى الامر شيء ، ولكننى رأيت أن من واجبى أن

أتأكد .. **فقد جاءت فراولين بيترز الآن ، لتأخذ بعض الاشياء ، وقد أدخلتها مسكنك .. ولكننى لا اعلم بالضبط ، ومن ثم رأيت من الافضل .. »**

وقال البينوس : « لا بأس ! » ، وهو يحرك شفتيه بصعوبة ، وقد شعر فيهما بتثاقل شديد ، وكأنما سرى فيهما مخدر قوى .. فتساءل الرجل قائلا : « ماذا تقول ياهر البينوس ؟ » .. فبذل هذا جهداً كبيراً كى يخرج الحروف ، ثم قال فى وضوح : « لا بأس » . ووضع المسماع بيد مرتعشة .

وعاد متخبطا الى غرفته ، ففتح الدرج السرى ، ثم عاد يتلمس طريقه الى البهو ، وهنالك راح يبحث عن قبعته وعصاه .. فلما استغرق فى ذلك وقتا طويلا ، ويئس من العثور عليهما ، سار متعثرا حتى اشرف على السلم ، فقبض على سياجه ، ونزل الدرجات ، وهو يتمتم فى نفسه محموما .. وأن هى الا لحظات حتى كان واقفا فى الشارع ، وقطرات باردة تنزل على جبهته ، اذ كان المطر يتساقط . فاستند الى سياج الحديقة الامامية ، وراح يرجو فى يأس أن يسمع بوق سيارة قادمة .. وسرعان ما اقترب منه صوت عجلات تسير بحذر على الارض المبللة ، فصاح مناديا .. ولكن صوت العجلات تجاوزه غير مكترث به .

* * *

وما لبث ان سمع صوت شاب لطيف يقول له : « هل اساعدك فى العبور ؟ » . فقال له البينوس متوسلا : « أرجوك — بحق السماء — ان تستدعى لى سيارة ! »

ومرة اخرى ، اقترب صوت عجلات .. وساعده شخص ما على الصعود الى السيارة ، وصفق خلفه الباب ..

وعندئذ فتحت نافذة فى الطابق الرابع ، ولكن الوقت كان قد فات ! .. فقد أسرع البينوس هامسا للسائق : « انطلق رأسا ، الى الامام ! » .. حتى اذا تحركت السيارة . نقر باصبعه على الزجاج واخبر السائق بالعنوان ، ثم قال فى نفسه : « سوف أعطيه أجر العودة كذلك » .

ومضى يتذكر .. عند اول منعطف سيكون فى (موتز ستراس) .. وسمع الى اليسار جلجلة الترام الكهربائى .. ومر بيده على المقعد ، ثم الجزء الامامى من السيارة ، ثم موطىء القدمين .. وفجأة ، أزعجته فكرة أن يكون ثمة شخص يجلس بجانبه .. ودارت السيارة فى منعطف آخر .. لابد ان تكون هذه (فكتوريا لويزن بلاتز) أو (البراجر بلاتز) .. وفى لحظة سيكون فى (الكايزر الى) ..

ووقفت السيارة ، فهل تراه وصل ؟.. هذا غير محتمل ، ولا بد ان السيارة تقف عند تقاطع طرق .. فالامر يحتاج لخمس دقائق اخرى .. ولكن باب السيارة فتح ، وقال السائق : « هذا رقم ٦٥ » .. فمد البينوس قدمه خارج السيارة .. وفى الفضاء المقابل له ، سمع نسخة طبق الاصل من الصوت الذى كلمه منذ لحظة فى التليفون .. صوت شيفر مللر ، بواب المنزل ، وهو يقول له : « اننى مسرور بأن أراك مرة اخرى يا هر البينوس .. ان السيدة الصغيرة فى مسكنك .. وهى .. »

وطلب اليه البينوس ان يصمت ، ثم همس قائلا : « ادفع اجر العربة من فضلك .. فاننى لا ابصر ! » .. وهنا اصطدم بركبته شىء كان ينطلق مقرقعا مجلجلا ، ولعله طفل كان يمر بدراجته فى الطريق .. و عاد يقول : « قدنى الى المنزل ، واعطنى مفتاح مسكنى .. أسرع من فضلك !.. والآن ، قدنى الى المصعد .. كلا ، كلا .. **يمكنك أن تبقى هنا ،**

فسوف اصعد وحدى .. سأضغط الزر بنفسى ! »

وصدر عن المصعد صوت صريف خافت ، فشعر بدوار خفيف ، وخيل اليه ان الارض تهتز تحت خفيه المصنوعين من اللباد .. واخيرا ، ها هو ذا قد وصل .. وخرج من المصعد ، وتقدم الى الامام ، وخطا بقدم واحدة ، فكاد ان يهوى .. وتوقف لحظة وهو يرتعش ، ومد يده هامسا : « الى اليمين .. خطوة اخرى الى اليمين » .. وأخيرا ، وجد ثقب الباب ، فدس فيه المفتاح ، واداره ..

آه . هذا هو الصوت الذى يبحث عنه منذ أيام .. هنالك الى اليسار ، فى حجرة الجلوس الصغيرة .. فثمة خشخشة أوراق ، وصوت صريف خافت ، كالصوت الذى يصدر من مفاصل شخص يجلس القرفصاء .

وقال صوت مارجوت الصافى : « أريدك لحظة ياهر شيفر ميللر .. يجب ان تساعدنى فى حمل هذه الاشياء ! » .. وتوقف الصوت ، فقال البينوس فى نفسه : « لقد رأتنى » ، ثم سحب المسدس من جيبه .

وسمع الى اليسار ، فى غرفة الجلوس ، صوت حقيبة تغلق ، ثم ارسلت مارجوت زفرة ارتياح صغيرة .. لقد أغلقت الحقيبة أخيرا .. وعادت تقول فى صوت رتيب : « .. او ربما يحسن ان تستدعى .. » .. وبدا انها بوغتت ، فصمتت تماما !.. وكان البينوس ممسكا بالمسدس فى يده اليمنى ، مستعدا لاطلاقه .. **وراح يتحسس بيده اليسرى حتى لمس مصراع الباب المفتوح فدخل ، وصفق الباب خلفه ، واسند ظهره اليه .**

كان كل شىء هادئا .. وكان يعلم انه وحيد مع مارجوت فى الغرفة ، وان لهذه الغرفة باب واحد ، هو الذى اغلقه خلفه .. وكان بوسعه ان يتبين الغرفة بوضوح ، كما لو

كان يراها بعينيه تماما .. فالى اليسار الاريكة ذات النسيج المنقوش ، بجانب الحائط الايمن .. والمنضدة الصغيرة التى تحمل تمثال راقصة الباليه المصنوع من الخـزف .. وفى الركن القريب من النافذة ، الصوان الذى تعلوه الايقونات الفاخرة .. وفى الوسـط المنضدة الاخرى الكبيرة الفخمة اللامعة ..

* * *

ومد البينوس قبضته ، وراح يحرك المسدس فى بطء يمنة ويسرة ، مرهفا اذنيه عسى ان يلتقط اى صوت ينم عن موقع مارجوت بالضبط .. كان يشـعر انها فى مكان قريب من الايقونات ، اذ كانت تهب عليه من ذلك الاتجـاه نفحة واهنة من الحرارة المضمخة بعطر « ليربلو » .. وفى تلك الزاوية كان شىء ما يرتعش ، كالهواء على رمال الشاطىء فى يوم شديد القيظ .. وزاد من ضيق الحيز الذى كانت يده تروح وتجىء فيه .. وفجأة ، سمع حفيفا خفيفا ، فهل يضرب ؟ .. كـلا ، ليس بعـد .. يجب ان يزداد اقترابا منها . واذ كان يفعل ذلك ، ارتطم بالمنضدة الوسـطى ، فوقف بلا حراك ..

وشعر ان مارجوت تتسلل مبتعدة عن اتجاه يده ، ولكن جسمه هو ـ وان يكن ساكنا لا يطرف ـ كان يصدر حفيفا يمنعه من ان يسمعها .. نعم ، لقد ابتعدت قليلا ناحيـة اليسـار ، فى اتجاه النافذة .. آه لو فقدت عقلها وفتحت النافذة ، وانطلقت تصرخ .. ان هذا التصرف يكون عونا الهيا ، اذ يتيح احكام الرماية . ولكن ، ماذا لو مرقت منه حول المائدة ، ثم خرجت من الباب الذى يقوم خلفه ؟ .. الافضل ان يغلق الباب اذن .. كلا ، لم يكن به مفتاح .. لقد كانت الابواب دائما ضـده ..

وامسك طرف المائدة باحدى يديه ، ثم تقهقر متراجعا ودفعها نحو الباب حتى أصبحت خلفه .. **وعندئذ شعر مرة أخرى بالحرارة التى تنبعث من امامه تنتقل ، وتتقلص، وتتضاءل** .. واذا كان قد اغلق الباب ، فقد احس بشيء من التحرر فى الحركة .. وما لبث أن شعر – مرة اخرى – بشيء حي يرتعد فى الظلام ، فتقدم بقدر ما يمكن من البطء ، حاسبا لكل جزء من الثانية حسابا .. وكان سكونها يثيره فى أول الامر ، ولكنه اصبح يميزها بوضوح تام .. **لم يكن الذى يميزه هو تنفسها ، ولا نبضات قلبها ، وانما شيء عام .. هو حياتها ذاتها !** .. تلك الحياة التي سيقضي عليها – بعد لحظة – وبعد ذلك .. السلام ، والصفاء ، والنور .. وفجأة أحس بحركة فى الركن المقابل له ، فحرك المسدس مجبرا كيانها الحار على العودة الى مكانه الاول .. ولكنه ما لبث ان أحس بها تختفى كلهب ينطفيء ، ثم أحس بها تزحف مقتربة من قدميه .. **فلم يستطع ان يضبط نفسه اكثر من ذلك .. وفى زمجرة عنيفة ، ضغط الزناد .**

ومزقت الرصاصة الظلام ، ثم ارتطم به شيء ما ، عند ركبتيه ، فوقع على الارض ، متخبطا فى مقعد ألقى عليه .. وسقط منه مسدسه ، ولكنه وجده فى الحال . وفى ذات اللحظة ، أحس بتنفس سريع يتردد بالقرب منه ، وبرائحة عطر وعرق تملأ أنفه ، وبيد باردة سريعة الحركة تحاول ان تخلص السلاح من قبضته .. وأمسكت يده عندئذ بكائن حي ، تند عنه صرخات مكتومة ، وكأنه مخلوق من المخلوقات التى تتراءى فى الكابوس .. **وما لبث ان شعر بذلك الكائن ينتزع المسدس من يده ، وبفوهة المسدس تلتصق به ، ثم سمع صوت انفجار مكتوم خيل اليه انه على بعد اميال عديدة** .. وشعر فى ذات الوقت بوخزة فى جنبه ، ملأت

عينيه بنور عظيم . واذ ذاك ، شعر براحة عجيبة ، وكأنه مستلق فى فراشه .

وقال فى نفسه : « اذن لقد انتهى كل شىء .. ينبغى أن أظل ساكنا هكذا هنيهة ، ثم أسير فى بطء شديد على رمال الالم المتألقة هذه ، نحو تلك الموجة الشديدة الزرقة .. اى سعادة فى الزرقة ؟.. لم أكن أعرف قط كيف يمكن ان تكون الزرقة .. أية حياة مضطربة كانت حياتى .. انا الآن اعرف كل شىء .. وذلك الشىء الذى يقترب ، ثم يقترب ، ثم يقترب .. ها هو ذا يغرقنى .. كم يؤلمنى .. لا استطيع أن أتنفس ! »

وكان جالسا على الارض ، وقد أحنى رأسه ، ثم مالبث أن مال الى الامام فى بطء ، وسقط كدمية كبيرة على احد جانبيه ..

وكانت تلك هى معالم المنظر الاخير فى المسرحيـــة : باب مفتوح على مصراعيه .. منضدة مدفوعة عن الباب .. بساط متكور تحت المائدة .. مقعد ملقى بجانب جثة رجل فى رداء أرجوانى ، وخفين من اللباد .. ومسدس متوار تحت الجثة .. والصوان الذى كانت فوقه الايقونات ، وقد اصبح الآن خاليا منها .. المنضدة الاخرى الصغيرة ـ التى كان فوقها تمثال راقصة الباليه ـ وقد خلت من التمثال ، ولم يعد فوقها سوى قفاز نسوى ؛ أسود من الخارج ، أبيض من الداخل .. وبجانب الأريكة ـ ذات النسيج المنقوش ـ حقيبة صغيرة وشيقة الصقت بها بطاقة ملونة مكتوب عليها : « روجينار . فندق بريتانيا » .

والباب المؤدى من البهو الى الخارج مفتوح كذلك على مصراعيه !

« تمت »